

روا



عزبة البرج

السيد شحاتة

الرواق للنشر والتوزيع

عزبة البرج

السيد شحاتة

■ الطبعة الأولى يناير 2018

الغلاف: أحمد مراد

التصحيح اللغوي: محمد حمدي

رقم الإيداع: 2017/25643

الترقيم الدولي: 8 - 023 - 824 - 977 - 978

جميع حقوق الطبع محفوظة

186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة نصر

هاتف: 0220812006

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaqa.Publishing



للنشر والتوزيع

عزبة البرج

رواية

السيد شحاتة

الرواق للنشر والتوزيع

شكر وإهداء

نهی هانم القاضي

الأديب الكبير أحمد عبد المجيد

الأستاذ ناصر صبور

الأستاذ عمرو رمضان

الأستاذ أحمد عبد العزيز

آه من الأنثى.. بداخل كل امرأة!

أنفاسه كانت تتلاحق مع أنفاسي، ولكن فجأة استبد به القلق..
فأبعدني عن صدره يقول:

- إنتي واثقة من الست دي الي اسمها الباتعة؟

- أيوه يا حسن واثقة.. ماتخافش.

- ماتخافش ازاي وهي في المرة الي فاتت، أول ما الباب اتقفل علينا،
لقينا أخوكي وعمتك فوق راسنا.

حقا في المرة السابقة، بمجرد أن اختلينا في الحجرة، فورا انتابنا
إحساس بأنه فخ منصوب لنا، وأن أحدهم حتما سوف يداهم الحجرة،
وبالفعل، بعد لحظات بدأنا نستشعر أولى ذبذبات الخطر، ثم وقعت
المداهمة، انفتح الباب فجأة عن أخي وعمتي، ووراءهما الباتعة، لكن
لحسن الحظ، كان حسن قد هرب في اللحظة الأخيرة، فنافذة الحجرة
بينها وبين الأرض أقل من مترين.

رباه.. هل الباتعة خائنة؟

وتخونني أنا؟

حقا لقد رأيت منها في المرة السابقة.. ما يؤكد الخيانة.

فيومها بعد فشل الفخ وهروب حسن، لمحت الخيبة في نظراتها،
تماما كما لمحتها في نظرات أخي وعمتي، الخيبة أنهم وجدوني وحدي
في الحجرة، نعم متوترة ومرتبكة، لكن لا أحد معي، ولم يكف أخي
وعمتي عن ملاحظتي بنظرات الدهشة والغیظ.. أما الباتعة، وإن رأيت
الخبية واضحة جدا في نظراتها، فإنها اختفت بعد لحظات، ليحل محلها
ما تعجبت له.. ما يشبه الندم والارتياح!

رباه.. هل يكون الندم.. هو ندمها على خيانتها لي؟

والارتياح.. أنها كفرت عن خيانتها؟

أنها مكنت حسن من الفرار في آخر لحظة؟

وامصبيته لو أن أخي وعمتي يخططان للظفر بي متلبسة مع حسن،
والباتعة تساعدتهما، لكن ضميرها يأبى فيمنعها في اللحظات الأخيرة!

لكن هذه المرة، من يضمن لنا أنها لن تخون؟ حسن يبدو خائفا،
وها هو خوفه ينتقل لي، لذا رأينا أن نحتاط، فأرهفنا السمع معا، لكن
لم نسمع إلا صوت التلفاز يأتي خافتا من الصالة، ومعه صوتها ترشف
الشاي، ولكن فجأة سكت صوت التلفاز، كأنها أغلقتة، ثم ارتفع
صوت غطيظها، كأنها نامت، فاطمأن قلبي وقلب حسن، لذا لم نعود
على صوت كأنها تتسلل خارجة، والحقيقة أن الاطمئنان دفعنا لنعود
ننشغل بها كنا فيه.. أنا أستعيده لصدري وأقول:

- خلاص.. أهى نامت.

وهو يضميني ويمنحني قبلاته ويقول:

- بحبك يا مهرة!

قبلاتنا هذه المرة لم تعد حذرة مترددة، كما كانت في اللقاء السابق، بل أصبحت جريئة ملتهبة، سابقا كنا ندرك أن عواقب جرأة القبلات ستكون وخيمة، ولكن هذه المرة ها نحن نتمادى، بل وتركته يدفعني إلى حيث السرير المتهالك العاري من الفراش، ولم نهتم بصريه العالي يفصح ما يجري فوقه، حتى خُيِّل لي في لحظة أن الصرير أصبح يُسمَع خارج الحجرة، وفعلا انفتح الباب علينا فجأة.. أخي وعمتي وخلفهما الباتعة! وهذه المرة آه من نظرات أخي وعمتي، لكن آه وآه من نظرات الباتعة، نظراتها الآن سادية ولا أثر فيها لندم أو ارتياح، بل غل تحالطه شماتة وتشفٍ، وعلى أية حال لم تكن نظراتها أو نظرات أخي وعمتي لتقدم شيئا أو تؤخر.. فقد جاءوا بعد أن كان كل شيء قد انتهى.

* * *

وكما توقعت.. حالا وفي بيت عمتي عقدوا مجلسا لمحاكمتي، أخي الذي في الحقيقة ليس أخي، هو فقط ابن المرحوم زوج أمي، وعمتي التي ليست عمتي، هي فقط أخت المرحوم زوج أمي، وانضم للمحكمة ابنها سعداوي، ذلك الذي أدعوه دائما في سري بالقدر، وانضمت أيضا بطبيعة الحال الباتعة الخائنة.. وبدأت المحاكمة بتقريع من العمة:

- طول عمري وأنا أقول إنك فاجرة وح تحيييلنا العار.

ثم سألتني السؤال الذي هو مرتبط بالفرس:

- الواد حسن الي كان معاكي، والي سابك وهرب زي الكلب،
خد منك حاجة؟

وواتني الشجاعة لأقول لها:

- أيوه.. خد كل حاجة عشان ترتاحي.

فقام أخي يركلني في بطني ويسبني:

- آه يا ملعونة يا بنت الكلب.

- أبويا مش كلب يا ابن الكلب.

فزاد من ركلاته حتى تقيأت دما، وحتى صاحت به الشيطانة:

- كفاية يا عاشور.. خسارة تودي نفسك في داهية عشان واحدة

زي دي.

فكف عن الضرب ولم يكف عن السباب، ولم تكف هي عن نظراتها
النارية، ونظرات أخرى أكرهها ذكرتني بنظراتها لحظة ما كانت تريد
اغتيال قطعة حساسة من جسدي وأنا طفلة، لولا أن منعتها المرحومة
أمي وجارتنا أم بدرية.. بدرية صديقة الطفولة والعمر حتى الآن.

وبخلاف نظرات عمتي، ثمة نظرات أخرى كانت من سعداوي!
هذا الذي أراه الآن يشذ عن الجميع في نظراته، بل وبيتسم لي! بل وها
هو قادم نحوي يتعثر في عاهته، ثم يخرج منديلا ليمسح به فمي! وكأنه
يعرب عن تعاطفه معي، بل والأكثر، جاء يهمس لي بعينه قبل فمه:

- ولا يهمك.. اللي انكسر يتصلح.

رباه.. إنه يعرض الزواج!

أأتزوج سعداوي؟

صديقاتي اللدودات الخبيثات، كن دائما يتها مسن حولي بأن سعداوي هو أفضل من يصلح لي زوجا، يفعلن ذلك من باب السخرية، وأجدني مضطرة لأن أسمع بغیظ ضحكاتهن العابثة وهن يعددن لي مميزاتة:

- يا بت .. كفاية إنه صاحب الورشة اللي ليكي فيها الربع.

وتؤكد أخرى:

- يا بت .. ده أشطر صنايعي سجاد في البلد.

وتقول أخرى:

- يا بت .. كفاية دقنه المسبسة اللي بتخلي الناس ينادوه يا مولانا.

وتقول أخرى ضاحكة:

- يا بت .. ده كفاية إنه بيحبك وواقع في دباديك.

ثم ترتفع ضحكاتهن، فأصرخ فيهن غیظا:

- متنازلة لكم عنه .. جتكوا ستين نيلة عليكو وعليه.

فتجلجل ضحكاتهن أكثر.

أعرف لماذا كن وما زلن يفعلن ذلك .. لأنني أجملهن.

والغيرة مني تنهش قلوبهن!

ولكن .. هل هي الغيرة حقا؟ أم أنها الحقيقة؟

إنها الحقيقة للأسف .. فعلا سعداوي رغم عاهته، هو من أمهر صناع السجاد في القرية، وفعلا الورشة التي يعمل بها، هي ورشته

بحكم أنه أحد الشركاء فيها، وفعلا أنا شريكة فيها بالربع الذي ورثته عن المرحومة أُمي، وفعلا ذقن سعداوي مسببة ومهذبة، مثل أخلاقه تماما، وتدعو الناس إلى أن ينادوه «يا مولانا»، وفعلا أعرف أنه يجنبي، وبالتالي فكل من يعرف هذه الحقائق، لا بد أن يراه أفضل من يصلح لي زوجا.

لكن صديقاتي الخبيثات يعرفن حقيقة أخرى وينكرنها عن عمد، رغم أنها أهم من كل الحقائق الأخرى، يعرفن أنني أكره سعداوي بسبب كرهه لأُمه.. لا أكرهها فقط، بل أبغضها وأمقتها كل المقت.

وأيضا.. يا للأنتى بداخلي!

الأنتى بداخلي تكره سعداوي لحقيقة أخرى، حقيقة تدفنها في أعماق نفسها ولا تبوح بها، لا لصديقاتها الخبيثات ولا لجنس مخلوق آخر.

تكرهه لأنه بساق خشبية كالحلة المنظر!

وإن كلاحتها تثير الاشمئزاز من صاحبها.. إنه قذر!

كما أن الأنتى بداخلي تريد رجلا صحيحا بلا ساق خشبية، وسيما مثل هؤلاء الذين يلتقون صديقاتي الخبيثات سرا عند الباتعة، صديقاتي الأقل مني جمالا، واللاتي تنهش الغيرة قلوبهن!

آه من النفس الإنسانية حين تريد أن تكره!

لكن صوت الإنسان بداخلي دائما يصرخ: لماذا تكرهين سعداوي وهو فعلا يحبك؟ ويشذ عن أمه وابن أخيها في حُسن معاملته لك، فهو الوحيد الذي يعاملك ككائن آدمي، حتى منذ طفولتكما المبكرة وقبل

أن تعرفا معنى الحب، فلماذا تعاملينه هكذا أيتها الجاحدة؟

لكن صوت الأنثى بداخلي.. دائما تكون له الغلبة!

ودائما يخرس صوت الإنسان!

بل ولا تكتفي الملعونة بذلك، دائما تدفعني دفعا لأفعل كل ما من شأنه أن يجعل سعداوي يكرهني، المسكين كان حين يستبد به الغرام، يتحایل ليقترّب مني هامسا أو ملامسا، فعلى الفور تلقي الملعونة في روعي أنه يتحرش بي، وبالتالي لا بد من أن أعاقبه بعقاب رادع، فابتكرت لي عقابا لا أقسى ولا أغلظ، فبمجرد أن يقترّب مني، فورا توسوس لي لأدفعه بلا شفقة في صدره.. فأفعل.. فيهوي فورا على الأرض، وبيتعد عنه عكازه أمتارا، وتلذذ الملعونة بمنظره وهو يعاني الأمرين ليلتقط العكاز ويقوم، وإذا ما شعرت للحظة أن ضميري سيتحرك ليؤنبني، فورا تخدره، بأن تعود توسوس: هل هناك ضمير يؤنب صاحبتة لأنها تدفع عن نفسها من يتحرش بها؟

والآن سعداوي لا يتحرش، بل يعرض الزواج، بل ويلح في عرضه وهو لا يكف عن مسح وجهي بمناديله، فجاءت الملعونة فورا توسوس: ما صبرك عليه للآن؟ هيا عاقبيه أو على الأقل اصرفيه.. فكفى ما أنت فيه، وليذهب مبتور الساق هذا إلى الجحيم.

ولم أكذب خبرا.. فورا دفعته بشدة في صدره، لكنه لم يسقط، أدركته الباتعة من خلفه بالكاد، ومن غيظي منها كدت أصرخ فيها: ماذا تريد مني أيتها الخائنة القوادة، كفاك عنى يا ذات الوجه الدميم المحروق. نعم هي قوادة، فهي لا تتورع عن فتح منزلها خلصة لكل عشاق

القرية، خصوصا فتیان وفتیات ورش السجاد المنتشرة، وكنت ألتقي بحسن عندها مثلهم، في الحقيقة هي مرة واحدة فقط قبل هذه المرة، فبيتها ملاصق لبيتي.. أو لبيت عمتي، وبالتالي فرويتي أو فضيحتي واردة، لذلك كنت أرفض دائما رغبة حسن في أن نلتقي عندها، ولكن عندما كادت نار الحب تحرقنا، لم أجد بدا من لقائه هناك، لكن لم يخطر ببالي قط أنها يمكن أن تخونني.. بالذات أنا.. فكم كنت أجزل لها العطاء!

على أن خيانتها لم تشردهشتي، فهي جزء من الخطة التي أعرف أنهم دبروها لي بليل، فأنا من بعد وفاة زوج أُمي وبعده أُمي، كنت متأكدة أنهم لن يتركوني وشأني، ويوما ما سيقطعون علاقتي بهذا البيت والتي هي أساسا أوْهَى من خيط العنكبوت، وكان يقع على عاتق الخائنة تنفيذ الجزء الأهم من الخطة.. أن يضبطوني عندها متلبسة مع حسن.. فلا أفضل من الفضيحة كي أطرد من القرية إلى الأبد.

ورغم يقيني أن ما حدث سوف يحدث، بل وكنت أنتظره وأترقبه، لكنني لم أكن أدري كيف أمنعه، رغم أنه يحدث وسيحدث لكثيرات غيري، فذلك هو سلو بلدنا.. أكل ميراث الإناث.. خصوصا إذا كانت الأُنثى يتيمة الأبوين ومستضعفة مثلي!

* * *

بلدنا كفر الغندور مركز قطور محافظة الغربية.

أبي توفي بعد أن طلق أُمي وأنا دون العاشرة، فتزوجت بعده تاجر سجاد من القرية، تزوجته على غير رغبة الشيطانة أخته، لأجد نفسي مرغمة أن أدعوها عمتي، أُمي ما تزوجت إلا لتنفني عني صفة اليتيمة،

فهيكذا كانت تقول، لكنها كانت تحبه، فهيكذا كنت ألمس، وإن كان يسومها ويسومني سوء العذاب. ثم توفي الرجل عن شاب فظ مثله كان أنجبه من امرأة قبل أمي، أيضا كنت أدعوه أخي مرغمة، ثم ما لبثت أمي أن لحقت برجلها، وكان ذلك منذ أشهر قليلة فقط، ومن يومها وأنا أعرف أن الشيطانة أخته.. أو عمتي.. ومعها ابن أخيها الفظ عاشور.. أو أخي.. وربما أيضا ابنها سعداوي، سيخططون ليستولوا بلا وازع من ضمير على ميراث أمي، ثم يطردوني من البيت والقرية طرد الكلاب.

لم يكن ميراثي كبيرا، لكنه يكفي لأعيش مستورة، هو لا يزيد على ربع ورشة سجاد، اشترته أمي من عائلة عمتي خوفا من تقلبات الزمن، فرحلت وتركته وتركتني للزمن، ومن سوء حظي أن نصيبي من الورشة، كان يقع في دائرة انتفاع العائلة الشريرة بنصيبيهم منها، بل انتفاعهم بنصيبيهم لا يتم إلا من خلال نصيبي، لذلك لم أفأجأ والمدعو عاشور يضع أمامي أوراقا ويقول:

- امضي هنا.

- أمضي على إيه؟

- على نصيبك من الورشة بيع وشر.

- ومين قال لك إني عايضة أبيع؟

- ح تبيعي غصبن عنك.. وفلوسك ح تاخديها حالا وعلى داير ملیم.. إحنا برضه عندنا ضمير ومانقبلش ناكل حق حد.

وألقى أمامي رزمة أوراق مالية وهو لا يفتأ يذكرني بفعلتي عند الباتعة، ولم أعرف كم المبلغ، كنت في غاية الرعب أن أسأله، حتى عاد سعداوي يهمس لي:

- اسمعي كلامه يا مهرة.. ماحدث غيره ح يشتري منك.

قالها ونظراته تتردد بيني وبين النقود الملقاة على الأرض، لا أدري هل هي نظرات قلق أم نظرات نهم، لكنها على أية حال جعلتني أهتف في نفسي: «اظهر على حقيقتك أيها القدر، فعلا كنت محقة أن أكرهك أيها الطماع الملعون»، وفكرت أن أرفض هذه الصفقة وأصرخ مستغيثة، لكن العار الذي لطخت به نفسي عند الباتعة، وفضيحتي التي سيتداولها الناس، والذل الذي ينتظرني لو بقيت في هذا البيت، كل ذلك منعني وأمات الصرخة في صدري، لكن عندما رأيت القدر ينحني على عكازه ويلتقط النقود، ثم ينهمك بعدها ورقة ورقة، خطفتها منه أقول:

- هات.. ح امضي.

ووقعت، ودموعي تبلل الورق.

ومن فوري ذهبت لورشة الأسطى عباس، أقف أمامه حائرة وأسأله كغريق يتعلق بقشة:

- فين حسن يا اسطى عباس؟

فرد ساخرا ونظراته تلتهمني كالعادة:

- حسن خلاص يا حلوة.. رجع دمياط يشتغل صياد زي زمان.. أصله بصراحة مش نافع في شغلانة الأسترجي.

ولم أعبأ بكلامه، بل رحت كالمجنونة أطلب حسن من هاتفي . في الحقيقة منذ تركت البيت لم أكف لحظة عن طلبه، لكن لا أسمع إلا الرنين المتواصل ثم الصمت، أو أحد الردود الآلية المعروفة، الهاتف مغلق أو غير متاح أو... حتى كففت تماماً عن طلبه حين انتهت إلى الحقيقة البسيطة المجردة.. أنه لن يرد.

آه.. هل يكون فعلها وخلا بي.

ووجدت نفسي أعود أقف أمام باب الباعة، وأطرقه بطرقات يائسة لعلها تفتح، فرغم كل شيء، لا أحد غيرها أمامي الآن ليمنحني ميبتاً آمناً للفجر، فلا بد أن أحدد في الوضع أين ستكون وجهتي، لكن لم أسمع من داخل شقتها إلا الصمت، ولعل الخبيثة بالداخل ولا تريد أن تفتح، فلم أجد بداً من الاتجاه إلى موقف سيارات دمياط، ففي دمياط إن لم أعثر على حسن.. سألجأ لبدرية.

ولكن في الطريق المظلم، سمعت ما جمّد الدم في عروقي، وقع خطوات أعرفها جيداً، خطوة ثم وقع عكاز ثم خطوة.. إنه سعداوي.. وفي الحال صور لي شيطاني أنه ما جاء إلا ليسلّمني آخر ما أملك، نقودي التي من شدة خوفي عليها دسستها في أعماق صدري، فقررت ألا أعبأ به وأمضي في طريقي، لكن صوته جاءني هامساً:

- مُهرة.. لحظة واحدة.. عايز اكلمك.

وآه من نبرات صوته رغم الهمس!

ومن ومضات عينيه رغم الظلام!

بها من الحب ما تتمناه كل أنثى.. وأية أنثى!

- عايز مني إيه يا سعداوي؟

- إنتي رايحة فين؟

- رايحة في ستين داهية!

- عندي كلام لازم تسمعيه يا ماهرة.

- كلام إيه؟

فلم يرد، وأراد أن يمسك يدي، فلجأت للعقاب إياه.. فورا دفعته في صدره بلا أدنى شفقة، فترنح وسقط على الأرض، وابتعد عنه عكازه أمتارا، ومثلما يحدث كل مرة، عانى الأمرين ليلتقطه ويقوم، ولكن عكس كل مرة، لم ألمح في عينيه دموع العجز، بل لمحت دموع العتاب وهو يقول:

- معلىش.. إنتي برضه معذورة.. إحنا قسينا عليكى كتير وظلمناكي أكثر.. ومافهاش حاجة لما تاخدي حقك مني.

- يا ريت يا سعداوي تروح لحالك وتسييني في حالي.

- مش قبل ما أقول لك الكلمة اللي في نفسي يا ماهرة.

- كلمة إيه انا مش ناقصاك!

فتقدم نحوي وأراد أن يمسك يدي ثانية، فدفعته ثانية، فعاد يترنح ويسقط، ثم يقوم ويقول:

- برضه ولا يهملك .. خدي حقك مني زي ما إنتي عايزة .. ولحد ما تقولي كفاية.

فصرخت فيه:

- إنت عايز مني إيه؟

- عايز اتجوزك .. أتجوزك ونعيش بعيد عن هنا .. بعيد عن الناس اللي انتي مش عايزاهم وانا كمان مش عايزهم.

وتلقائياً تحسست نقودي في صدري، وثالثاً أراد أن يمسك يدي، وثالثاً دفعته، بل أعنف وأشد، وهذه المرة عانى ما هو أشد من الأمرين ليلتقط العكاز ويقوم، وهذه المرة قال ودموع القهر تلمع على خديه:

- أظن بكده يا مهرة تبقي خدي حقك وزيادة .. مش كده؟

وبكى .. فانتهازها فرصة وتركته ومشيت، فجاء يتبعني بإلحاح، فسبقته ركضاً واعتقادي يترسخ أنه ما جاء إلا ليسلبني نقودي، وعلى البعد لمحت أضواء مصابيح نقطة الشرطة تتلألأ، تبدو في الظلام كأنها واحة الأمان في صحراء الخوف، ولأنني كنت أبحث عن الأمان، وقبله عن الانتقام، سولت لي نفسي أن أقترح بوابة النقطة لأشكوه، وفعلاً لم أعبأ بالواقفين عليها ولا بسحتتهم الكئيبة واقتحمتها، لكن يد أحدهم الغليظة أمسكتني من كتفي، فصرخت، ومع ذلك اندفعت لحجرة ضابط كان يجلس وحده، وقبل أن ينطق بادرته:

- عايزة أعمل بلاغ.

ثم انشغلت عن نظراته الحادة أحملق في النجوم النحاسية تلمع على

كتفيه، حتى انتبهت وهو يسألني بصوت جهوري مخيف:

- بلاغ في مين؟

- في.. في واحد اسمه سعداوي.. سعداوي سليمان الشيخ.

- عمل لك إيه؟

- هتك عرضي.

وفي هذه اللحظة كان سعداوي قد لحقني وجاء يقف خلفي، وسمع كل كلامي مع الضابط، فقال بصوت مجروح منكسر:

- كده انتي بتاخدي أكثر من حقك يا مهرة.. أكثر من حقك بكثير..
وده مش ح يرضي ربنا أبدا.. أبدا.

فنظرت له لا أهتم، ولكن.. إذا بي أطلق ساقّي للريح، فيا لهول ما
رأيتة في عينيه من لوم وعتاب وعذاب.. وحب!

* * *

حب!

كم أكرهك الآن أيتها الكلمة، فها أنا بسببك فقدت أعز ما أملك،
وكل ما أملك، وحتى الجنيهات المدسوسة في صدري، لا بد ستفد
يوما، وقد ترغمني الأيام في النهاية على أن أعود وأتزوج ذلك القدر
مبتور الساق.. الذي ويا للعجب.. يحبني!

يا إلهي..

أيحبني من لم أمنحه أي شيء!

ويتخلى عني من منحته كل شيء!

وبداخل الأتوبيس المتجه لدمياط، لم يكن لي شاغل إلا الاتصال بحسن، كل ثانية تقريبا أجرب الاتصال به، لكن لا جديد، رنين بلا رد، فجربت الاتصال ببدرية، فهي الآن الملجأ والملاذ، لكن ها هو القدر كأنه يعاندني، هاتفها أيضا لا يعطي إلا الرنين بلا رد، فقررت أن أعاود الاتصال بحسن لكن من رقم مختلف، فاستعرت هاتف إحداهن واتصلت، وأيضا لا رد، أعرف مكر حسن، بالطبع لن يرد على رقم لا يعرفه، ومع ذلك لم أكف عن الاتصال به، حتى أعطاني هاتفه أنه مغلق، فكدت أفقد صوابي، ولأن اليأس إحدى راحتين، يئست وهربت إلى الذكريات.

وبدأت ببدرية..

بدرية مأساتها كمأساتي، أيضا استولى خالها على ميراثها من أمها.. أمها التي رحلت بعد أمني بأسابيع، وعندما بدأ خالها يذيقها وزوجته ألوان العذاب، لم تجد إلا الهرب.. هربت إلى دمياط لتتزوج جزارا هناك، ومن وقتها انقطعت أخبارها عني، إلا من مكالمات عابرة لا تكاد تذكر. ثم أمسك الشيطان برأسي:

حسن فعلها وخلا بي، ويبدو أن بدرية أيضا ستخلو بي، وإلا فلماذا لا ترد؟ ربا.. هل سيحدث ما كنت أخشاه؟ أن يصبح الضياع هو مصيري؟ فهذا هو الضياع بالفعل يبدأ يطاردني، والبداية ستكون ببدرية، ستتخلى عني هي الأخرى لتكتمل الدائرة وأجد نفسي منزلقة نحو الضياع.. الضياع الذي سبقتني إليه حين هربت من قطور، هي منذ هربت واعتقادي الراسخ أنها ضاعت.

آه من الضياع..

منذ وعيت على الدنيا وأنا أرى أُمِّي نموذجاً يجسد الضياع، يجسده على أمثل ما يكون، ودائماً أخشى عندما أكبر أن أضيع مثلها، بسببها كنت أتتبع كل قصص الضياع، أتتبعها عبر قصص الأفلام والمسلسلات، أو أبتدع قصصاً أشد مأساة في خيالي وأتخيل نفسي بطلتها وأظل أعذب نفسي بها، والآن بدرية هي نموذج الضياع الجديد، أو على الأقل أراها مؤهلة له وجديرة به!

نعم.. بدرية مؤهلة للضياع.. وبجدارة!

فمن صغرها وبها شيء من الاستهتار، مع شيء من الغدر، دائماً ما كان يصدر عنها ما يهز ثقتي فيها، مثلاً عندما فصلونا معاً من المدرسة الإعدادية بسبب الرسوب المتكرر، ذهبت تقول لأُمِّي وأُمها من ورائي إنني السبب، وعندما واجهتها بذلك أنكرت! ويوماً وبعدما كبرنا وبلغنا مبلغ النساء، لمحتها تخرج من ورشة الأسطى عباس نشوانة شاردة، وعندما سألتها عما بها، اضطربت وتلجلجت، ثم حكّت لي حكاية ملفقة لم أصدقها، ويوماً آخر عندما سألتها لماذا لا تخاف على عذريتها مثل سائر البنات، قالت وهي تطلق ضحكة عابثة:

- يا عبيطة.. عود الكبريت اللي كان زمان بيولع مرة واحدة بس، دلوقت ممكن يولع مرة واثنين وتلاتة، وزى ما انتي عايزة.

ولم أفهم وقتها أنها تتحدث عن عمليات ترقيع غشاء البكارة!

حتى ماتت أُمها واستغلها خالها، فهربت إلى دمياط وتزوجت، وفي آخر اتصال منها منذ أشهر، لم أعرف منها تحديداً هل ما زالت

على ذمة زوجها أم لا، فكلامها عن حياتها الزوجية كان يشوبه شيء من الغموض.

واستمر شيطاني يوسوس:

من خيبيتي الثقيلة أن بدرية كانت حبيبة حسن قبلي، وهي التي أرسلته من دمياط لقريتنا ليعمل أستيرجياً مبتدئاً عند الأسطى عباس، لكن بعد زواجها قطعت علاقتها به، ثم رشحته لي، ولم أعرف بكل ذلك إلا من حسن، ولم أندعش، فقد كنت أعرف مدى عشقها للرجال، بالذات من تتوسم فيهم القدرة على تحقيق طموحاتها، لكنها عندما أدركت أن حسن ليس من هؤلاء، فترحبها له وأخرجته من حياتها، نعم هي أكدت لي مرارا وبما لا يدع أي مجال للشك، أن كل ما بينها وبينه انتهى إلى الأبد... وصدقته وما زلت.

وعن حسن.. فيا له من رجل.

يا له من شخص غامض شكلا وموضوعا!

شكلا هو وسيم، لكنه للعجب يهتم بذقنه بشكل خاص ولا يهتم بملابسه! ذقنه دائئا حلقة ناعمة، أما ملابسه فعادة غير متناسقة ولا مهندمة، ربما بحكم عمله كأستيرجي، أيضا كان يبدو بصحة جيدة، لكن أحيانا أشعر أنه يعاني شيئا ما في صدره، نوبات سعال حادة تتباه من حين لآخر، لكن عرفت سبب سعاله عندما لمست شرايته للتدخين، كان يدخن كل أنواع السجائر، الرخيص منها والغالي حسب أحواله المادية، حتى الشيعة كان يدخنها.

أما موضوعا، فحسن حقا كان محيرا.. أحيانا يبدو لي شخصية

إيجابية، وأحيانا سلبية، أحيانا أشعر أنه رجل يُعتمد عليه، وأحيانا لا، أحيانا أراه شخصا عاقلا يعرف معنى المسؤولية، وأخرى أراه نزقا لا يتحملها، بل ولا يحبها! لا أذكر أن لسانه نطق لي يوما بكلمة «أحبك» رغم أن عينيه وكل ذرة في جسده كانت تصرخ بها!

والآن أشعر بخوف، تُرى بعدما سلّمني شرفي عند الباتعة، هل سيظل يحبني، هذا إن كان حقا يحبني؟ أم أنه سيعيد النظر؟ ويا مصيبي لو كان سيعيد النظر.

وهنا وجدتني أطلب بدرية كالمجنونة، ففوجئت بها ترد، ومن حلاوة المفاجأة صرخت بهيستيريا لا أعبأ بنظرات الناس حولي:

- بدرية.. إنتي فين؟ ليه مش بتردي عليا؟ ليه؟ ليه؟

وظللت أكرر «ليه؟» حتى انهارت أعصابي، لأفيق على أيادٍ كثيرة ممتدة بالعطور والعصائر، لكنني رحت أتحمس ملهوفة هاتفي الذي فقدته، ثم أسمع من خلاله بدرية تصيح بقلق حقيقي:

- آلو يا مهرة.. إنتي رحتي فين؟ ردي عليا يا حبيبيتي...

- أنا معاكي يا بدرية.

- مالك يا روح قلبي؟ بتعيطي ليه؟ فيه إيه؟

قلت والبكاء يخنق صوتي:

- مفيش.. أنا كويسة.

- لا أنتي مش كويسة.. طمني في فيه إيه؟ إنتي فين دلوقت؟

- أنا راكبة الأتوبيس وجيالك.

- بجد؟ تعالي يا حبيبتي.. أهلا وسهلا.

- أول ما اوصل ح اكلملك.

ثم أردفت بسرعة متوسلة باكية:

- بس وحياتك يا بدرية.. خللي تليفونك متاح!

- لا يا حبيبتي.. إنتي ح تلاقيني في انتظارك بنفسي في المحطة.

- طيب.. مع السلامة.

- مع السلامة يا مهرة.. وخلي بالك من نفسك.

* * *

لم تتغير بدرية كثيرا، هي كما رأيتها آخر مرة، نفس الجمال المميز والأنوثة الطاغية، مثلي تماما، فنحن بجانب تشابهنا في العمر والطفولة المعذبة، كنا نتشابه أيضا في الشكل العام، ليس تشابه الملامح والتقاطيع، ولكن تشابه الجمال والأنوثة، نعم هو الجمال الهادئ المميز بمسحة ريفية.. لكنها الأنوثة.. الأنوثة التي تفيض من الجسد كما يفيض الزبد من قطعة الحلوى الساخنة، أنوثة في كل شيء، في الصوت والصورة واللفتات والحركات والسكنات، كنا الأنوثة مجسدة في امرأتين، أنا وهي.. وبالذات أنا.. باعترافها واعتراف كل من حولنا.

والآن لا أصدق أنني أضمرها وتضمني، وأنني أبكي على صدرها، وأنها تربت على ظهري تهدي من روعي، وإن كان روعي لا يريد أن

يهداً.. حتى قلت وصوتي يختنق بفرحة من وجدت الحزن والملاذ:
- حسن ضحك علياً يا بدرية.. خد كل حاجة وهرب ومش ح
اشوفه تاني!

- إهدي بس يا مهرة.. حسن ماهرش ولا حاجة.
- ماهرش ازاي؟ أو مال اللي عمله ده يبقى إيه؟
- صدقيني بكرة ح يميلك لحد عندك وتقولي بدرية قالت.
لهجتها تدل على أن لديها معلومات.. ومؤكدة، لذا صرخت:
- بجدي يا بدرية؟
- بجديا حبيبتى.
- طيب ازاي بس؟

- إزاي ماعرفش.. لكن أحلف لك بالله ح يحصل.
رباه.. ما تقوله يمنحني شيئاً من الأمل.. أمل يجعلني أضمرها أكثر،
وأيضاً يكييني أكثر، ثم كأنها أحست بي، فأرادت أن تزيد شحنة الأمل،
فقالت وهي تنزعني من صدرها لتتمكن من النظر في وجهي بحنان:
- دلوقت ح تيجي معايا البيت، ترتاحي وتحكي لي كل حاجة.
- بدرية.. بالله عليكى.. لو كنتي تعرفي طريق حسن، أنا عايزة
أشوفه.

- والله العظيم ما اعرف فين طريقه.. بس برضه والله العظيم ح
تشوفه.. المهم دلوقت ترتاحي وتحكي لي.

رباه.. الصديق فعلا يشع من صوتها، ويجعل الأمل في صدري يزيد
لدرجة تجعلني أخاف، فلو تبدد فمعناه الضياع.. ولكن.. ولكن لا بد
أن أمشي معها كالطفلة تتبع أمها، فلا خيار أمامي غيرها، ولا أمل لي إلا
فيها.. ومن المحطة ركبنا سيارة أجرة «مخصوص»، أمرت سائقها قائلة:

- فارسكور

فقلت بدهشة:

- الله! إنتي مش ساكنة في عزبة البرج؟

- ده كان زمان يا حبيبي.. لما نوصل البيت ح تعرفي كل حاجة.

ووجدتها تسكن عمارة حديثة، وإن كانت بأحد أحياء فارسكور
القديمة، لكن شقتها مؤثثة جيدا وبعناية، ولم تتركني أجلس إلا قليلا،
إذ ذهبت تجهز الحمام وتقول:

- مسافة ما تاخدي حمام، أكون جهزت لقمة ناكلها.

وعلى الطعام، وقبل أن أضعه في فمي، سألتها متوجسة:

- إنتي مش كنتي دايمًا تقولي إن حسن بيحبني؟

- ولسه بيحبك.

- طيب ليه سابني وهرب؟

- ماهربش ولا حاجة.

- إزاي بس؟

- حسن ظروفه صعبة يا ماهرة.. ودلوقت بقت أصعب من الأول.

- قصدك أمه واخواته؟

- أيوه..

- بدرية.. إوعي حسن يكون بيكذب عليكى وعليا.. أو تكونى

إنتى...

- إخص عليكى يا ماهرة.. عموما الله يسامحك.. أنا برضه مقدرة

اللى انتى فيه.

إن لها سوابقها معي! ولكن لعلها الآن بدرية أخرى!

- طيب اطلبه من تليفونك عشان مش ح يرد على تليفونى.

- حاضر.. بس بعد ما ناكل.

- لاء.. دلوقت.

كنت أختبر بالحاحي مدى صدقها، وإلى أي مدى هي متحملة

ومتقبلة وجودي معها، فأية بادرة ضيق منها ستؤيد كل شكوكي

تجاهها، وفورا سأغادرها إلى الأبد، وربما تنتهي حياتي بعدها.. لكن

ها هي تبسم وتقول:

- أمرك يا ست مرمر.. ح اطلب لك سي حسن من تليفونى.

وطلبته.. وإذا به يرد!

واستغل شيطاني الفرصة؛ أخذ يلعب برأسي ويملاً نفسي بالظنون

السوداء: لماذا رد حسن على هاتفها ولم يرد على هاتفني؟ إذن هو يتهرب مني.. يا ويلتي.. إنه الضياع...

وانتبهت إليها تعطيني الهاتف:

- اتفضلي سي حسن.

وجاءني صوته بعيدا مشوشا:

- أيوه يا بدرية.

فصرخت فيه:

- أنا مش بدرية يا حسن أنا مهرة.

- مهرة! أهلا أهلا يا مهرة.. إزيك؟

- إنت فين يا حسن؟ عايزة أشوفك حالا.

- إنتي عند بدرية وللا هي اللي عندك؟

- أنا في دمياط يا حسن.

- في دمياط؟ أهلا أهلا.. حمد الله ع السلامة.

- عايزة أشوفك يا حسن.

- حاضر.. بكرة إن شاء الله.

- لأ.. دلوقت يا حسن.

- دلوقت ده إيه؟ مش ممكن طبعا.

- ماشي يا حسن.. بكرة.. بس أكيد بكرة.. مش كده؟

وقبل أن أسمع تأكيده، انقطع الاتصال، فعدت أطلبه بإلحاح، لكن عاد الرنين الطويل ثم الصمت، ثم الهاتف مغلق، حتى من هاتف بدرية، فعدت أمتلى بالظنون السوداء وما هو أسوأ، ولكن جاءت بدرية تضميني وتطمئنني، حتى سكنت نفسي إلا قليلا، وأطلقت الطمأنينة لساني، فحكيت لها كل شيء، حتى ختمت قائلة:

- بس عارفة يا بدرية.. حاسة بتأنيب الضمير من ناحية الواد سعداوي.. مش مسامحة نفسي في اللي عملته فيه.

- ياختي بلا نيلة.. يستاهل.

- إنتي شايقة كده؟

- أيوه.. كفاية انه من العيلة دي الي كلها مجانين.. احمدي ربنا انك خلصتي منه ومنهم.. جاتهم القرف كلهم.

ثم قالت بضحكة صاخبة:

- عارفة يا بت يا مهرة.. الواد سعداوي ده.. رغم انه بصراحة مؤدب.. بس زيه زي كل الرجالة.. عينه زايغة وتندب فيها رصاصة.. مرة كان عايز يمسكني من...

ونطقت باللفظ.. هي في الحقيقة تريد أن تخفف عني، فأنا أعرف تفاصيل الحكاية وهي تعرف أنني أعرف، ومع ذلك ادعيت النسيان وسألتها بمكر النساء:

- وبعدين؟ إيه الي حصل؟

- اشتكيتيه لأمه.. ويومها خد حطة دين علقه!

وثانية أطلقت ضحكاتها، لكنني لم أشاركها، فجأة رحت أسترجع
نظرات العتاب والحب في عيني سعداوي، ودهشته وإحساسه بالظلم
وأنا أنهممه أمام الضابط، لكن الأنثى بداخلي تجاوزت بسرعة.. دعني
لأدعو بدرية لتحديثي عن حياتها:

- قولي لي يا بدرية.. لسه متجوزة الجزار؟

- جزار مين يا بت؟ اتطلقت منه من زمان.

- وخلفتني منه؟

- لأ.. والحمد لله اني ماخلفتش!

- ليه؟

- مابحبش العيال.

- ليه؟ دول نعمة من عند ربنا.

- ياختي بلا وجع قلب.

ثم أردفت:

- لكن الراجل بصراحة طلع شهم.. ساب لي كل حاجة بما فيها
الشقة دي بعفشها.

وتلقائيا طافت عيناوي بالشقة من جديد.. حقا واسعة وتساوي
الكثير بأثاثها الفخم.. وعدت أسألها بفضول:

- بتشتغلي يا بدرية؟

- لأ.

- ليه؟

- برضه مابجبوش.. وبصراحة كده أنا مش بتاعة شغل.

- الله! أو مآل عايشة ازاي؟

- يا حبيبتى المغفلين كتير.

- يعني إيه؟

فقامت تستعرض جسدها أمامي وتقول:

- يعني المغفلين كتير.. افهمي بقى يا عبيطة.

وفهمت.. وسرحت لحظات أتأملها.. حقا كم من موسر مغفل
على أتم الاستعداد لأن ينفق على امرأة مثلها، وقلت لنفسى: حقا بدرية
ضاعت.. حتى انتبهت وهي تقول:

- لكن ماقولتيليش.. العيلة الكلاب الي كنتي عايشة معاهم..
اشتروا نصيبك في الورشة بكام؟

- بتلاتين ألف.

فصرخت:

- بس؟ يا ولاد الحرامية!

ولم أعلق.. فأنا منذ قبلت بالصفقة وأنا أشعر بالغبن فيها، وهو

ما أورثني إحساسا بالقهر سيزيد إذا تحدثت فيها مع بدرية، لذا قلت
أعود بها لتحدثني عن نفسها:

- يعني انتي دلوقت عايشة لوحدة يا بدرية؟

- لوحدي ومش لوحدي.

- مش فاهمة.

- بعد الجزار اتجوزت واتطلقت.. ولسه لحد دلوقت بتجوز واتطلق.

- يا لهوي! يعني إيه بتتجوزي وتتطلقني يا بدرية؟

- عادي.. كله جواز عرفي.

- وكمان عرفي؟ ليه؟

- عشان العرفي راحة ومافيهوش وجع دماغ.

- بدرية.. أنا في عرضك.. أنا مش فاهمة حاجة خالص.

- شوفي يا ستي.. أنا ماقدرش أعيش من غير راجل يصرف عليا..

وكمان ماقدرش أعيش من غير جواز.. بس الجواز لازم يكون عرفي..

وكل اللي أتجوزه أشرط عليه شرط.. مفيش بيت واحد يجمعنا.. يعني

كل واحد مع نفسه.. نتقابل بس لما يهفنا الغرام.. والأهم من كده مفيش

خلفة.. ونفضل على الحال ده لحد ما ازهق منه أو يزهق مني.. بس قبل

الزهق.. أكون خدت منه كل اللي أنا عايزاه.

- ودي تبقى عيشة يا بدرية؟

- دي أحلى عيشة يا عبيطة!

وعدت أقول لنفسي: فعلا بدرية ضاعت!

لكني شعرت بأوصالي ترتعد وأطرافي تبرد.. يا لخوفي أن أضيع معها! لكن ما العمل وأين أذهب؟ أنا لا أعرف في هذه الدنيا إلا حسن وهي.. وحسن حتى هذه اللحظة يبدو كالسراب، فما العمل؟

حتى انتبهت وهي تقوم تريني مكان نومي، فأويت إليه من فوري.. ولكن هل أنام؟ مستحيل.. لم أكف لحظة عن التفكير في ما سمعته منها، وفي نفس الوقت لم أكف لحظة عن الاتصال بحسن، حتى الفجر، وحتى تحطمت أعصابي من ردود هاتفه الآلية، فطوحت هاتفي بسخط ورحت أبحث عن هاتف بدرية، فحسن لن يرد إلا عليه، لكنني لم أجده، وحتى عندما اتصلت عليه عاندي هو أيضا وأعطاني أنه «مغلق»، فدفعني السخط لأذهب أبحث عنه تحت رأس صاحبه النائمة، فلم أجده أيضا، فلم يكن من بُد إلا أن أسلي نفسي بتأملها وهي نائمة، حتى لا أصاب بمس من الجنون.

من هيئتها وطريقتها في النوم، أدركت أنها من اللواتي لا يستيقظن إلا بعد الظهر، وإذا بي أهمس لنفسي: ها هي بدرية لم تنزل للضياع، بل إنها تبدو مستعصية عليه، بل وتتحداه وتهزمه، بدليل أنها تستمتع بحياتها هكذا، تفعل ما يحلوها ثم تنام ملء جفونها.. فأين الضياع إذن؟

فعدت أهمس لنفسي: ترى هل أستطيع أن أحذو حذوها؟ أن أصبح يوما مثلها؟

وفعلا لم تستيقظ بدرية إلا قبيل العصر، وكنت قد نثت من الاتصال

بحسن، وعلى مائدة الإفطار، أو بالأحرى الغداء، وقبل أن نشرع في تناول الطعام، قالت بدرية كأنها تشعر بي:

- أنا عارفة انك على نار عشان تكلمي حسن!

- ما هو مش ح يرد إلا على تليفونك.

- ماتظلميهوش يا مهرة.. جري كده تتصلي بيه من تليفونك، يمكن

يرد.

- أنا طول الليل باتصل بيه مايردش.

- وماله.. جري دلوقت.

وجربت، فردّ، فصرخت:

- حسن.. إنت فين يا حسن؟

- إزيك يا مهرة؟

- إنت ح تيجي يا حسن.. مش كده؟

- ألو.. إزيك يا مهرة؟

- ح تيجي يا حسن وللا؟

- أيوه جاي يا مهرة.. ما انا قلت لك كده امبارح.

- يعني جاي حالا؟

...

وانقطع الاتصال..

وإذا كنت لا أعرف كم المسافة بين عزبة البرج وفارسكور، فإن ساعات ثقيلة مرت وحسن لا يأتي، ولا يرد لا على هاتفي ولا على هاتف بدرية، حتى حل الظلام، فبدأت أعصابي تنهار، إذ تأكدت أنه الضياع، وبدأت بدرية أمامي غامضة، أحياناً أراها حائرة عاجزة لا تملك لي شيئاً، وأحياناً أراها كأنها تدعي الحيرة والعجز لكي تخفي عني أمراً، وعادت الظنون تلعب برأسي: هل وقعت فريسة لحسن وبدرية؟ ولكن إذا بالقدر يلطف بي..

إذ على تمام الثامنة بالضبط، رن جرس الباب، ثم دخل حسن، في البداية لم أصدق أنه هو، لا من المفاجأة، بل من منظره العام، فرغم أنه غاب عني يومين فقط، ورغم أن عهدي به أنه نحيف القوام، فإنه الآن يبدو كالذي على وشك الموت، لا وسامة وجه ولا نعومة ذقن، بل صفرة وهالات سوداء تحيط بعينه، وذقن خشنة كالشوك، وكلما نظرت إليه، فوراً ينظر إلى الأرض.. رباه.. هل النظرة التي ألمحها الآن في عينيه، هي نظرة من يشعر أنه تورط في فتاة باعت شرفها؟ وبالتالي قد يراجع نفسه فيلفظها؟ كنت منذ دخل وأنا أحملق فيه بحثاً عن هذه النظرة.

والآن.. مئات الكلمات تتصارع داخل حنجرتي لتخرج، فلا تخرج، أشعر أنني أريد أن أصرخ فيه بعشرات الأسئلة، لكن شيئاً ما يلجم لساني ويخرسني، والحقيقة كنت أريد أن يبدأ هو بالكلام، لكن الصمت شل ألسنتنا جميعاً، حتى قالت بدرية مازحة لتخرجنا منه:

- أعرفكم ببعض.. مهرة.. حسن!

وحتى لم يتتسم.. فقط قال وهو لا يزال ينظر إلى الأرض:

- إزيك يا مهرة.. حمدالله ع السلامة.

يا إلهي.. ما بال صوته يأتي هكذا بعيدا كأنه يأتي من أغوار بئر سحيقة.

- أنا بخير يا حسن.

ثم أردفت بما يشبه الصراخ:

- إنت ليه سبتني وهربت؟

- أنا ماهر بتش يا مهرة.

- أو مأل اختفيت فجأة ليه؟

- عاشور اخوكي لو كان مسكني كان ح يقتلني.

ولم أشأ أن أقول له إنها كانت خطة مدبرة، هدفها الأول والأخير ميراثي ثم طردي.

- وليه سافرت دمياط في ساعتها؟ ومن غير حتى ما تشوفني أو تعرف هما عملوا فياً إيه!

- إزاي وفين بس يا مهرة كنتي عايزاني اشوفك؟ عند عمك وللا عند الباتعة؟ الباتعة الخاينة اللي ياما حذرتك منها.. وبعدين أنا كده كده كنت لازم ارجع دمياط.. الشغل عند عباس ماكانش جايب همه.

- ياه يا حسن.. هو ده بس كل اللي يهمك؟ الشغل؟ ما يهمكش المصيبة اللي انت حطيتني فيها؟ لأ وإيه كمان.. قافل تليفونك على طول عشان ماتسمعش صوتي يا حسن؟

فسكت، لكن بدرية أسرع تقول:

- معلى يا مهرة.. اعذريه.. ما هو برضه ظروفه...

فقاطعتها، لكن موجهة كلامي له، أسأله بغضب وتوسل وبكاء
في نفس الوقت:

- إنت طبعاً تتجوزني يا حسن.. مش كده؟

وقبل أن يعلق.. قلت وبكائي يغلبني:

- مش ح اقول الي حصل ده كان غلطتي وللا غلطتك.. كان غلطتنا
احنا الاثنين.. لكن طبعاً مش ح ينفع تتخلي عني.. مش كده يا حسن؟
- طبعاً.. طبعاً يا مهرة.. أنا مش ممكن أتخلي عنك أبداً.. و.. وأكد
ح التجوزك.

- إمتي؟

وبعد لحظة صمت سألني وهو ينظر لبدرية:

- هو النهارده إيه؟

- التلات.

- خلاص.. الخميس بعد الي جاي نكون عند المأذون بإذن الله.

وإن كنت لا أعرف مدى صدقه، كدت ألقى بنفسي على قدميه
امتناناً، وقامت بدرية تعد مائدة العشاء، لكن على الطعام لم يتبادل
ثلاثتنا إلا كلمات مقتضبة، والسبب حسن، طوال الوقت ساهم شارد،

ويتجنب نظراتي التي لم تكف عنه، وما إن فرغ من شرب الشاي حتى قام يريد الانصراف، فتعلقت به وأنا أسأله قلقة:

- حسن.. من هنا للخميس بعد الجاي.. ح اشوفك تاني؟

- هه.. آه طبعاً، طبعاً.. أكيد ح تشوفيني.

- إمتي؟

- الجمعة الجاية.. الجمعة الجاية ح آجي آخذك نتغدى مع أمي واخواتي.. أعرفك بيهم ونتكلم في ترتيبات الجواز.

- بجديا حسن؟

- بجديا مهرة.. بس دلوقت سيبيني أمشي عشان خاطري.

ولم أجد بداً من الامتثال.. لكن على درجات السلم توسلت إليه باكية:

- حسن.. وحياتي عندك.. ماتقفلش تليفونك وخليه دايماً متاح!

- حاضر.

وانطلق.. وعدت لبدرية أسألهما السؤال الذي كان يجب أن أسأله لحسن، ولكن لا أدري ما منعني:

- بدرية.. هو صحيح حسن زي ما قال عباس ح يرجع يشتغل صياد، زي المرحوم أبوه وزى أهل عزبة البرج كلها؟

- حسن خد دكان إيجار جديد يا مهرة.. وح يشتغل أسترجي زي ما هو.

وهنا فقط، وللمرة الأولى، يتسلل قبس من الطمأنينة إلى قلبي،
وعدت أسألها:

- هو ليه حسن زي ما يكون شاييل هموم الدنيا كلها فوق راسه؟
- حسن مشاكله متلتة يا مهرة.. أمه عيَّانة بالربو وعلاجها بيكلفه
كثير.. وأخوه وأخته لسه في التعليم وهو الي بيصرف عليهم.. المرحوم
أبوه كان صياد على قد حاله.. وللأسف ماهوش معاش.
فسرحت قليلا، حتى انتبهت إلى كلماتها تحرق أذني:

- ولازم تعرفي يا مهرة إن حسن مش ح يقدر يجيب لك شقة.. ح
تعيشي مع أمه واخواته.

- هه؟ مع أمه واخواته؟

- أيوه.. وفي شقة يا دوب أوضة وصالة ومطبخ وحمام.

- أوضة وصالة ومطبخ وحمام؟

- أيوه.

وعدت أسرح، حتى جاءت تربت على ظهري وتقول:

- معلش يا مهرة.. نرضي بالمقسوم لحد ما ربنا يفرجها.

- هه.. آه طبعاً.. أنا راضية.

ثم قامت تبدل ملابسها وتقدم لي فستانا من فساتينها وتقول:

- قومي غيري هدومك، ح ننزل نتفرج على فارسكور بالليل..
الكورنيش بالليل يجنن.

ودقائق وكنا في الشارع.

منذ تركت بدرية قطور، وهذه هي المرة الأولى التي سنسير فيها كما كنا نسير هناك، متجاوزتين ومكتملتي الأناقة والماكياج، وما إن بدأنا أولى الخطوات في شوارع فارسكور، حتى أصبحنا هدفا مباشرا لصافرات الغزل وآهات الإعجاب، ورغم ما كنت أشعر به من شبه سعادة، مبعثها مجيء حسن الذي أورثني شبه اطمئنان، كنت أتمنى مع كل خطوة أخطوها بجوار بدرية أن تنشق الأرض وتبلعني.. أو تلعها.. كانت تتجاوب مع الغزل بمنتهى الأريحية، وتوزع ابتساماتها بالعدل على الجميع.

وبدأنا التنزه بالفرجة على معارض الأثاث، وكلما وقفنا أمام حجرة نوم فاخرة، فوراً تقفز لذهني «الأوضة والصالة والمطبخ والحمام»، فأترك الفرجة وأشرد واجهة. حتى وقفنا أمام صالة موبيليا فخمة ضخمة، تكاد من فرط ضخامتها لا تحيط بها العين، وإذا ببدرية تسحبني من يدي لندخل، ووقفت أحلق في المعروضات فاعرة فاهي، حتى جاء رجل ملتصق مهيب الطلعة يرحب بنا، وعلى الفور خمنته صاحب الصالة، وما لبثت بدرية أن اختلت به تتبادل معه كلمات، ثم تركته وعادت لي ونظرات الرجل تتابعها بنهم، وعندما أنهينا جولتنا في الصالة وخرجنا للشارع، قالت بضحكتها المعتادة:

- إيه رأيك في الصالة دي؟

- تجنن.

- والموبيليا اللي فيها؟

- تهوس .

- أهى الصالة دي بالموبيليا اللي فيها .. بكرة تبقى بتاعتي .

- إزاي ؟

- بعدين ح اقول لك .. لكن وشرفك ح يحصل .

ومن مكرها .. وربما من طيب سريرتها .. انتهت إلى أنها أقسمت
بشرفي، لكنها فوراً قلبت الأمر لضحك ومزاح، كعادتها، حتى اكتشفت
أنني ظلمتها، لأنها وقفت بي أمام محل يعرض فساتين الزفاف الراقية
تقول:

- فستان فرحك ح نشتره من هنا .. ح يكون هديتي ليكي .

ومن فرحتي صرخت أضمرها، فالآن، والآن فقط، هبطت فيوضات
من الاطمئنان على قلبي .. والأكثر .. شعرت أنني أنجو من براثن الضياع .

* * *

منذ مجيء حسن وحتى صباح الجمعة المرتقبة لنزور والدته، لم أكف
لحظة عن الاتصال به، لكنه أبداً لم يرد .. ولا حتى على هاتف بدرية،
فعادت الظنون إياها .. نعم الآن أنا متأكدة تماماً من صدق بدرية، أما
حسن .. فلأسف لا .

ولكنه في اليوم الموعد جاء .. جاء في موعده بالثانية ! بل وبداء سعيداً
وهو يجيب عن أسئلتى المتلاحقة، ويبدل جهده ليثبت الطمأنينة في نفسي،
الطمأنينة التي ما زالت إلى اللحظة تراوغي .

ولكن رباہ.. لماذا يسعل بشدة هكذا، ويظل يسعل طويلا وكثيرا، أكثر مما كان يسعل في الزيارة السابقة، رغم أنه طول جلسته لم يسعل سيجارة واحدة، بل لم يكن معه سجائر أصلا! ولكني لم أهتم.

وأيضا لم أصدق وهو يتأبط ذراعي ليأخذني إلى أمه، ورفضت بدرية أن تأتي معنا، قالت إنها لا تعرف السيدة، فلم أناقشها ومضيت مع خطيبي سعيدة متعجلة لقاء حماتي.. نعم.. من الآن وصاعدا سأدعوه خطيبي وسأدعوها حماتي.

ولكن ما أعجب النفس البشرية وأعقدها، هذه التي تتوقع دائما الأسوأ! إذ فجأة داهمني إحساس مبهم بأن سعادتي تلك منقوصة، أو أنها ستنقص بعد قليل.

في الطريق أردت اشتراء هدايا لأسرة حسن، لكنه رفض بشدة، ودفعتني دفعا لنركب سيارة الميكرو باص، وبدخلها جاء جلوسي أمام أحدهم، الذي فتح جريدته ليقرأها، وتجمد الدم في عروقي وأنا أقرأ بالبنط العريض:

وفاة إرهابي داخل مركز شرطة قطور غربية

وعندما قرأت التفاصيل كدت أصاب بلوثة جنون.. إن الإرهابي اسمه سعداوي سليمان الشيخ، وقد مات بسبب هبوط مفاجئ في الدورة الدموية، وكان ضمن الخلية المتهمه بالتفجير الأخير بمحطة قطار قطور، وتم القبض عليه بعد بلاغ من إحدى السيدات قالت إنها رآته يحاول زرع قنبلة بدائرة كفر الغندور التابع للمركز.

وكاد حسن يحن من حالتي التي تغيرت فجأة!

وفي منزلهم فوجئت بمقابلة أمه وأخويه.

عندما دخلت عليهم، كانت أمه منهمكة في التنظيف، ولم تهتم بي عندما رأتني، استمرت تنظف كأن لا شيء، بل كأنها لا تنتظر أحدا من الأساس، وحتى عندما قدمني حسن، لها لم تحرك ساكنا، اللهم إلا كلمة أهلا نطقتها ببرود ثم عادت للتنظيف، أما أخواه، فقد عادا لما كانا عليه بعد أن رمقاني شذرا، الولد عاد يشاهد التلفزيون، وأخته عادت تدعي المذاكرة.

وعلى الغداء لم يكن من حديث إلا سؤال واحد، سألتني أم حسن وهي لا تنظر لي:

- إنتي من الغربية؟

- أيوه يا نينة.

ثم الصمت التام حتى انتهاء الغداء.

كان أملي وظني أن حسن لم يحك لها ما كان بيننا، لكن عندما رأيتهما تحتلي به عند الموقد وهي تعد الشاي، ثم تصيح به متعمدة لأسمعها:

- يعني من قلة البنات يا سي حسن.. وبعدين مستعجل قوي ع الجواز يا قلب امك.. مش قادر تستنى لما اخواتك يخلصوا تعليم؟

عرفت أنه حكى لها، وانتظرته أن يرد عليها، فلم يرد، ثم جاءني بصينية الشاي ووضعها أمامي كأنها تلقيها، ثم ما لبثوا أن عادوا جميعا لشأنهم القديم، التلفزيون والمذاكرة والتنظيف، فانتحيت جانبا بحسن أهمس له:

- للدرجة دي أنا ضيفة ثقيلة عليكو يا حسن؟
- ماتقوليش كده.. بالعكس.. دي أمي فرحانة بيكي قوي.
- آه.. ما هو باين.
- ثم:
- إنت حكيت لها؟
- عن إيه؟
- عن اللي بينا.
- فوضع وجهه في الأرض، فصحت فيه لا أبالي أن تسمعني المرأة:
- حسن.. إنت ناوي تتجوزني وللا لأ؟
- طبعا ح اتجوزك يا مهرة.
- إمتى؟
- في الميعاد اللي اتفقنا عليه.
- وأمك عارفة؟
- فأجاب همسا:
- طبعا.. دي حتى ح تستغنى عن سريرها ودولابها عشان يبقوا في جهازنا.
- فلم أعلق، فقط اغرورقت عيناى بالدموع، فربت على ظهري يطيب

خاطري، ثم استغل ذهولي عن نفسي فخطف مني قبلة من وراء أمه،
لكنها لمحتنا، فأطلقت زفرة هائلة عن عمد تقول:

- سترك علينا يا رب.

فأخذت حقيتي وأسرعت لا ألوي على شيء.

* * *

صرخات غلام، أو شاب، كانت تأتي على فترات من شقة الجارة
المقابلة لبدرية، وعندما كنت أسأله عنها، كانت تقول ضاحكة:

- ماتحطيش في بالك.

وفعلا لم أكن أهتم، لكن هذه المرة جاءت الصرخات قوية، ومثلما
كنت ألاحظ في كل مرة، لم تكن الصرخات صرخات ألم، بل صرخات
تنم عن إحساس مبهم يشعر به صاحبه، وذائما ما تثير ضيقي.. لكنها الآن
تثير حنقي.. لأنها تشوش على فرحتي بفستان الزفاف الذي أستعرضه
على جسدي، خصوصا أن بدرية تركتني تقول:

- كملي انتي لحد ما ارجع لك.

وانطلقت فورا لشقة جارتها، كعادتها كلما سمعت الصرخات،
وعندما رجعت كانت الصرخات قد سكنت، أيضا مثلما يحدث كل
مرة، فسألته بفضول:

- هي إيه الحكاية؟

- حكاية إيه؟

- الواد اللي دايبا يصرخ من شقة جارتك.

- آه.. ده وليد ابنها.

- بيصرخ ليه؟

- بعدين ح اقول لك.. خرينا دلوقت في فستانك.

الفستان حقا كان رائعا، فانصرفت إليه بالفعل.

ثم جاءت الليلة الموعودة.. ليلة زفافي لحسن.. أو الليلة التي سينتهي فيها خوفي من الضياع إلى الأبد.. ولكن ما بال الضياع إلى اللحظة يطاردني! بدرية وحسن رغم أنها أعدا كل شيء، ورغم أنه رد على كل اتصالاتي اللحوح، فإنه تأخر ولم يأت إلى الآن، تأخر لوقت لن يصح أن يتأخر بعده ولو دقيقة واحدة.. رباه.. هل تكون أمه قد أثرت عليه؟ هل تكون المرأة أقنعت به بأن يتخلى عني؟ أكيد.. فهي من أول وهلة لم ترتح لي، ومؤكد أنها سألت ابنها السؤال الذي لا بد أن تسأله له: لماذا يربط حياته بفتاة ساقطة؟ فأنا بلا شك في نظرها ساقطة، والساقطة في نظر الناس عامة، تظل ساقطة حتى لو تابت أو تزوجت، فما بالها في نظر الحماة!

آه.. ويلتي لو أن المرأة أثرت بالفعل على ابنها.

وعادت الظنون السوداء تعربد في رأسي.

ولكن ويا للعجب.. كلما شاهدت بدرية أمامي منطلقة، لا تكف عن إطلاق قفشاتا وضحكاتا العابثة، أجد نفسي وقد امتلأت قوة وطمأنينة لا حد لهما! رباه.. هل الإقبال على الحياة والاستهانة بها هكذا

كما تفعل بدرية، هو السبيل لتجنب مصائبها! ومع ذلك بحث لها بمخاوفي.. فقالت ضاحكة بصوت يشع ثقة:

- لا يا حبيبتي.. حسن جاي يعني جاي.. مايقدرش مايجيش.. وحتى لو ماجاش.. أنا من بكرة أقدر أجوزك سيد سيده.

وفورا فاض قلبي قوة وطمأنينة.. وجرأة!

بل ويا لكراماتك يا بدرية!

إذا بحسن يخيب ظنوني السوداء ويأتي!

جاء مرتديا بذلة زرقاء بدا فيها غاية في الأناقة، لكن الأجل من أناقته، كانت أناقة المأذون، الذي جاء مرتديا الزي التقليدي، الجبة والقفطان والعمامة.. يا الله.. ما أجمل هذا الزي وأعجبه.. له من الهبة والجلال والوقار، ما يملأ القلب بهجة لها طعم خاص، ما من عقد قران حضرته، إلا وكنت أرى المأذون فيه بدون الزي التقليدي، حتى اعتقدت أنه لا يرتديه إلا في الأفلام والمسلسلات فقط، وكم تمنيت أن أرى في الواقع مأذونا بزيه التقليدي، ولو لمرة واحدة، فإذا بي أراه في حفل زفافي أنا، فهل هي بشرى من القدر؟ هل القدر يبارك حياتي الجديدة بطريقته؟ ربما! ولن أنسى أبدا الزغرودة التي أطلقتها بدرية لحظة مجيئه!

لكن وعند عقد القران، كادت تحدث مشكلة، فعندما اطلع المأذون على تاريخ ميلادي، شك أنني بلغت السن القانونية للزواج، ولكن بالحساب الدقيق، اتضح أنني تجاوزتها بأربعة أيام فقط، وفورا اعتبرتها بشرى ثانية من القدر!

وبدأ الحفل في شقة بدرية، لكن بعدد حضور أقل من أصابع اليدين، فبجانبي أنا وحسن، لم يكن إلا بدرية والمأذون والشاهدان ووليد صاحب الصرخات وأمه، الشاهدان والمأذون انصرفوا فور عقد القران، وبقي وليد وأمه.. وليد شاب يافع في بداية الرجولة، مصاب بنوع من التخلف العقلي، لكنه واع لنفسه جيدا، وصحيح البنية وليس به ما يستدعي الصرخات التي يصرخها! أما أمه فهي سيدة في نحو الأربعين، ممتلئة قليلا وعليها مسحة من جمال قديم، وطبعاً لم تحضر أم حسن ولا أخواه، لكنني لم أهتم وحتى لم أسأل حسن عنهم.

وأحييت لنا بدرية الحفل على أحسن ما يكون، رقصت كأحسن راقصة، وشاركتها أم وليد، حتى وليد رقص، وكان رقصه غاية في الظرف والمتعة، وكان في غاية السعادة ببدرية وهي ترقص، ومن جانبها لم تكف لحظة عن ملاطفته ومداعبته، وأحيانا كانت تضمه وتقبله.

ثم جاءت اللحظة التي طالما تمنيتها، لحظة أن يتأبط حسن ذراعي ليأخذني إلى بيتي.. أو.. أو إلى بيت أمه.. عموماً لا بأس!

وهناك، وكالمرة السابقة، كان الإحباط!

كنت أتوقع أن المرأة وولديها، من باب الذوق، سيتركون لنا البيت هذه الليلة على الأقل، لكن لم يحدث، بل ووجدتهم يحتلون الحجرة التي قال حسن إنها ستكون لنا، بل ويرتدون ثيابهم المنزلية المعتادة، كأنهم يتجاهلون أن عائلهم الوحيد يتزوج الليلة.

وكانت ليلة سوداء.

إذ لم نكد نأوي لحجرتنا التي غادروها مكرهين، ولم أكد أغبر بفستاني

قميص النوم الذي أهده لي بدرية، ولم أكد أمضغ أول لقمة يضعها حسن في فمي، حتى انفتح الباب علينا فجأة! حماي تستعرضني بنظراتها ثم تأمر زوجي قائلة:

- ناولني المكوى يا حسن.. أخوك عنده مشوار الصبح وعازية اكوي له قميص.

وناوها حسن المكواة، وانصرفت المرأة كأنها لا تريد أن تنصرف، ثم جاءني صوتها من خلف الباب:

- سترك علينا يا رب.

فضمني حسن يطيب خاطري، ثم إذا بصوت الهون يدق، ثم الراديو يزعق بأحد برامج إذاعة القرآن الكريم، ثم صوت المرأة تتشاجر مع ولديها لأسباب مفتعلة، المشكلة أن الأصوات من فرط ضيق الشقة، كنت أسمعها كأنها تصدر من حجرتنا، ومن قهري نمت كمدا، ولم تفلح محاولات حسن لنستأنف ليلتنا.

وعند الفجر اكتملت المأساة.

قمت من نومي مفزوعة على صوت صراخ وعويل، فجريت هلعة إلى الصالة أستطلع الأمر، فلم أجد إلا حماي تمارس مهام الصباح وتبدو كأن لا شيء، تماما مثل حسن الذي سمع الصراخ فلم يبال وعاد يغط في نومه، واكتشفت أن الصراخ يأتي من الشارع، عشرات النسوة يطلقن حناجرهن بالنواح، نواح مفزع كثيب يقبض النفس، ولم تجد حماي بداً من الإجابة على نظراتي المتسائلة:

- بيصوتوا على الناس اللي غرقوا امبارح.. ومن هنا ورايح ح تسمعي
من ده كثير.

- ناس مين اللي غرقوا؟ وليه ح اسمع من ده كثير؟

فلم ترحني برد.. مجرد كلمات غامضة مبتورة وتركتني!

وفي الصباح لم أفهم من حسن إلا بالكاد، ليس لأنه لم يكن يريد أن
يُفهمني، بل لأنه كان غير مهتم، كأن الأمر لا يستحق:

- آه.. الصوت بتاع امبارح؟ لازم فيه ناس غرقوا وأهلهم كانوا
بيصوتوا عليهم.

- ناس مين؟

- اللي بيهربوا في البحر.

- بيهربوا ليه أو من إيه؟

- ماسمعتيش قبل كده عن حاجة اسمها الهجرة غير الشرعية؟

- لأ.

- فيه ناس من ضيق الحال بيها بتهرب لأوروبا عن طريق البحر.. من
سواحل كثير في مصر.. زي دمياط واسكندرية وكفر الشيخ وغيرها..
وأشهر حتة في دمياط للهروب هي عزبة البرج.. بلدنا اللي انتي فيها
دلوقت.. وأشهر حتة في عزبة البرج مكان اسمه ساحل الدبدوبة..
وده قريب قوي من هنا.. يعتبر مرسى المراكب اللي بتاخذ الناس اللي
عايزة تهاجر.. للأسف المراكب دي دايا بتغرق بكل اللي عليها قبل

ما توصل لعرض البحر.. وبعد يومين ثلاثة الموج يحذف الجثث على الشط.

- وليه بتغرق؟

- عشان دايم قديمة وبتشيل أكثر من طاقتها.

ثم تابع:

- زمان.. فين وفيين لما كنا نسمع نواح على الغرقانين.. لكن دلوقت بنسمع النواح كل يوم.. لحد ما اتعودنا عليه وبقي شيء عادي.

ثم أردف قائلا:

- الله يخرب بيته الرئيس خميس هو والي زيه.

- مين الرئيس خميس؟

- أكبر متعهد هجرة وصاحب مراكب.

فلم أعلق وأمضيت اليوم كله واجهة مكتئبة، عدوى كآبة نواح النسوة انتقلت لنفسي المكتئبة أصلا، وأبدا لم تنس أذناي نواحين، ولم تنسه حتى بعدما سمعته كثيرا وتعودت عليه، تماما كما قالت حماتي الشؤم، لا يمر أسبوع أو أكثر أو أقل إلا وأسمعه!

* * *

وراحت الأيام تمضي بحلوها ومرها، وإن كانت الغلبة لمرها، خصوصا حين فوجئت بحقيقة سعال حسن، إنه مريض بالصدر، بنوع من الربو المزمن.. تماما مثل أمه.. لكنني تقبلت الأمر بصبر ورضا، كما تقبلت

مشاركة حماي كل شيء، زوجي والشقة الضيقة والأثاث المهترئ، والموقد الصديء والثلاجة العتيقة والأواني الكالحة.

واستمرت المرأة لا تألو جهدا في تنغيص حياتي، بل وكانت تتفنن في ذلك وتبتكر، مثلا من شدة لؤمها، كانت تضبط نفسها على السويغات التي نختلسها أنا وحسن من الليل، نمارس فيها ما لا نستطيع ممارسته بسبب تلصص الأعين والآذان علينا، فتتعمد قطع خلوتنا بأية طريقة، مثلا تفاجئنا بخبطات على الباب تطلب المكواة أو غيرها، أو ترفع صوت الراديو أو التليفزيون على آخره، أو تنادي على ابنها تسأله عن أشياء تافهة، أيضا المرأة لأنها كانت تسمع كل همساتي أنا وحسن، استغلته بخبث الحموات، بعدما يكون قد أشعل حرائقي، يعجز المسكين عن إطفائها، حتى أصبحت عادته، وحتى توسلت إليه يوما:

- حسن.. خد القرشين اللي معايا وشوف لنا مكان تاني غير هنا.

- لا يا مهرة.. مش ممكن أمد إيدي على قرش واحد من فلوسك.. خليه للزمن يا بنت الناس الدنيا مش مضمونة.. وكم أن ما قدرش أبعد عن أمي وأخواتي.

فسلمت أمري لله.. لكن ما كان يعزيني، أن حسن أصبح مثال الزوج الطيب الوفي، ذهبت سلبية شخصيته وبقيت إيجابيته، كل هم أن يسعدني ويرضيني، فقط ظلت سلبيته وضعفه تجاه أمه، وأيضا صدره الذي بدأ ينهار تحت وطأة تدخين الحشيش، ذلك الطارئ الجديد الذي طرأ على حياتنا، وإن ظل زوجي يقوم بها لا يتحملة بشر كي يكفي نفقاتنا ويسعدني كزوجة.

واستمرت الأيام تمضي، حتى بدأ مُرها يغلب حلوها أكثر مما ينبغي، خصوصاً أن حسن أصبح يغيب معظم الوقت في عمله، فقط لا يجمعنا إلا سويعتنا الخاصة، بعدها يأوي لفراشه منهكا لينام استعدادا لشقاء يوم جديد، ولأستعد أنا لشقاء من نوع آخر، فبجانب معاملة أمه السيئة لي طوال النهار، أيضا لا أستطيع مشاهدة تليفزيون أو سماع كاسيت أو راديو، أو الحديث مع جارة أو صديقة، فكلها بلا استثناء تستدعي غضب وتنغيص حماتي.

حتى بدرية عادت لسابق عهدها، هاتفها دائما إمّا مغلق وإمّا غير متاح، وحتى وسوست لي نفسي أنها نفضت يدها مني بعدما سلمتني زوجة لحسن، أو سلمته لي زوجها، حتى عرفت منها ذات مكاملة، أنها مشغولة بالإيقاع بصاحب صالة الموبيليا بفارسكور، وألحت كثيرا ويأصرار أن أزورها يوما أنا وحسن.



حتى أوجد القدر لي بابًا للسلوى والتسلية.

لعمري لم أكن أحلم به أو أتوقعه.

ف ذات مساء وقبل عودة حسن من عمله، سمعت طرقا على الباب، ففتحت لأجد أمامي فتاة غاية في الجمال، بادرني تقول بابتسامة لا تقل جمالا عن جمال وجهها:

- مساء الخير.

- مساء النور.

- أكيد حضرتك مدام مهرة.

- أيوه أنا مهرة.

- وأنا سلوى.. بنت خالة حسن.

- أهلا وسهلا أهلا وسهلا.. اتفضلي.

ومن شدة فرحي بها، ومن شدة رققتها وأدبها الجم، ذلك الذي لمسته فيها من أول وهلة، وجدتنني أضمرها، وكانت أول مرة أعرف أن لحسن خالة!

وجاءت حماتي ترحب بالفتاة وتسألها بحرارة عن أمها، ثم أفصحت الفتاة عن سبب مجيئها:

- جاية أعزمكم على خطوبتي الخميس الجاي.

- ألف ألف مبروك.. وربنا يتمم لك بخير.

هكذا هنأتها وأنا أضمرها مجددا، حقيقة كنت أكاد أجن، كيف أن لحسن أقارب بمثل هذه الطباع ولا أعرف، وداعة وذوق وطيبة بلا حدود.. ومؤكد أن أمها مثلها.. لكن أمعقول؟ أتكون بهذه الطباع وهي أخت حماتي؟ وعندما عاد حسن بادرتة أعاتبه:

- ليه بتخبي عني إن لك خالة؟

- هي أمي قالت لك؟

- لأ.. سلوى جت تعزمننا بنفسها على فرحها.

- بصرحة افتكرت إنك بسبب أمي مش عايزة تعرفي أي حد من طرفنا.

- يا دمك الثقيل.. لازم تعرفني بخالتك يا حسن.

- ح يحصل يوم الخطوبة بإذن الله.

وكانت الخطوبة في شقة الخالة، والتي فوجئت أنها تبعد عن منزلنا بأربعة شوارع فقط، لكنها شقة تنبئ عن السعة النسبية التي تعيش فيها الأسرة، فالمرحوم زوج خالة حسن وكما أخبرني حسن، كان موظفا بأحد البنوك وله معاش محترم. وجاءت الخالة ترحب بي.. ويا إلهي!

حقا المرأة على النقيض تماما من حماي! من أختها!

فعلا وداعة وذوق وطيبة ولباقة بلا حدود، تتعارض تماما مع طباع حماي الشرسة.. أما عن حنان السيدة فحدث ولا حرج، الحنان يفيض منها فيضا ليشمل كل من حولها، كانت واقفة تهتم بمدعوها، ترحب بهذا وتلاطف هذه وتبتسم لتلك، كله في وقت واحد! وما إن قدمني حسن لها قائلاً: «مهرة مراي»، حتى ضمتني فوراً لحضنها، تقبلني كأنني تماماً بنتها، حتى إن دموعي سالت، ومن شدة ذكاء السيدة فهمت، فقالت تواسيني:

- معلى يا بنتي.. أنا عارفة إن اختي صعبة شوية.. لكن استحملها عشان خاطر جوزك.

- والله مستحيلة وصابرة يا خالتي.

كنت واثقة أنها تعرف قصتي كاملة مع حسن، فحماي أكيد حك

لها، لكن السيدة لم تشر لشيء من قريب أو من بعيد، وجلست وأجلستني بجوارها، واستمرت ترحب بضيوفاها وعلى وجهها نفس الابتسامة الرائعة، فلم أكف لحظة عن مقارنتها في حسرة بحماقي، حتى انتبهت إليها تحدثني عن العروس بنتها:

- سلوى خدت ليسانس الآداب.. لكن عايزة تتجوز مش عايزة تشتغل.

- أحسن برضه يا خالتي.

- وبينى وبينك.. أنا برضه عايزاها تتجوز.

- الجواز مهما كان ستره يا خالتي.. والبنت في الأول والآخر مالهش غير بيت جوزها.

- معاكي حق يا مهرة يا بنتي.. بس يا ريت عريسها يشد حيله ويدخل بيها بسرعة.. نفسي أشيل عياها قبل ما اموت.

- بعد عمر طويل يا خالتي.. بإذن الله تشيلي عياها وعيال عياها كمان.

- اللي مطمئن عليها إن عريسها ابن حلال.

- باين عليه ما شاء الله.

- وكمان ح يسكن بيها في الشقة اللي تحتي على طول.

- ربنا يهنيهم ويسعدهم.. هو عريسها بسلامته يشتغل إيه؟

- مدير مبيعات في شركة دهانات.

- ربنا يعلي مراتبه كمان وكمان.

ثم قالت وهي تشير لمراهق في مقتبل الشباب، كان يقف بعيدا ولا يفتأ يمازح مجموعة من البنات والسيدات:

- وده بقى علاء.. ابني وأخو سلوى الوحيد.. وده بالذات نفسي أجوزه بنت الحلال قبل ما اموت.. وقبل دخلة أخته كمان.

- إن شاء الله.. بس ليه قبل دخلة أخته؟ ده بسم الله لسه صغير ع الجواز.

- بعيد عنك مجرم.. ما في بنت ولا ست إلا وجاتني تشتكي منه.
وتعجبت، فعدت أنظر للشاب.. فعلا هو لا يكف عن ممازحة كل من تمر به، فتاة كانت أم سيدة، بعضهن كن يشاركنه المزاح وبعضهن كن يتبرمن به، حتى نادته أمه:

- علاء.. تعالى سلم على مدام مهرة.. مرات حسن ابن خالتك.

في البداية لم يهتم، لكنه عندما لمحني، فورا جاء يهرول، بالضبط كأني فتحت شهيته المفتوحة أصلا للنساء، في الحقيقة هو لا يخلو من وسامة.. وسامة وإن كانت لافتة فإنها ناعمة، فبشرته بيضاء مفعمة البياض، وتقاطيع وجهه الممتلئ رقيقة في منتهى الرقة، كما أنه أمرد اللحية والشارب، واحترت في سر ضيق بعضهن به، هل لوسامته الناعمة؟ أم لتسريحة شعره المستفزة؟ الحقيقة أن تسريحة شعره الناعم الشديد السواد، كانت غريبة إلى حد الاستفزاز! أم أن بعض النساء يضمن به لنظراته التي بها شيء من الجرأة؟ الحقيقة أن نظراته بها ما هو

أكثر من الجراءة، بها ما يشبه الوقاحة، وإن كان هو نفسه ليس وقحا، إذن لا شك أن سبب ضيق بعضهن به، هو ثقل ظله والسلام، فالفتى حقا يبدو في مجمله من ذلك النوع المعجب بنفسه المعتد بذاته.

وفي النهاية قلت لنفسي ربما أكون مخطئة، وما أراه في هذا المراهق ما هو إلا محض أوهام، خصوصا أنه عندما مديده ليسلم، مدها وهو يقول بمتهى الذوق، وإن لم يخل صوته الناعم من شيء من خشونة المراهقة:

- أهلا مدام مهرة.. إزيّ حضرتك؟

وكانت اللياقة تقتضي أن أرد:

- أهلا أستاذ علاء.

لكنه عاد يقول:

- بصراحة ماكتتش أعرف إن حسن متجوز.. وكمان متجوز واحدة حلوة قوي كده.

وفورا تلون وجه أمه، وشعرت أنها ستنهره، لكنها اكتفت بأن نظرت لي بحرج، وأراد أن يجلس بجانبنا، لكن أمه بدت غير مرحبة، ففهم وعاد يقف حيث كان، واستأنف كازانوفاً مغازلة الفتيات والنساء، وإن لم يكف من حين لآخر عن اختلاس نظرات لي.

لكن نظراته كانت تثير ضيقي!

لكني لاحظت شيئا.. إنه من الذكاء بحيث كان يحرص على أن تبدو نظراته طبيعية، حتى لا تلاحظها أمه، هو يعرف أنها تراقبه، وكان

يحسب لمراقبتها ألف حساب، أمه بالفعل كانت تراقبه، وكنت أراقب الاثنين! وفعلا لم تلحظ أمه شيئا.

وفي نهاية الحفل وعند انصرافي، قالت السيدة وهي تغرقني بقبلاتها:
- طبعاً يا مهرة يا بنتي انتي مش محتاجة أقول لك ان البيت بيتك ..
وتقدري تزوريني في أي وقت.

فقلت وأنا أغرقها أيضاً بقبلاتي ودموع الامتنان تملأ عيني:

- طبعاً طبعاً يا خالتي .. ده انتي طاقة فرج وانفتحت لي.

وحقا كانت السيدة طاقة فرج فتحتها لي القدر .. أو بلا أدنى مبالغة كانت جنة فيحاء وارفة أهرب إليها من نار حماي، إذ كل يوم أجهز غداء حسن وأذهب أتغدى معه في المحل، ثم أذهب أقضي بقية اليوم مع خالته الطيبة. وبجانب طيبتها، كانت أيضاً حكاة ماهرة، لا تخلو حكاياتها من ظرف وطرافة، نعم بها شيء من الغيبة والنميمة، لكن لا بأس.

ثم فتح لي القدر طاقة فرج أخرى.

أصبحت بدرية تتصل بي يوميا، فنظل نتكلم ونحكي بالساعات، كانت مولعة بأن تحكي لي تطورات علاقتها بصاحب صالة الموبيليا أولا بأول، والذي صار على حد قولها (خاتم في صباغي) و(يعشق التراب اللي بامشي عليه) حتى صارحتني ذات مكاملة:

- عارفة يا بت يا مهرة .. الراجل طلع غني قوي .. قوي!

- أكيد طبعاً .. مش صاحب صالة موبيليا!

- هي صالة واحدة بس؟ دول طلّعوا خمس صالات.. خمسة في وش العدو.. ده غير إنه بيصدر موبيليا لبلاد برة بالملايين.

- طيب يللا بقى ورينا شطارتك.

- ح يحصل.. بس المشكلة إن عنده أربع اخوات عوانس.. أو تقدرى تقولي عقارب.. والأربعة قاعدين حارسينه بالمرصاد.

- مش فاهمة.

- الراجل مطلق.. كان متجوز قبل كده مرتين.. بس مالهوش في الخلفة.. والعقارب عارفين كده كويس.. وعشان كده قاعدين حارسينه من الجواز.. عارفين طبعا إنه لو اتجوز وخلف ولد.. كلهم ح يتحرموا من الميراث.

وسكتت قليلا لتلتقط أنفاسها، ثم عادت تقول:

- بس وحياتك ليتحرموا من الميراث على إيدي أنا.

- إزاي؟

- ح اتجوز أخوهم واخلف منه.

- إزاي وانتى بتقولي انه مالهوش في الخلفة؟

- مش ح اقول لك أنا ح اعمل إيه دلوقت.. أو مش ح اقول لك

إلا لما أشوفك.. ح تيجي تزوريني إمتى؟

- مش عارفة يا بدرية.. خليها بظروفها.

وكل يوم اتصال هكذا، حتى تشوقت بالفعل لزيارتها، وقررت
أن أنتهز أقرب فرصة.

* * *

طبعاً لم أنقطع عن زيارة خالة حسن، بل وتوطدت علاقتنا حتى
صارت علاقة أم بابنتها، وصارت علاقتي بسلوى علاقة أخت بأختها.

لكن علاء ونظراته لي!

تلك التي لا أفهمها ولا يكف هو عنها!

عرفت أنه طالب ثانوية، وكنت كلما ذهبت أزور أمه، لا أجده في
المنزل، فكانت تقول:

- دايماً يره البيت بحجة المذاكرة مع صحابه.

لكنه عندما لاحظ زياراتي اليومية لها، وحفظ مواعدها الذي لا
يتغير، أصبحت أجده مرابطاً بالبيت كلما ذهبت، كأنه ينتظرني! ثم
يجلس يتابع حديثي مع أمه بشغف، نعم من بعيد ولا يشاركنا فيه،
لكنه لا يحول بصره عني، وكان يحرص على أن يختار موضع جلوسه
بعناية، في مواجهتي وبحيث لا تراه أمه، أو بحيث لا ترى نظراته لي،
وعدت أتعجب من ذكاء هذا المراهق، نظراته كانت تلتهمني التهاماً،
ومع ذلك ينجح في إخفائها عن أمه! هذه التي كانت تراقبه لأنها تعرف
ميله الجامح للنساء، وكنت بدهاء الأنثى أراقبهما معاً، حتى سلمت
في النهاية ببراعة علاء في التمثيل، كان يوهم أمه بأن وجودي لا يعنيه
في شيء، بينما وجودي يمثل له كل شيء، وكان يبرر بقاءه الدائم في
البيت بقوله:

- لما الامتحانات بتقرب، بحب اركّز في المذاكرة بعيد عن دوشة صحابي.

وحاولت جاهدة أن أعرف ماذا يريد مني هذا المراهق، وهو الذي يصغرنى بستتين أو ثلاث.. ما سر نظراته لي؟ هل هي مجرد نظرات كالتّي يشاغل بها سائر النساء؟ غرضه منها فقط مشاكستي كما يشاكسهن؟ أم أن له غرضاً آخر لا أعرفه، خصوصاً أنّها لم تكن نظرات مشاكسة؟ لكنني في النهاية وضعت نظراته في مكانها، إنّها مجرد نظرات من مرّاهق مفتون بنفسه، يصوبها لمجرد امرأة ربما تكون تثيره، أو على الأقلّ تعجبه! واستمرت الحال هكذا كلّما زرت أمه.

إلى أن تطور الأمر لحد مخيف!

تغيرت نظرات علاء لتجبرني على أن أفسرها بمعان مزعجة، ثم تطور الأمر لحد مرعب! بدأ يأتي بحركات تفهم الأثني معناها جيداً، في البداية كنت أقنع نفسي بأنني واهمة، لكنني سرعان ما تأكّدت وبها لا يدع مجالاً للشك، أن كلّ حركات علاء يفعلها عن عمد وعن قصد!

كل ذلك وأمّه لا تلاحظ شيئاً!

حتى ألمحت يوماً لحسن:

- ابن خالتك علاء ده.. جن مصور.

- ليه؟

- مش سايب واحدة في حالها.

- يعني إيه؟

- يعني مزودها حبتين مع الستات.

- يا شيخة ده لسه عيل.

فلم أكررها..

وأيضا تراجعت على أن أشكوه لأمه، فلو فعلت فمعناه أنني أغلق
إلى الأبد طاقة الفرج التي فتحها لي القدر، أو أتنازل عن جنة الفردوس
التي أستجير بها من جحيم حماتي، وفي النهاية لجأت لبدرية عبر الهاتف:

- تعرفي ابن خالة حسن ده اللي اسمه علاء؟

- لأ.. ليه؟

فحكيت لها.. فسألتني متعجبة:

- حركات إيه اللي بيعملها؟

- حركات وخلاص.. افهمي بقى يا بدرية.

فإذا بها تقول:

- عايزة أشوفه.. أنا بحب قوي النوع ده من الرجالة.

- بس ده مش رجالة.. ده لسه تلميذ.

- تلميذ في سنة كام؟

- يا دوب في ثانوي.

- يعني تقريبا من سنك؟

- تقريبا.

فقلت بضحكتها العابثة المعهودة:

- يبقى ازاى بقى مش رجالة؟

- خلاص.. تعالى زوريني وانتي تشوفيه.

- ح يحصل.. أنا من غير حاجة نفسي أشوفك

وفيا بعد، ومن جانبي، حاولت بنظراتي المتوعدة أن أوقف علاء
عند حده.. لكنه لم يتوقف.

هل.. هل لم تكن نظراتي متوعدة بالقدر الكافي؟

* * *

أنجبت طفلي الأول وسميناه أشرف، وظننته سيقربني من حماتي
باعتباره حفيدها الأول، لكن ما حدث هو العكس، دأبت المرأة لا
تدع فرصة إلا وتقول:

- مش واخذ من حسن حاجة خالص.. مش عارفة طالع لين!

فكنت أكنم في نفسي وأسكت، ثم أهرب لخالة حسن، حتى وصلت
علاقتي بحماتي لطريق مسدود، المرأة بعدما كانت تعيرني بفعلي مع
ابنها تلميحا، أصبحت تعيرني بها تصریحا! وانتظرت من حسن أن
يوقفها عند حدها، أن يثور لكرامته وكرامتي، أن يقول لها إنني لم أكن
ولن أكون ساقطة، لكنه لم يفعل، بل واستمر كعادته يأخذ جانبها،

حتى حدثت الطامة الكبرى، حدث ما كنت أخشاه وبالتالي أتجنبه..
تراشقت مع حاتي بالألفاظ الخارجة!

فيوما طلب حسن أن أرقص له، وكان يجب ذلك كثيرا، فأغلقت باب
حجرتنا علينا وارتيديت قميصا ساخنا وأدرت الكاسيت، وحرصت
كالعادة على أن يكون صوته خافتا، وبدأت أرقص، لكن يبدو أن المرأة
كانت تتلصص علينا، لأنها فتحت الباب فجأة تصرخ بأعلى صوتها:
- إيه قلة الأدب دي؟ راعوا إن البيت فيه ولد وبنت في سن الجواز.
- إحنا قافلين بابنا علينا يا نينة.

- نعم ياختي؟ قافلين بابكو عليكو؟ بأمانة إيه؟ بأمانة صوت
الضحك والمسخرة اللي واصل لسابع جار؟

فلم أرد، وانتظرت حسن أن يرد، فلم يرد، حتى انصرفت المرأة
وهي ترطن، ولكن بكلمات خرقت أذني:

- أما شغل عوالم صحيح!

فصرخت فيها:

- أنا مش عالمة يا نينة.

- لأ عالمة وستين عالمة.. عايزة تعرفي انتي إيه كمان؟

فقلت لها بتحد:

- أيوه عايزة اعرف.

- شوفي انتي بقى اللي تفرط في شرفها دي تبقى إيه؟

- إنتي ست مش محترمة.

- أنا برضه الي مش محترمة يا (.....) يا بنت الكلب!

- أهو إنتي الي (.....) وبنت ستين كلب.

فلطمني حسن، وانفجر الدم من فمي، فقررت أن أترك البيت حالا، لكن إلى أين أذهب؟ إلى خالته؟ لكن ماذا أقول لها؟ هل أقول لها إنني شتمت أختها ونعتها بالـ(.....).

وفي الصباح قررت أن أذهب لبدرية، لكن حسن جاء يصالحني ويطيب خاطري، لكنني صممت على الرحيل، فضمني وبكى، وأجبرني بكأؤه، والأكثر سعاله، على أن أعدل عن قراري.. ولكن.. فوجئت به يطلب مني أن أذهب أصالح أمه وأقبل رأسها! لكن كرامتي أبت، فأجبرني، فكتمت ألمي وذهبت أصالحها، لكن المرأة رفضت!

ولكن بعدها صممت أن أغادر هذا البيت إلى الأبد، فحسن استمر يأخذ جانب أمه، وأحيانا من أجل إرضائها كان يدهس كرامتي كأثني، ثم يستغل ذلك ليهرب من حقوقي كزوجة!

أخو حسن واسمه عادل، وأخته واسمها عزة، كانا في سوء الطبع مثل أمهما، بل أكثر، كانا لا ينتظرانها لتوعز لهما بمضايقتي، بل كثيرا ما يتطوعان بذلك من نفسيهما، وأيضا كان حسن يأخذ جانبهما.. حتى أصبحت حياتي جحيما بحق.

فازداد هروبي لخالة حسن.

أو هروبي لجنة خالة حسن.. كما كنت أعتقد.

ولكن يبدو أن لكل جنة إبليسها.

وكان إبليس جنة خالة حسن هو علاء.

وكنت أنا حواء!

على أن إبليس لم يكن يوسوس، فقط كان ينظر! وكنت أميل لنظراته.. فكم من مرة أضبط نفسي في انتظارها! وأشعر أنها لن تثير ضيقي، بل ستثير أحاسيس غامضة مبهمة! أحاسيس أخاف أن أستمريها! بل وأخاف أن أستمري النظرات نفسها، أو أدمنها، مدفوعة بوهم أنني أريد معرفة ما وراءها، وإلى أين سيكون منتهاها، وما الغرض الأخير لصاحبها منها.

ومع ذلك كثيرا ما تساءلت لنفسي: ألا تكون نظرات علاء هذه، مجرد نظرات من مجرد مراهق؟ ألا يكون هذا المراهق مجرد مريض نفسي؟ أم عساه يكون وقع في غرامي! أو وقعت في غرامه! لعمري إن الأولى مصيبة والثانية كارثة، ثم.. ثم إن نظراته ليست نظرات حب! فنظرات الحب تعرفها كل امرأة وأية امرأة.. إلا.. إلا إذا كنت أنا مجرد امرأة من.. من إياهم!

رباه.. هذا أكثر مما أتحمل.

ومكثت في هذا التيه والعذاب حتى اضطرت إلى أن أُلجأ لبدرية ثانية، لكنها هذه المرة قالت بسخرية:

- نظرات إيه وحركات إيه بس يا مهرة! ما تقولي الواد ده بيعمل لك إيه بالضبط؟

- مش ح اقدر أقول لك إلا لما اشوفك.

- ليه؟

- بصراحة هي حاجة تكسف.

- لأ.. لو عايزة تقولي قولي دلوقت.

- صدقيني مش ح اقدر.

- يعني مثلاً سي علاء ده.. يبسبّل لك عينيه؟

- يعني.. تقدري تقولي كده.

- وبيغمز لك؟

- مممم.. ممكن تقولي كده.

- عادي خالص.. ما كل ده بيحصل مع كل الستات.. خصوصاً

لما يكونوا ستات حلوين زيك.

ولم أرد.. فعادت تقول:

- ها.. بيعمل لك إيه كمان؟ يبشاور لك عشان تقابليه؟

- برضه تقدري تقولي كده.

فقالَتْ بضحكتها العابثة:

- برضه عادي.

ولم تكن تلك هي أفعال علاء بالضبط، فقط كنت أجاريها اتقاءً لها،

فقد أدركت أنها ستخذ الأمر مادة للعبث والسخرية، كما أن أفعال
علاء في الحقيقة.. لا يمكن البوح بها أبدا!

حتى عادت تقول بلهجة جادة.. أو لهجة الخبيرة:

- عادي جدا يا مهرة.. فيه نوع من الرجالة كده.. الواحد منهم لما
يشوف ست حلوة.. مايقدرش يمسك نفسه.

- بس انا مش حلوة للدرجة دي.

فردت بضحكة مجلجلة:

- يا بت! بدمتك؟ إنتي مش فاكرة واحنا في قطور كنا بنعمل في
الرجالة إيه؟

- خلاص بقى يا بدرية.. قفلي ع الموضوع ده.. شكلك فاضية
وعايزة تتسلي.

- أبدا وحياتك.. أنا مشغولة ع الآخر.. موضوع صاحبك الحاج
شاغلني قوي.

- مين الحاج؟

- المليونير بتاع فارسكور.

- آه.. بتاع صالات الموبيليا؟

- هو تمام.

- ياه يا بدرية.. ده الكلام ده من سنة.. يا ترى جد جديد؟

- أيوه.. أخيرا اتفقنا ع الجواز.

- بجد؟ مبروك.. بس جواز عرفي برضه؟

- عرفي إيه يا عبيطة؟ شرعي عشان الورث.. بس مشكلتي العوانس اخواته.

- طيب ومشكلة الخلفة؟

- لا.. المشكلة دي حلها عندي من زمان.

- إيه هو؟

- مش ح اقدر أقول لك إلا لما اشوفك.

- ليه؟

- بصراحة هي حاجة تكسف.

- بقى كده يا بدرية؟ واحدة بواحدة؟

- أيوه.

- اتكلمي بقى يا بدرية.. هو سر؟

- أيوه سر.

- يبقى شكلك ناوية على مصيبة.

- برضه مش ح اقول لك إلا لما اشوفك.

- خلاص.. تعالي زوريني.

- صدقيني ح يحصل.. ما أنا لازم اشوف اللي اسمه علاء ده.

لكن الأيام مضت ولم تزرني بدرية، ولعل تطورات علاقتها بصديقتها المليونير شغلته، أنا أيضا شغلت بها أذهلني حتى عن نفسي، معاملة حماتي أصبحت تزداد سوءاً والهوة بيننا تتسع، وبدأ أخوا حسن يرميانني بالألفاظ النابية مثلها، واستمر هو يأخذ جانبهم على حساب كرامتي، لدرجة أن أصبحت أفكر في الطلاق! إلى أن حدث الشاغل الأهم.. صحة حسن تداعت فجأة، ولدرجة أثارت قلقنا ثم خوفنا.

لكنني لم أنقطع يوما عن زيارة خالته، فالسيدة أصبحت تعاتبني عتابا مريرا، إذا حدث وتحلفت يوما عن زيارتها.

* * *

وآه من نظرات علاء!

تلك التي استمرت بل وزادت، رغم امتحان الشهادة الثانوية الذي أرف، ثم اجتازه بسهولة ويسر على حد قوله، ولكن عند إعلان النتيجة، فوجئنا بنجاحه بالكاد، ومع ذلك دخل الجامعة، لكنه رسب في العام الأول، وفي إجازة الصيف سمعت، أو فوجئت، بأنه سافر فرنسا للعمل، لكنه عاد في بداية العام الدراسي الجديد، حتى فوجئت ثانية أنه لن يكمل وسيعمل مندوب مبيعات في الشركة التي يعمل بها زوج أخته.

والآن أصبحت نظراته وقحة.. أو تكاد!

حتى تدخل القدر.. بلغني أنه وأخته وزوجها يستعدون للسفر لدولة عربية! حتى فوجئت ثالثا بسفرهم دون علم أو خبر!

ثم فوجئت رابعا بأنها صدمة .. صدمة لي!

كيف يسافر علاء دون أن يودعني!

ولم أشأ أن أستفسر من والدته عن سبب سفرهم المفاجئ، خاصة أن السيدة كانت متأثرة جدا بسفر بنتها، فإضافة إلى ثقل حركتها بسبب بدانتها المفرطة، بدأت بوادر أمراض الشيخوخة تعترئها، وبالتالي فرق معها سفر سلوى إلى حد كبير، وعندما صرحت لي السيدة بمتاعبها.. قلت أعاتبها:

- إخص عليك يا خالتي .. وده برضه كلام؟ وأنا رحت فين؟ هوّا
انا مش زي سلوى وللا إيه؟

- ربنا يبارك فيكي يا بنتي

ثم استطردت بشيء من الأسى:

- يعني لو كان علاء اتجوز قبل ما يسافر، مش كانت مراته هي اللي
المفروض تشيل همي دلوقت؟

- برضه مصممة على الكلام ده يا خالتي؟ طيب أقسم بالله العظيم
ثلاثة، ما حدش ح يشيل همك غيري أنا.. إيه رأيك بقى؟

- يا بنتي انتي وراكي بيتك وجوزك.

- وانتي قبلهم يا خالتي.. وبعد إذنك الموضوع ده مش ح نتكلم
فيه تاني أبدا.

والحقيقة كانت فرصة لأهرب من جحيم حماي أطول وقت ممكن،

خصوصا بعد أن أصبح تراشقنا بالألفاظ النابية شيئا عاديا، وكان حسن في منتهى السعادة لأنني سأقيم عند خالته بصفة شبه دائمة.. رآها فرصة هو الآخر ليريح نفسه من عناء شجاري الدائم مع أمه.. ومن أشياء أخرى.

* * *

وأصبحت أرتع في جنة خالة حسن، خصوصا أن اعتقادي كان أنه برحيل إبليس عن الجنة، ستعود الجنة جنة.

ويا لسذاجتي!

نعم رحل علاء، لكن بقيت صورته، تلك المحاطة بإطار ذهبي وتعلو مقعد أمه المفضل، كلما ذهبت أزورها وأجلس في مواجهتها، عن عمد، أضبط نفسي متلبسة باختلاس النظر للصورة، أرى علاء فيها يلتهمني ويلهمني بنظراته! نظراته التي كانت قبل سفره ورغم وقاحتها، قد بدأت تثير.. بل تؤجج تلك الأحاسيس الغامضة المبهمة، وتحرك في نفسي ما لا أفهمه!

أيضا كم من مرة أضبط نفسي متلبسة بالشroud، السيدة تحدثني باهتمام، بينما أنا مشغولة عنها تماما، أتأمل ابتسامة علاء الساخرة.. أو الغامضة.. في الحقيقة ابتسامته ليست غامضة.. هي مثل نظراته جريئة.. أو وقحة.. وقحة؟ لا.. ابتسامته ليست وقحة.. هي فقط جريئة لكن أكثر من اللازم!

حتى جاءت لحظة، شعرت فيها برغبة جامحة أن أسأل أمه متى سيعود، متى سيعود ذلك الشاب، أو الرجل، من غربته! ورأيت أن

أسألها بسؤال يبدو عفويا، وفي معرض أحاديثنا التي لا تنتهي، وفعلا ما إن ذكرت السيدة اسم سلوى ذات مرة في حديث، حتى سألتها فوراً:

- مفيش أخبار عنها وعن جوزها؟

- أبدا يا بنتي.. لا اتصال ولا حتى جواب.

- هما ح يقعدوا هناك قد إيه؟

- خمس سنين.

- ياه.. خمس سنين؟

- مدة العقد كده يا بنتي.

- بس أكيد ح ينزلوا أجازة قريب.

- يسمع منك ربنا.. مش ح ينزلوا قبل سنتين تلاتة.

- ياه.. سنتين تلاتة! معقول يا خالتي؟

- شروط العقد كده يا بنتي.

وسرحت لثوان.. أو لدقائق.. لكني أظنها أكثر من ذلك بكثير،
لأنني لم أنتبه إلا على صوت السيدة تقول:

- سرحتي في إيه يا مهرة يا بنتي؟

- هه.. أبدا يا خالتي.. عايزة أقوم اروّح.. حسن زمانه جاي.

- يا ترى صحته عاملة إيه دلوقت؟

- تعبان والله يا خالتي.. إمبراح من تعب صدره ما قدرش ينزل الشغل.

- معلش.. ربنا يشفيه ويعافيه.

واستمرت الحياة تأخذني في دواماتها، لكن أخطرها كانت صحة حسن، التي أصبحت تتدهور يومياً، وما صحب ذلك من زيادة أعباء العلاج والنفقات، وبالتالي الضيق الشديد في المعيشة.

حتى أنجبت طفلي الثاني، كان بتتا وسميناها نسمة، وكان حظها من حب حماتي مثل حظ أخيها!

حتى بدأت علاقتي بحسن تهتز، أو يعترها ما يعترني علاقة أي زوجين يمران بمثل ظروفنا، التآرجح بين الرضا والتذمر، لكنها في النهاية ومن لطف القدر، استقرت على الرضا بالأمر الواقع، فاستمر هروبي لخالة حسن، وأيضاً لبدرية، لا يمر يوم إلا ونتصل عبر الهاتف، نتبادل بث همومنا بعض الوقت ثم الثرثرة بلا طائل معظم الوقت، لكن للأسف كان من نتيجة هذا التواصل الهاتفي، أننا لم نتزاور لمدة من الزمن.. لم نتزاور حتى بلغ أشرف سن الخامسة!

* * *

حتى حدث ما قلب حياتي رأساً على عقب.

لكن بالإيجاب لا بالسلب.

ثلاثة أحداث فارقة.

الأول.. عريس غفلة تقدم لعزة أخت حسن، وسرعان ما تزوجها

وسافر بها إلى الخليج حيث يعمل .. والثاني لحاق أخيها بها بعد أشهر قليلة، هو كان فشل في الحصول على دبلوم الصنایع، ولم يؤد الخدمة العسكرية بسبب إعفائه غير المتوقع منها هو وكامل دفعته.

أما ثالث الأحداث .. أو المفاجآت .. فكانت عودة علاء!

عاد فجأة في إجازة هو وأخته وزوجها.

ويا للإحساس الذي انتابني وأمه ترف لي خبر عودته عبر الهاتف، تحديدا وهي تقول (علاء رجع .. تعالی سلمي عليه)، إحساس مبهم لا أعرف كنهه، لكنه ذكرني بلذة أحاسيس المراهقة، وتعجبت لماذا خصته أمه وحده بالذكر .. لماذا قالت (علاء رجع) ولم تقل مثلا (علاء وأخته وجوزها رجعوا) .. لكن لم أهتم وذهبت لأسلم عليهم، أو في الحقيقة لأرى علاء، والأكثر لأرى هل تغير أم لا، هل تأثر بغياب ثلاث سنوات أم ما زال كما هو، وإذا كان تغير، هل تغير شكلا أم موضوعا أم الاثنين معا، شكلا هل تخلص من تصفيفة شعره المستفزة مثلا؟ وموضوعا هل تجاوز نزق المراهقة وأصبح سويا لا يقتحم النساء بنظراته؟ أم سأجد نظراته كما هي جريئة .. أو وقحة تقتحمني وتحرك في نفسي ما لا أفهمه؟

وكم تمنيت من أعماقي أن يكون علاء تغير بالفعل .

وأيضا كم تمنيت من أعماقي ..

أن أكون صادقة في أمنيتي هذه!

وعند أمه وجدته جالسا بين أخته وزوجها، فألقيت عليهم السلام شفاهة، وعند مصافحتهم لا أدري لماذا تعمدت أن أجعله آخرهم، أربا

لكي أتمكن من النظر في عينيه بتأنٍ؟ وفعلا عند التصافح لم تتصافح يدانا.. نظراتنا هي التي تصافحت! ويا ويلى.. إنها تفصح ما يعتمل في داخله! ويا ويلى ثانية.. إنه نفس ما يعتمل في داخلي.. ثم يا ويلى ثالثا.. جرة نظراته الآن زائدة عما كانت.. وتنبئ بما هو آت!

ولم تتغير تصفيفة شعره، فقط قوامه هو الذي تغير، ذهبته نحافته وامتلأ جسده قليلا! حتى قال يستأنف حديثا كنت قطعت به بحضوري:

- يعني يا ماما ما ينفعش أخطب قبل ما أسافر؟

- ينفع طبعاً يا حبيبي.. شاور انت بس يا علاء وسيب الباقي عليا.

لكنه ما لبث أن تراجع يقول بمرارة:

- بس خطوبة إيه واحنا ح نقطع الإجازة ونسافر بعد بكرة!

وتعجبت.. أو صعقت!

يقطعون الإجازة ويسافرون بعد غد! كيف ولماذا؟

وانتظرت أنه يفصح فلم يفصح، لا هو ولا أمه ولا أخته ولا زوجها.. إذ لماذا يفصحون وهم بالتأكيد يعرفون السبب، فقط أنا التي لا تعرف، لكنني قررت أن أعرف، فقررت أن أسألهم.. لكن كيف والخرج يمسك لساني.. لكن لم أجد بُدًا.. وبدا شكلي شاذًا وأنا أسأل أمه بينما الكلام له:

- ليه ح تقطعوا الإجازة؟

وفورا أجاب:

- عشان الكفيل بتاعنا راجل ما عند هوش ضمير.. بيتحجج بظروف الشغل هناك.

وعقب زوج أخته:

- ومش ح نقدر ننزل أجازة تاني قبل سنتين ع الأقل!

فعقبت أمه بمرارة:

- صحيح أكل العيش صعب يا ولاد.

ولا أدري لماذا قمت أحتد على أشرف ونسمة، فقط لمجرد أنها تشاجرا على لعبة كانت معها، فانزوى الاثنان ييكيان، فسحبتهما من فوري وانصرفت.

* * *

ثم حدث أهم حدثٍ في حياتي.

رحلت حماتي..

اشتدت عليها أزمات الربو، ثم هاجمتها أولى نوبات تصلب شرايين القلب، ثم توالى عليها تباعا، وفي إحدى النوبات الشرسة لم تتحمل ورحلت.

لتخلو لي الشقة للمرة الأولى، وتتغير حياتي إلى النقيض.

للمرة الأولى سأستمتع بحياة أسرية حقيقية.

ياااه.. حقا إنها نعمة لا تقدر بثمان أن تكون لي شقة وحدي، لا يشاركني فيها أحد ولا يقتحمها عليَّ أحد، أفتح بابها لمن أشاء وأغلقه دون من أشاء، ومتى أشاء وكيف أشاء.. ياااه.. كم أتمنى أن أجربها تلك اللحظات، مؤكداً أن لذتها لا تقدر بثمان، تلك عندما يدق الباب

بدقات أعرفها.. إنها دقات زوجي.. فأفتح وأضمه لصدري، وأزيل
تعبه بقبلاقي، ثم أذهب أعد المائدة لتناول عشاءنا وطفلانا يلعبان
حولنا، لا حمة تنظر لي شذرا، ولا فتى وفتاة يراقبانني تلصصا.

وقد كان، أخذتني حياتي الأسرية حتى ما عدت أزور خالة حسن،
إلا قليلا، خصوصا أن سلوى تخلفت عن السفر مع زوجها لترعاها.

وعن يوم سفر زوجها وعلاء عائدتين لبلد الخليج، حدثت مفاجأة..
أو في الحقيقة لم تكن مفاجأة، إذ كيف تكون مفاجأة وهي تكاد تكون
من ترتيبي! لم أذهب لأسلم عليهما قبل سفرهما، وأوهمت نفسي أن
بيتي وأسرتي أولى بالوقت، كنت أريد اختبار مدى اهتمام علاء بي!
وفعلا بعد نحو ساعة من سفره وجدته يتصل، ولحظتها، هو نفس
الإحساس وأمه ترف لي خبر عودته! الإحساس الذي يذكرني بلذة
أحاسيس المراهقة، ولم أتعجب من أين جاء برقمي، بالتأكيد من سلوى،
وكانت حجتة في الاتصال أنه يأسف على سفره دون أن يودعني! ولم
أبدله إلا كلمات، بل أكاد أكون أغلقت الهاتف في وجهه! شعرت أنني
لو أطلت الحديث معه، سأكون كالتي تخون زوجها، وأنا أبدا لن أخون
زوجي، بل وحتى لا يكون في المستقبل أية مدعاة للخيانة، أسرعت في
نفس اليوم أغير رقم هاتفي!

ثم استبد بي الشوق لأرى بدرية، خصوصا أن الظروف الآن متاحة
للتزاور، واتصلت بها لأخبرها، ففوجئت بها تنكر صوتي! لكن عندما
ميزته عاتبته بشدة:

- آه.. أتا ريكي غيرتي رقمك؟ معقول يا مهرة عملي حاجة زي
كده وماتقوليش؟

وتذكرت، فقلت أعتذر:

- معلى يا بدارة.. شريحتي تلفت وده الرقم الجديد.. سجله عندك..

- أنا داخلة اتصل بيكي عشان أعزمك على فرحي.

- بجد يا بدرية؟ ألف ألف مبروك يا حبيبتي.. عموما أنا كده كده كنت جايالك.

- بجد يا مرمر؟ خلاص.. تعالى حالا ودلوقت.. النهاردة لازم تكوني عندي.

- لأ.. ح اجيلك بكرة.. لكن قولي لي.. طبعا العريس هو الحاج
بتاع الموبيليا.. مش كده؟
- طبعا.

- وإمتى الفرح؟

- الأسبوع الجاي.

- ألف مبروك يا بدارة.. بس يا ترى رسييتي على إيه؟ جواز عرفي
وللا شرعي؟

- يا عبيطة ما احنا عرفي من ساعة ما عرفته.. بس دلوقت ح اقلبه
شرعي عشان الورث.

- وإيه اللي كان مأخرك كل ده؟

- ح يكون مين غير العوانس اخواته.. ربنا يقصف عمرهم!

- طيب ومشكلة الخلفة الي مش عايزة تقولي لي ح عملي فيها إيه؟

- ح اقول لك لما تيجي.

- لاء.. قولي دلوقت.. وإلا مش ح احضر الفرح.

- إخص عليكى يا مرمر.. وده برضه كلام؟

فقلت أستفزها:

- ما هو يا إمّا تقولي لي، يا إمّا فعلا مش ح احضر.

- لأ مش ح اقول لك وح تحضري غصبن عنك.. وح تحضري انتي

وسي حسن كمان.

لكن حسن رفض متعللا بأشياء كثيرة، فأخذت أشرف ونسمة
وذهبت لصديقة عمري.

وفي فارسكور صرخنا من حلاوة وفرحة اللقاء، فغياب خمس سنوات
ليس هينا على صديقتين، وكادت بدرية تطير فرحا بأشرف ونسمة،
لم تركهما لحظة من حضنها، وجلست أتأملها وأنا لا أصدق، لم تتغير
كثيرا، ما زالت تبدو في سن الشباب.. مثلي تماما.. شقتها فقط هي التي
تغيرت، الآن تبدو أكثر اتساعا وفخامة بأثاثها المجدد على أحدث طراز،
وأدركت طبعاً أنه الحاج، وتلقائيا وجدتني أحملق في الشقة التي شهدت
مقدمي يوما مطرودة ومحطمة ومهددة بالضياح.. وكأن بدرية أحست
بى، إذ جاءت تربت على ظهري وتمسح دمعة نزلت.

وكان ثمة شيء آخر لم يتغير.. صرخات ولید.. وهذه المرة كانت
صرخاته قوية، ولدرجة أخافت أشرف ونسمة، فذهبت أسلم على
أمه وتركتهما مع بدرية.

وبعد الغداء قالت وفرحتها بي لا تزال تشع من صوتها:

- اسمعي بقى يا مرمر ومش عايزة كلام.. إنتي ح تقعدي معايا
لحد سبوع الجواز.

- صعب يا بدرية.. حسن مش ح يوافق.

- ح يوافق.. ح استأذن لك منه.

وفورا طلبته، لكن عندما سمعتها ترد عليه قائلة:

- خلاص خلاص يا سي حسن.. ماتعملش فيها أبو علي.

عرفت أنه لم يوافق.

وعادت تقول:

- لكن قولي لي يا مرمر.. عاملة إيه مع حسن؟

- الحمد لله يا بدرية.. كنت فين وبقيت فين!

فعادت تسأل.. ولكن بخبث:

- طيب هو عامل معاكي إيه؟

- حسن طلع ابن حلال يا بدرية.. ابن حلال قوي.

- شوفتي؟ عشان كتتي خايقة ومش مصدقاني.

ثم عاد الخبث لصوتها وهي تردف:

- بس برضه بأسالك وماتهريش من السؤال.. حسن عامل معاكي

إيه؟

- ما قلت لك.. حسن طلع ابن حلال قوي يا بدرية.

- بت يا مهرة.. بلاش لف ودوران.. باقول لك حسن عامل معاكي
إيه؟

طبعاً أعرف قصدها من السؤال، لكني قلت وابتسامة ما ترتسم
على شفتي:

- صدقيني يا بدرية.. حياتي مع حسن زيتها زي حياة أي اتنين
متجوزين.. ساعة كده وساعة كده.

وإذا بها تشرد قليلاً.. ثم تقول بتأثر:

- عارفة يا مرمر.. باعترف لك بكل صراحة اني قصرت في حقك.

- قصدك إيه؟

- كان واجب عليا كأختك وصاحبتك.. اني أزورك في عزبة البرج
ولو مرة كل شهر.. كان واجب ازورك بالذات في سبوع جوازك..
أطمئن عليكى واسألك الأسئلة اللي بالي بالك.

- أسئلة إيه اللي بالي بالك؟

- الأسئلة اللي بتستناها كل عروسة.. اللي بتفرحها وتخليها تحس
انها عروسة.

- مش فاهمة.

- جرى إيه يا بت؟ أسئلة النسوان اللي انتي عارفها بس بتستعبطي.

- والله ما انا عارفة حاجة.

فجاءت تقرصني من فخذي وتقول:

- يعني مثلاً أسألك إيه رأيك في الجواز؟ الجواز طلع حلو وللا وحش؟ أبو علي شايف شغله وللا مقصر؟ وأسئلة زي كده.

- حسن بيهلك نفسه في الشغل عشاني يا بدرية.

- آه من لؤم النسوان.. يا بت انا مش قصدي ع الشغل ده.. أنا قصدي ع الشغل الثاني.

أعرف بالطبع قصدها، والذي لن تكف عنه، ومع ذلك أطرقت صامته لا أجيب، لكن تحت إلحاحها قلت مضطرة:

- حسن مريض يا بدرية.. مريض بنفس مرض المرحومة أمه.

- بس أكيد بيتعالج؟

- أيوه بيتعالج.. بس...

وعدت للصمت، فلم تعلق لأنها فهمت، بدليل تصنعها المرح وهي تذهب لتأتي بأكواب العصير لنشرها في الشرفة.. وفي الحقيقة كنت أريد أن نستعيد ذكرياتنا في قطور، لكن شعرت بها تمهد لتعود تفتح موضوع حسن، فأسرعت أقطع عليها:

- قولي لي بقى.. ح عملي إيه في مشكلة الخلفة من الحاج.. ح تعرضيه على الدكاترة؟

- دكاترة إيه يا عبيطة؟ أنا لسه ح استنى الدكاترة؟

ثم أردفت:

- عارفة يا بت يا مهرة.. أنا لو خلفت م الحاج حته عيل.. عيل واحد
بس.. كل ثروته تبقى ليا لوحدي.. وساعتها أذل اخواته العوانس.

- بس ازاي والحاج مايخلفش؟ وحالته زي ما بتقولي ميؤوس منها؟
وبعد صمت خبيث وابتسامة أخبث، قالت:

- مهرة.. أنا حامل.

- الله! طيب عاملها مشكلة ليه بقي؟

- أنا حامل.. بس مش من الحاج.

- يا نهارك المهبب.. مش من الحاج؟ أو مآل من مين؟

- من وليد.

- يا نهارك الاسود! من وليد؟

قالت ضاحكة:

- ليه اسود؟ بالعكس.. ده نهاري أبيض وزى الفل.

- أبيض بأماره إيه يا بدرية؟ إزاي يا متيلة عملي حاجة زي كده؟

- الأول بس مش تعرفي وليد كان بيصرخ ليه؟

- ليه؟

- الولد لما بلغ وبقي راجل، بقى محتاج يفرغ طاقته الطبيعية، وطبعاً

المسكين مايعرفش ازاي، وعشان كده كان بيصرخ.. وانا بقى كنت
باساعده يفرغها.

- يخرب عقلك! وأمه؟

- أمه عارفة كل حاجة.

وبعد لحظة ذهول قلت:

- ده إنتي بلوة سودة يا بدرية.

- ليه؟ ده انا باكسب فيه ثواب.

- تقومي تحبلي منه؟ وعايضة تخدعي الراجل اللي ح يديكي اسمه؟

- شوفي يا حبييتي.. أنا مش باكسب ثواب في وليد وبس.. أنا باكسب ثواب في الكل وأولهم الحاج.. باحميه من طمع العوانس اخواته وح اجيله الولد اللي نفسه فيه.. وباكسب ثواب في امّ وليد.. مريحها من همه ومشاكله.. وكمان لما اورث ح اديها قرشين.. حتى العوانس باكسب فيهم ثواب.. لما اخلف ح يرتاحوا ويهدوا من ناحية الورث.. وبرضه مش ح احرمهم وح ينوبهم من الحب جانب.

- بدرية.. إنتي مش بتكسبي ثواب في الحاج.. إنتي بتخدعي راجل غفلان يا بدرية.

- يا حبييتي هو عايز كده.

- عايز يبقى مغفل؟

- لأ.. عايز عيل يشيل اسمه ويورثه.. دول خمسين مليون جنيه يا مهرة.. خمسين مليون وووون.

بالطبع أعرف استهتار بدرية.. لكن ألهذا الحد؟

أو لعلها بدأت رحلة الضياع.. أو لعلها في نهايتها.
وفجأة، وكأنها تشعر بالذنب تجاهي، عادت تفتح موضوع حسن:
- يعني حسن صحته إيه بالظبط يا ماهرة؟
- زي ما قلت لك.
- يعني تعبان خالص؟
- أيوه.
فأطرقت قليلا، ثم قالت وفي صوتها ما يشبه الأسف:
- متضايق؟
- أبدا.
ثم قلت وأنا أشير لأشرف ونسمة:
- أنا كفاية عليا دول.. دول عندي بالدنيا كلها.
ودمعت عينايا.. وكعادة بدرية، فورا قلبت الأمر لمجون ومزاح،
إذ سألتني بابتسامة مأكرة:
- إيه أخبار علاء؟
- هه.. علاء؟
وكانها أخذتني فجأة لدنيا غير الدنيا، ولم أنتبه إلا وهي تكرر السؤال،
فقلت ساهمة:
- خلاص.. علاء سافر وما عدتش اشوفه.

- سافر؟ سافر فين؟

- دولة في الخليج.

فلم تعلق وقامت تتمطى وتقول:

- يلا قومي نامي لك شوية انتي والولاد.. أنا كمان ح ادخل انا..
الليلة ح ننزل نتمشى على الكورنيش ونعمل زي المرة الي فاتت.

- واحنا المرة الي فاتت عملنا إيه؟

- إنتي ناسية؟ وقفنا فارسكور كلها على رجل.

- يا ما انتي فايقة ورايقة يا بدرية.

- يا حبييتي احنا حلوين ولسه صغيرين.. ومن حقنا نعيش ونتمتع
بالدنيا.. وبعدين احنا مش ح نعمل حاجة غلط.. إحنا بس ح نلبس
ونتمكيج.. ونمشي نهز كدهو كدهو.

وقامت تهز أردافها بينما ضحكته العابثة تجلجل، ولم تتوقف إلا
عندما رن هاتفها:

- أيوه يا حاج.

.....

- لآ النهارده مش ح ينفع يا حاج.

.....

- صدقني مش ح ينفع خالص.

-.....-

- ولا بكرة ولا حتى بعده.

-.....-

- يوووه بقى يا حاج.. يعني لازم تكسفني واقول لك انها موانع نسائية؟

-.....-

- مع السلامة يا حاج.

ولم تكذ تغلق حتى تعالت صرخات وليد، فقالت وهي تقهقه:

- شايقة يا مرمر.. على رأي المثل.. الفقي لما يسعد تجيله خاتمتين في الليلة.

ودوت ضحكاتها.. والأكثر.. ضحكاتي.

ونزلنا نتمشى ليلا على الكورنيش، أنا أمسك يد نسمة وهي تمسك يد أشرف، ومع ذلك لم نسلم من المعاكسات، بل إن بعضها كاد يصل لحد التحرش، حتى وقفت بي أمام محل مجوهرات بذاته، ثم سحبتني ودخلنا نستعرض معروضاته، وبدت بدرية شرهة نهمة أمامها، لكنها ما لبثت أن ذهبت تقف أمام قطعة ماس بعينها، بريقها حقا كان يخطف الأبصار، ثم وجدتها تتصل بالحاج:

- أيوه يا حاج.. باقول لك.. أنا دلوقت واقفة في محل مجوهرات لأولؤة فارسكور.. بصراحة يا حاج.. فيه قدامي حته دين بروش إنما إيه، ح يطلع من.....

-.....

- كده؟ تسلم لي يا نور عيني.. يا رب ما يحرمني منك أبدا.

-.....

- حاضر.. حاضر يا حاج.. أهو معاك أهو.

وأشارت لصاحب المحل، فجاءها مهرولا، فأعطته الهاتف، فتحدث فيه لحظات.. ثم أعاده لها يقول:

- المحل كله تحت أمرك يا هانم.

- عايزة البروش ده.

- تحت أمرك.

- وكيان السلسلة دي.. و.. والخاتم ده.

- تحت أمرك.. حاجة تانية؟

- متشكرة.. وطبعاً انت عارف ح تبتع الفاتورة على مين؟

- عارف طبعاً يا هانم.

وعندما خرجنا وقبل أن أقول لها مبروك، فوجئت بها تذكس السلسلة والخاتم في يدي وتقول:

- اسمعي يا بت يا مهرة.. دول مش عشانك.. دول عشان أشرف ونسمة.. ما يصحش يزوروا طنطهم بدرية ويرجعوا إيدهم فاضية.

- لكن يا بدرية...

- هس.. ولا كلمة.

وجاء يوم الفرح، وبالطبع كان في أفخم قاعات فارسكور، ورغم أضواء القاعة التي تضوي كالنهار، بدت بدرية في فستانها الأبيض كلؤلؤة تضوي في جوف ليل حالك، وبدأ الحفل بمطرب شهير جاء خصوصاً من القاهرة، ثم عندما شرعت الفرقة الموسيقية تعزف مقطوعة راقصة، إذا بالنشوة تستبد ببدرية، فقامت ترقص على الأنغام، واشتعلت القاعة تصفق لها، حتى عريسها أخذ يصفق لها، وامتألت حلبة الرقص بالكثيرات يشاركنها الرقص، حتى اقتحم وليد جمعهن يريد مشاركتهن، فأفسحن له، وكالعادة رقص بمهارة أشعلت القاعة أكثر، حتى عوانس الحاج اشتعلت أكفهن بالتصفيق، وفجأة إذا بلون بدرية يمتقع، ثم الذعر يملأ وجهها، وفورا عرفت السبب، وليد كان يريد أن يقبلها، وكانت تنهرب منه، حتى استشاط غضبا، ثم حدث ما كان متوقعا، انقض عليها وألقاها على الأرض، ثم وكما يعتلي ذكر البط أنثاه، اعتلاها لينتزع منها القبله، فارتفعت صرخاتها وصرخات النساء، فانقلب الفرح لفوضى، ولم يفلح أمن القاعة في انتزاعه من فوقها إلا بعد أن قبلها، وبعدها اتسخ فستانها وتمزق، ولم تجد ما تجيب به على نظرات الناس المتسائلة، إلا أن تردد مرتبكة:

- أصله.. أصله عيط ما يفهمش حاجة.

وانصرف وليد مع أمه وهو يضحك، وأخذ العريس عروسه وانفض الفرح.

* * *

لن أخبر حسن عن السلسلة والخاتم.. وغداً أبيعهما وأودع ثمنهما حسابي بالبريد.

هكذا كنت أحدث نفسي بعد عودتي من عند بدرية، أنتظر حسن الذي تأخر كثيراً عن مواعده المعتاد، لكنه عاد أخيراً، وبدا متغيراً قليلاً، بل كثيراً، إذ لم يتجاوب مع قبلاقي الحارة، بل تركني وجلس وحيداً مكتئباً، حتى جاءني صوته واهناً:

- حضري العشا بسرعة.. عايز أكل وانام.

- مالك يا حسن؟

- مفيش.

وأرجع رأسه للوراء، فحملقت في وجهه ملياً، من مدة وهو يرجع هكذا، لكن ليس مُتعباً كالآن! أنا أعرفه جيداً حين يكون متعباً من العمل، أو من المرض، أو من شيء آخر تعرفه الزوجة جيداً، تعب حسن الآن مختلف تماماً، بل إنه ليس تعباً، زوجي يبدو يائساً! وعدت أسأله بالحاح:

- مالك يا حسن؟ فيه إيه؟

- قلت لك مفيش.. ويا ريت تحضري العشا بسرعة.

ثم أردف:

- وللا أقول لك.. بلاها عشا وح ادخل انام.

وذهب يتكوم على فراشه، بينما الحيرة تقتلني، خصوصاً أنه لم يداعب

أشرف ونسمة كعاداته، ثم سرعان ما ذهب في النوم، ثم اكتشفت أنه
يمثل النوم!

وفي الصباح انتظرت ليروح بشيء، لكنه لثم أشرف ونسمة بقبلات
باردة ثم نزل لعمله صامتا يجرد قدميه.

رباه.. ماذا دهى زوجي!

وبقي أياما لا تتغير حاله، بل يزداد همّا وغمّا، ثم أصبح يثور إذا
ألححت عليه ليفصح، حتى كدت أجن، وحتى قلت له ذات مساء
وأنا آخذ رأسه في صدري وأهدده كطفل:

- ما تقول لي مالك يا حسن.. إنت عيَّان؟

- أنا زي الحصان.

- يبقى أكيد فيه حاجة مضايكاك.

- قلت لك مفيش حاجة يا مهرة.

- طيب فيه حاجة مضايكاك مني؟

- لأ.

ثم ضاحكة لأخفف عنه:

- ولا من أشرف أو نسمة؟

وحتى لم يبتسم، بل اغرورقت عيناه بالدموع، فكدت أفقد صوابي..
ياربي.. ماذا حل بزوجي؟ ما الذي يهيمه هكذا لدرجة أن يجعله يبكي؟

حتى ذهبت مضطرة لخالته، في الحقيقة كنت أحتال لتسألني عنه
فأفضفض لها.. وفعلا سألتني:

- إزي حسن يا مهرة؟

- حسن؟ والله يا خالتي ما أنا عارفة إيه اللي جرى لحسن!

وانسابت دموعي، لكن السيدة لزمت الصمت، فتعجبت لصمتها،
خصوصا أنه بدا لي غريبا مريبا، كأنها تعرف شيئا وتسكت! فقلت
أحفزها لتكلم:

- حسن مابقاش يضحك حتى في وش ولاده يا خالتي.

لكنها اكتفت بمصمصة شفيتها وعادت للصمت، فإذا بي أنفجر
في البكاء، فقامت تهدئ من روعي، ثم تقول بصوت متردد:

- والله ما انا عارفة اقول لك إيه يا مهرة يا بنتي.

- إيه يا خالتي؟ إوعي تكوني عارفة حاجة ومخياها عني.

- بصراحة يا بنتي.. أنا عارفة وساكطة.

- يا مصيبيتي.. عارفة وساكطة على إيه يا خالتي؟

- على اللي يفكر فيه جوزك.

- وجوزي يفكر في إيه؟

- بصراحة يا بنتي.. اللي يفكر فيه جوزك ماينسكتش عليه أبدا،
ولازم تعرفه.

- اتكلمي يا خالتي أنا في عرضك.

- جوزك يا مهرة مديون لشوشته.. عليه حكم في وصل أمانة يا الدفع حالا يا الحبس.. والمسكين ظروفه مش مساعداه.. الشغلانة بتاعته مابقتش جايبة همها.. الحال نايم في كار الموبيليا كله والناس بتكلم نفسها.

ورحت أفكر في كلام السيدة، هل ديون حسن سببها كساد سوق الموبيليا الذي ألمسه بالفعل، أم صحته التي تسوء يوما عن يوم ولم تعد تساعد على العمل؟

- بس حسن بيصرف على البيت عادي يا خالتي.. وعمره ما حسسنا انه مقصر أو إن ظروفه وحشة.

- ما هو.. ماهو يا بنتي.. والله ما انا عارفة اقول لك إيه.

- اتكلمي يا خالتي.

- ماهو يا بنتي حسن دايا يفك زنقته مني.. طبعا عادي ومافهاش حاجة.. أنا برضه زي المرحومة أمه ويمكن دلوقت أكثر.. ده غير إن جوزك والشهادة لله.. بيسد اللي بيستلفه أول بأول والحال بيمشي.. بس.. بس مش هي دي المشكلة.

- أو مآل إيه المشكلة أنا في عرضك؟

- حسن يا بنتي عايز يسافر.. أو من الآخر.. عايز يهاجر في البحر.

يا الله.. يهاجر في البحر؟ مواكب النواح؟

وتذكرت.. من مدة والأخبار تأتيني أنه يجلس كثيرا مع الرئيس خميس، وهو الذي لا يكف عن سبه ولعنه كلما جاءت سيرته، وعندما واجهته قال إنها أعمال طلاء ودهانات تخص مراكب الرئيس القديمة ولا شيء غير ذلك.. وصدقته.

وبلا مراعاة للأصول، لم أستأذن السيدة وأخذت أشرف ونسمة في يدي وكالرهوان على حسن، أقترح عليه المحل وأصرخ فيه كنمرة شرسة:

- ديونك كام يا حسن؟

- إيه؟

- ديونك كام الي عايز تسبينا وتهاجر بسببها.. لأ وكمان عايز تهاجر في البحر.. في البحر يا حسن عشان افضل مقهورة عليك طول عمري ثم إذا بي أتحول للنقيض، ليامة ضعيفة ترى في الأفق ما يهدد عشها، فقلت وأنا أضرم أشرف ونسمة وأبكي:

- ليه يا حسن عايز تحرمنا منك عشان الفلوس.. ملعون أبو الفلوس.. محتاج منها كام ومن بكرة يكونوا تحت جزمتك؟

ثم أردت أن أضمه، لكنه أبعدني صارخا في وجهي وعيناه تقدحان شررا:

- مين قال لك؟ عرفتي منين؟

- عرفت وخلاص.

- انطقي.. عرفتي منين؟

وثانية عدت نمرة شرسة:

- عرفت من خالتك يا حسن.. ومش ح تهاجر يا حسن.. مش ح تهاجر يعني مش ح تهاجر.. وشرفي ما ح تهاجر.

فلطمني، فانهرت في البكاء، فضمني وشاركني البكاء، وعندما هدأنا سألته وأنا أغرقه بقبلائي:

- محتاج كام؟

- عشرين ألف.

- بس كده؟ بكرة يكونوا تحت رجلك.

ورغم مواكب النواح، والنواح نفسه الذي أصبح يوميا كما تنبأت حماتي، فإن موكب نواح الليلة، جعلني لا أنام، ومن باكر كنت في مكتب البريد.. وأنقذت بيتي.

* * *

في زحمة الحياة ومشاغلها، عادت اتصالاتي ببدرية تقل، ثم تنقطع، وقد يمر الشهر تلو الشهر ولا اتصال واحدًا بيننا، مؤكدا أنها مشغولة الآن بحملها الحرام.. الحمل الذي كنت في أشد الفضول واللهفة لأتابع تطوراتهِ.

وبعد أزمة حسن جاءتنا أزمة أخرى، تطور سيئ لحق بصحة خالته، انزلقت بجسدها الضخم وهي تصعد الدرج، فأصيبت بكسور مضاعفة

في الساق، واستلزم الأمر عمل جبائر مع تقييد حركتها، فلزمت السيدة الفراش متقبلة بلاء الله في صبر ورضا.

ثم حدث الأسوأ.. بدأت تتتاب حسن نوبات سعال أشد من المعتاد، وللمرة الأولى بدأ يبصق دما، دما غزيرا، فصارحتي الأطباء بأن رثته المهترئة أصلا بفعل الربو، تهرأت أكثر بفعل كثرة التدخين، ولدرجة أن أصبحت غير صالحة لأداء وظيفتها، ولأننا أهملنا وتأخرنا طويلا في العلاج، لم يعد مفيدا إجراء جراحة أو غيرها، والأمل فقط في لطف الله.

ولم يعد زوجي يذهب للمحل، حتى تراكم عليه الإيجار لعدة شهور، وبدأ صاحب المحل يعلن عن تذمره، حتى عرض أن نتنازل له عن عقد الإيجار مقابل أن يتنازل لنا عن متأخر الإيجار وفوقه مبلغ محترم، فوافقنا لأنه لم يكن أمامنا إلا الموافقة.

لكن بعد وقت بدأ المال ينفد، نفقات البيت وعلاج حسن المتزايدة كانت تأخذ الكثير، حتى وجدتني أتصل ببدرية لعلها تجدي لي مخرجا، فالأزمة استحكمت لدرجة لم نعد نتحملها، ولم أخبر حسن، لكني وجدت بدرية نفسها تعاني، ولكن معاناتها من نوع آخر مختلف:

- شوفتي يا مهرة.. الحمل سقط.. والحاج ماستحملش الصدمة وبقي عصبي جدا.. لدرجة إنه بقي يعاملني وحش.. وحش قوي يا مهرة.. والعوانس شمتانين فيا ومش سايبني في حالي.

- لو مش مرتاحة اطلبي الطلاق.

- طلاق إيه يا مهرة؟ واسيب العز ده كله لمين؟

- خدي حقك بالشرع والقانون.

- شرع وقانون إيه يا عبيطة؟ أنا لازم احبل تاني.

ثم همست ضاحكة:

- خصوصاً إن الحاج دلوقت بقى مصدق إنه سليم ويقدر يخلف.

- اسمعي كلامي يا بدرية وخدي حقك بالشرع والقانون أحسن.

- مهرة.. إنتي عارفة ثروة الحاج دلوقت بقت كام؟ عدت التمانين مليون يا روح قلبي.

فلزمت الصمت، وتابعت هي تضحك:

- ح اخلف يعني ح اخلف.. هو وليد ح يروح مني فين؟

ثم:

- عارفة.. ده طلع أجدع من الحاج بكثير.

وعادت ضحكاتها تجلجل، لكن عندما لم تجد مني إلا الصمت سألتني بقلق:

- مهرة.. حسن عامل ايه؟

وكدت أصارحها بأزمتنا، لكنني في آخر لحظة خجلت فأحجمت.. فقط قلت:

- الحمد لله.. أهو ماشي ع العلاج و...

وفجأة وكالعادة انقطع الاتصال بلا سبب، لكنني شعرت بشعور

مقلق، بدرية لم تعد مستعصية على الضياع.. بل ما هي تصر عليه وتسعى إليه بنفسها!

* * *

ولم يعد أمامي إلا النزول للعمل.. ظروف المعيشة أصبحت قاسية ومطالبها لا تنتهي، في البداية لم يوافق حسن، وفي النهاية رضخ، فلا سبيل آخر أمامنا، وعندما هممت بالبحث عن عمل، تهيأت الأمر في البداية، لكنني تشجعت عندما وجدت كل امرأة حولي تعمل.

لكن ماذا أعمل وأنا لا شهادة ولا مهارة إلا القراءة والكتابة.. وهذه المرة كان لا بد من مصارحة بدرية:

- بدرية.. أنا عايزة اشتغل.. ماتعرفيش طريق شغل؟

- شغل؟ وعايزة تشتغلي ليه يا حبيبتي؟

- الظروف بقت صعبة قوي يا بدرية.. حسن...

وانحبس صوتي.. فصاحت جزعة:

- ماله حسن يا مهرة؟

فحكيت بدموعي كل التفاصيل، فقالت:

- إخص عليكى يا مهرة.. كل ده وساكته؟

- مش وقته يا بدرية.. أنا فعلا محتاجة شغل.

- يا حبيبتي لو على الشغل سهلة.. بس دلوقت ح ابعت لك مبلغ كده.

- متشكرة يا بدرية.. لحد دلوقت مستورة والحمد لله.. لكن ضروري
ألاقي شغل في أسرع وقت.

- من بكرة أخلق لك شغل.. بس برضه ح ابعت لك مبلغ كده
ومش عايزة ولا كلمة.

- طيب لو تعرفي حد في المستشفى الجديدة اللي بنوها في عزبة البرج،
تبقي خدمتيني خدمة العمر.

- واشمعنى دي بالذات؟

- عشان جنب البيت وقريبة من مدرسة أشرف.. بصراحة أنا مش
حمل حتى مصاريف المواصلات.

ولللحظات لم ترد، حتى قالت:

- مهرة.. اقفلي وح اكلمك بعد ربع ساعة بالظبط.

وفعلا بعد أقل من ربع ساعة اتصلت:

- مهرة.. قصدك ع المستشفى اللي اسمها التوحيد؟

- بالظبط.

- الحاج طلع يعرف صاحبها كويس، بالأمانة كلهم دكاترة بدقون
وجلاليب، صح؟

- صح.

- خلاص.. من بكرة تروحي تقابلي مديرها.. اسمه الدكتور شاكر..
قولي له بس انا من طرف الحاج فهمي الرواس.. على طول ح يعمل
معاكي الواجب.. وبرضه تكلميني تقولي لي عمليتي إيه.

- متشكرة.. متشكرة قوي يا بدرية.

- إخص عليكى يا مرمر.

ثم فاجأتني تقول:

- مهرة.. عايزة أسألك سؤال.. بس وحياتي عندك ماترعلش.

- اسألى يا حبيبتى مش ح ازعل.

- هو حسن يعني.. بعد عمر طويل بإذن الله.. له معاش؟

- أيوه.. من حوالى سنة تقريبا قال لي انه اشترك في حاجة اسمها معاش صاحب عمل.

- تمام.. كده طمنتيني يا روح قلبي.

وفعلا، المستشفى يملكه مجموعة من الأطباء الملتحين والطيبات المتقبات.. أي ناس (بتوع ربنا).. ما جعلني أشعر بنوع من الطمأنينة، وكما قالت بدرية، بمجرد أن سمع الدكتور شاكرا اسم فهمي الرواس، حتى قام فعلا بالواجب، ألحقني فورا بالعمل على الأسانسير وإحدى عربات نقل المرضى.

وانكبيت على عملي بكل همة ونشاط، رغم ما به من مشقة وإرهاق، فساعاته طويلة وتتعارض مع واجباتي تجاه زوجي وأولادي، كما أن فقرات ظهري نتيجة حادث سقوط قديم، الآن إذا انحنيت طويلا بسبب ظروف العمل، تتألم جد رهيب، لكن ساعدني صغر سني وبنائي القوي لأتحمل.

وشهور ولحقت نسمة بأشرف في المدرسة، ثم شهر والآخر لأجد
مصرفونا الشهري يزداد باضطراب مخيف، فأجدي أفكر كلما خلوت
بنفسي: ماذا لو لم تسعفني بدرية بفرصة العمل!

إلى أن حلت الفجعة الكبرى..

رحل حسن..

رحل فجأة وهو في عز شبابه وأنا في عز شبابي، ولم أتحمّل الصدمة،
فبقيت عدة أيام منكفئة على نفسي في البيت، أضمر ولديّ لصدري ولا
أفعل شيئاً إلا البكاء، حتى اتصلت بي بدرية مصادفة.. وزلزلها الخبر..
لأجدها أمامي تضمّني وتبكي، أول مرة تزورني بدرية في بيتي، وأول
مرة أراها تبكي هكذا، حقاً كانت في قمة الحزن، رغم بطنها الذي
انتفخ قليلاً بالحمل، وبقيت معي أياماً تواسيني، ولم تتركني إلا بعدما
تجاوزتُ أحزاني قليلاً، وبفسها أعادتني للمستشفى.. وهناك فوجئت
أنهم كانوا على وشك فصلي!

وعند وداعها لي قالت:

- خلي بالك من نفسك ومن عيالك يا مهرة.. ولو احتجتني حاجة..
أي حاجة.. بالله عليكى تتصلي بيا فوراً.
- ماتخليكي معايا كمان كام يوم يا بدرية.

فقلت وهي تضع يدها على بطنها وتبتسم:

- كان نفسي يا مرم.. بس انا في التالت زي ما انتي شايفة.. والحاج
مشدد عليا أتابع مع الدكتور.. ولو اتأخرت مش ح يرحمني.

قلت وأنا أبتسم لأول مرة منذ وفاة حسن:

- الحاج فهمي وللا الحاج وليد؟

- يوووه بقى يا مرمر.

- عموما مبروك يا بدرية.

ثم تشاءمت في الحال! كيف أبارك لها حملها الحرام، وتلك كانت المرة الأولى التي أنظر فيها لأمر ما من زاوية الحلال والحرام! حتى انتبهت إليها تقول:

- سلام بقى يا مهرة وشدي حيلك.. وزى ما قلت لك.. لو احتجتى أي حاجة كلميني فوراً.

وضممتني وبكىنا معاً، ثم قبلتني مودعة ومضت، وبكيت ثانية وأنا أسمعها تنطلق بسيارتها.

وعانيت كثيراً لأصرف معاش حسن، ولولا أولاد الحلال الذين ساعدوني لأصرفه ما صرفته، وفوجئت بأنه جد هزيل، وبرروا لي هزاله بضعف مبلغ ومدة اشتراك حسن، لكنني قلت لنفسي أعزبها: (أهي نواية تسند الزير).

* * *

الدكتور شاكر!

آه ثم آه ثم آه.. من ذلك المدعو الدكتور شاكر.

يوم قابلته لأبلغه وساطة الحاج فهمي، فوجئت بمظهره العام،

لم يكن يرتدي مثل المعروف عن الأطباء، البالطو الأبيض، أو البذلة الكاملة، أو القميص والبنطلون مع ربطة العنق، أو أي شيء من هذا القبيل، كان يرتدي الجلباب! يبدو فيه بكرشه الضخم كأنه باللون هائل يتحرك، وشعرت بانقباض من وجهه المتجهم، وعلامة الصلاة عليه تكاد تغطي نصف جبهته، ومن لحيته الكثة التي تصل لأسفل صدره، ومن شاربه الذي بالغ في حفه حتى بدا وسط لحيته كصحراء جرداء وسط غابة شوك، والحقيقة عندما أدخلوني له، لم يتبادر لذهني مطلقاً أنه طبيب، حتى إنني قلت له ورهبة اللقاء تعقد لساني:

- من فضلك يا عم الحاج.. عايزة أقابل الدكتور شاكر.

ولم أهتم للمتقبة التي أدخلتني له تلكزني في جنبي، لكنه ابتسم يتفحصني ويسألني:

- وعايزة الدكتور شاكر ليه؟

- عشان اقول له إني من طرف الحاج فهمي الرواس بتاع فارسكور.

- ليه؟

- عشان يشغلني هنا.

- وانتي مين بقى؟

- أنا مهرة.

فعاد يبتسم ويقول:

- وأنا الدكتور شاكر.. وطلبات الحاج فهمي أوامر.

ولحظتها كدت أموت خجلا، وإن كنت أرى أن لقب حاج يناسبه أكثر من لقب دكتور، وبعد أن تشاور مع المنتقبة التي اتخذت مقعدها بجوار مكتبة، رفض اقتراحها أن أعمل في نظافة دورات المياه، وأمر أن أعمل فورا على الأسانسير وعربة نقل المرضى، وعرفت بعدها أنه بذلك أسدى لي معروفا، فالخدمة بهذين المرفقين لا تنح إلا للعاملة المحظوظة، فمن خلالها تحصل على إكراميات مجزية تكاد تتجاوز ضعفي الراتب. ولم أدرك وقتها أن (عم الحاج شاكر) أو الدكتور شاكر، لم يفعل ما فعله لوجه الله، أو حتى لوجه صديقه الحاج فهمي، بل فعله لوجه آخر تماما.

كل الرجال العاملين بالمستشفى من أطباء وغيرهم، كانوا بلا استثناء ملتحين، وكل العاملات من طبيبات وغيرهن، كن منتقبات، وكانت اللحية والنقاب من شروط العمل في المستشفى، وكانت لحظة صعبة عندما وضعت ما يسمى بالبرقع على وجهي، شعرت أنه سيخنقني، وعانيت كثيرا حتى تعودت عليه، رغم أنه لم يمنع الأعين من ملاحظتي أينما ذهبت.. حتى النساء! يا للغيرة في أعينهن حين أرفعه عن وجهي لحظات.

أما عن تحرش الرجال بي، فحدث ولا حرج، خصوصا داخل الأسانسير!

حتى اضطررت أن أزيد على زي المستشفى المحتشم، جعلت ملابسي واسعة فضفاضة، ثم استغللت وفاة حسن، فلم أرتد إلا اللون الأسود، وإن تسبب ذلك في حسرة أبي حمزة، الرجل الستيني الملتحي وزميلي

على الأسانسير، هو اسمه جابر ولكن ينادونه «أبو حمزة» رغم أن خلفته كلها بنات! نظراته لم تكن تخفى عني.. أما نساء المستشفى، فقد لاقى حجب فتنة جسدي استحسانهن!

وعن المنتقبة التي تتخذ مقعدها دائما بجوار الدكتور، ونادرا ما تغادر مكتبه، والتي لمست فيما بعد مدى سطوتها وكلمتها المسموعة، فلم أكن أعرف ماذا تعمل بالضبط.. هل هي طبيبة أم سكرتيرة أم شيء آخر؟ ولم أهتم أن أعرف.. حتى عرفت أنها طبيبة ويدعوها أم يحيى. ويوما فوجئت بها تقول لي في أثناء جولة تفتيشية:

- الدكتور أبو عبيدة عايزك.. بعد راحة الغدا تطلعي له.

وقبل أن أسألها (الدكتور من؟) تركتني ومضت، ولم أجرو أن ألحق بها لأؤكد، لهجتها الأمرة المتعجرفة أخافني، وعندما أخبرت زميلة مقربة لي، قالت وهي تغرق في ضحك خبيث:

- قصدها الدكتور شاكر.

- آه.. بس عبيدة ده يبقى إبنه وللا بنته؟

فلم ترد واستمرت تضحك، فلم أهتم بها وصعدتُ للدكتور، لأجده منهما مع أم يحيى يراجعها في شؤون المستشفى، لكن من عينيها فوجئت أنها ليست أم يحيى، بل منتقبة أخرى، فوميض العينين كان مختلفا، والحقيقة كنت أعاني كثيرا لأفرق بين المنتقبات، أولا لكثرتهم في المستشفى، وثانيا لتوحد زيهن الأسود، وثالثا لتوحد قوامهن.. كلهن ممتلئات!

وسرحت أراقب الدكتور وهو يعمل، خصوصا ملامحه المتجهمة
ولحيته الكثيرة التي لا يكف عن العبث بها، وأتقزز من الرائحة التي تفوح
منه والتي تشبه رائحة البخور.. يقولون إنها مسك.. ثم وجدت نفسي
أتساءل، أحقا هذه هي صورة المسلم كما ينبغي أن تكون؟ دائما أسمعهم
في المستشفى يقولون إنهم يتأسون بسيدنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم حتى في الهيئة، فهل كان صلى الله عليه وسلم وأصحابه، بمثل
هذه الهيئة التي عليها الدكتور؟ غليظة ومنفرة هكذا؟! الرجل كان يبدو
لي منفرا على نحو ما.. نحو لا أستسيغه ولا أحبه.

حتى انتبهت إليه يقول:

- ها يا مهرة.. مبسوفة في الشغل؟

- الحمد لله يا بيه.

فابتسم، ثم أشار للمتقبة أن تتركنا، ثم ضغط زرا، فدخلت أم يحيى،
ثم اتخذت مجلسها المعتاد، ومن هنا لمست أنها المقربة من الدكتور وساعده
الأيمن، وهمس لها بكلمات، فإذا بها تنظر لي وتطيل النظر! وتتفحصني
من فوق لتحت كأنها تراني للمرة الأولى! ثم تقول لي بلهجة مستنكرة:

- إنتي ح تفضلي لابسة الإسود ده على طول؟

- ما هو.. ما هو جوزي يا ست هانم بعيد عنك.. لسه ميت قريب.

- ولو.. المستشفى له يونيفورم مخصوص ولازم تلتزمي بيه.

- أمرك يا ست هانم.

- ومن بكرة تيجي لابساء والدكتور يشوفك بنفسه.

- أمرك يا ست هانم.

- ودلوقت يللا روجي شوفي شغللك.

الدكتور طوال الوقت، فقط كان يتابعنا ويبتسم، وخرجت من عنده أضرب أخماسا في أسداس، ألهذا فقط كان يريدني؟ أمعقول يهتم لهذه الدرجة وبِنفسه، بمراجعة زي عاملة نكرة مثلي؟ ثم تلك المسماة أم يحيى! ألم يكن في استطاعتها أن تبلغني أوامرها الغبية عن زي المستشفى بيني وبينها، وبعيدا عن شخص الدكتور الكريه؟ ولماذا بدا معي لطيفا ودودا وبدأت هي فظة سمجة؟

وفي الغد وكالأوامر، صعدت للدكتور بزي المستشفى ليراني به، ولكن قبل أن أطرق باب مكتبه، فوجئت بأم يحيى تحرص على أن تستقبلني خارجة، بل وترحب بي مبتسمة بعكس الأمس! وإن كانت ابتسامتها صفراء.. قالت:

- حلو قوي اليونيفورم عليك يا مهرة.

- الله يجبر بخاطرلك يا ست هانم.

- بس انا حاسة ان البرقع مضايك شوية.. مش كده؟

- بصراحة آه.

- طيب اخلعيه.

- أخلعه؟

- أيوه.. واخلعي الطرحة كمان.

ثم أخذت تسوي لي شعري بنفسها! وبطريقة تتناسب مع طوله
وغزارته! كما لو أنها تريد أن أبدو مثيرة! ثم قالت وابتسامتها الصفراء
تتسع:

- بس خلي بالك.. كل ده مؤقت.. يعني ح ترجعي تلبسي البرقع
والطرحه تاني.

- أمرك.. بس الدكتور ح يشوفني كده؟

- أيوه.

ودخلنا للدكتور، الذي بمجرد أن رآني جحظت عيناه، لكنه ظل
صامتا، ولم يكف عن العبث بمسبحة كانت بين أصابعه.. حتى قال
لأم يحبي كأنه يلومها:

- مش كان أفضل تيجي لابسة حاجة تانية غير زي المستشفى الكتيب
ده؟

عجبا! ماذا يريد هؤلاء؟ أأرتدي زي المستشفى أم لا أرتديه؟ والآن
الرجل يبدو أن رغبته كانت ألا أرتديه! والمرأة تبدو أنها لم تنتبه لرغبته!
ولهذا يلومها! والدليل وقوفها أمامه هكذا كالتلميذ المقصر الذي لا
يدري بماذا يجيب! حتى تأكدت حين أمرها قائلا بضيق:

- خلاص.

فأمرتني بدورها:

- خلاص.. واستنيني برة.

ومرة أخرى خرجت أضرب أخماسا في أسداس .. رباة .. ما تلك
التصرفات الغربية من الناس الأغرب؟ نعم أنا منذ وطأت قدمي هذا
المستشفى، وإحساسي أنه وإن كان مجتمعا بشريا يعج بالآدميين، إلا أنه
لا يمت بأية صلة لأي مجتمع بشري أعرفه! والناس فيه يعيشون حياة
ليست كالتى أعرفها! والآن أشعر أن المستشفى بكل أقسامه، قد تم
اختزاله في قسم واحد فقط .. الأمراض النفسية والعصبية!

واكتملت دائرة الغموض .. خرجت أم يحى من عند الدكتور تقول:
- مهرة .. ضروري تقابليني النهاردة بعد صلاة المغرب في مسجد
التوحيد .. عارفاه؟

- عارفاه يا ست هانم .. لكن خير؟

- هناك ح نتكلم في موضوع يهكم.

وفورا تبادر لذهنى ما كنت أسمع عنه من زميلاتي وأخشاه .. الخدمة
في البيوت .. فكثيرات منهن يذهبن ينظفن بيوت أطباء وطبيبات المستشفى
مقابل أجر، لذلك أسرع أقطع على المرأة:

- على فكرة يا ست هانم .. أنا مش بتاعة خدمة في البيوت.

فقال مدهوشة:

- خدمة إيه وبيوت إيه؟ أنا عايزاكي في موضوع تاني خالص.

- يبقى تحت أمرك .. بس من فضلك مش عايزة اتأخر على بيتي
وولادي.

- إنتي عندك ولاد؟

- عندي أشرف ونسمة.

- عندهم كام سنة؟

- أشرف في تالته ابتدائي ونسمة في تانية.

- يعني كبار ما شاء الله! يبقى ضرورى تجيبهم معاكى عشان أشوفهم.

- تحت أمرك.

ولم أفلح في تخمين فيم تريدني!

وفي المسجد وجدتها تعطي درسا لمجموعة من النساء، لكنها أنهته بسرعة لتنفرد بي في حجرة ملحقة، وبمجرد جلوسنا تحررت من نقابها وهي تطلق زفرة تأفف، والسبب حرارة الجو التي لا يستقيم معها نقاب.. وأذهلني جمالها.. كانت غاية في الجمال، فقط ما كان يعيها، هو امتلاء صدرها وأردافها لحد كبير، وقدمت لي بنفسها مشروب الكركديه وهي تسألني مبتسمة لترفع الكلفة بيننا:

- إيه رأيك فيّا من غير نقاب؟

- والله قمر يا ست هانم.

- استفدي من الدرس اللي كنت باقوله؟

- الله يفتح عليكى ويزيدك كمان وكمان.

فابتسمت ثانية وهي تلاطف أشرف ونسمة بهدايا الحلوى.. ثم إذا بها تقول:

- مهرة.. أنا عارفة حالتك الاجتماعية كويس.. بس عايزة اسمعها منك.

فخمنت أنها تريد مساعدتي ماديا، فاعترتني الريبة للحظات.. فقالت تستحشني:

- كلميني عن نفسك وحالاح تعرفي ليه.

فحكيت لها باختصار من يوم تزوجت حسن إلى أن توفاه الله، وتجنبت الحديث عما دون ذلك، وعندما فرغت فوجئت بها تقول:

- مهرة.. مش عايزة تتجوزي؟

رباه.. ماذا؟ أتزوج؟ هل حقا المرأة تقول أتزوج؟

ولم أنتبه إلى أنني أكلّم نفسي!

في الحقيقة أنا لم أفكر في الزواج قط، ولا أعتقد أنني سأفكر فيه، فأنا ما زلت إلى اللحظة أسيرة صدمة وفاة حسن، ولا أعتقد أنني سأفارق منها في المدى القريب.. بل وقولا واحدا، لن يتمدد على فراشي ولن يدخل حياتي رجل بعد حسن، خصوصا أنها ليست حياتي وحدي، بل يشاركني فيها ولداي اللذان أحيا في هذه الدنيا من أجلهما فقط.

ووجدتني أسأل المرأة كأنني لم أسمعها:

- بتقولي أتجوز يا ست هانم؟

- أيوه يا مهرة تتجوزي.

- بس...

- بس إيه؟ هو الجواز مش شرع ربنا؟

- أيوه.. بس انا عمري ما فكرت في كده.

- بس لو اتقدم لك شخص مناسب.. أكيد ح تفكري.

- لأ مش أكيد يا ست هانم.

- ليه؟

- أنا عندي عيال عايزة اربيهم.. كمان ماحبش اجيب لهم جوز أم..
وكمان لو اتجوزت الحكومة ح تقطع معاشي اللي بصرف عليهم منه.

- حتى لو العريس اللي عايز يتقدم لك غني؟ وح يعوضك عن
المعاش وعن كل حاجة؟

- ما هو برضه الفلوس مش كل حاجة يا ست هانم.. مش جايز لا
قدر الله ما يطلعش ابن حلال واشوف معاه المرأ أنا وولادي؟

- ولو قلت لك بخلاف إنه غني.. كمان متدين ويعرف ربنا كويس..
وح يشيلك إنتي وعيالك جوه عنيه؟

المرأة كانت تتحدث كأن موافقتي شيء مفروغ منه، أو أنها قدر لا
خيار أمامي سواه، أو أنها مسألة وقت لن تستغرق إلا زمن ما أديرها
في رأسي مرة أو مرتين على الأكثر! فوجدت الرغبة تستبد بي لأعرف
من هو طالب القرب، فقررت أن أشتري من المرأة ولا أبيع، فقلت
بلهجة من تريد أن توافق:

- يعني الشخص ده يا ست هانم.. غني قوي؟

- وفلوسه زي الرز.

- ومتدين ويعرف ربنا؟

- جدا.

- وح يعاملني كويس أنا وعيالي؟

- طبعا مافهاش كلام.

- طيب.. هو مين ده يا ست هانم؟

وزلزلتني الإجابة:

- الدكتور شاكر.

«يا نهار إسود!»

هكذا صرخت.. ثم قمت واقفة لا أصدق، حتى إن أشرف ونسمة
أجفلا وكادا يبكيان.. آه.. لهذا كان الرجل يعاينني في مكتبه.. يعاينني
بلا زي وبلا برقع وبلا أية ذرة خجل.. يعاين البضاعة ليتأكد بنفسه
أنها خالية من العيوب!

ولم أسمع المرأة وهي تتساءل متعجبة ومستنكرة:

- ليه بتقولي يا نهار اسود؟ هو ده مش جواز على شرع ربنا؟

فلم أرد، فعادت تسأل بإلحاح:

- ها يا مهرة.. قلتي إيه؟

وأيضاً لم أرد، بل أخذت ولديّ وخرجت وتوابع الزلزال بداخلي

تتوالى، ولم أهتم لها وهي تتخبط في نقابها ترتديه بسرعة لتلحق بي.

وفي المنزل أخذت أشرف ونسمة في حضني أحتمي بهما مما أنا فيه، ثم وجدتني أبكي وأستعيد ذكرياتي مع حسن، ذلك الذي رغم سعادي المنقوصة معه، لم أر منه إلا كل خير، ولم يكن إلا مثال الزوج المخلص، وقبلها مثال الرجل الشهم، الرجل الذي بعد أن سلّمني أعز ما أملك.. أي نعم سلّبنه برضاي.. لم يشأ أن يتخلّى عني، رغم أنه وبكل سهولة كان يمكنه أن يلقي بي إلى قارعة الطريق، إذ لماذا يرتبط بفتاة فرطت في شرفها حتى لو كانت فرطت فيه من أجله، لكن رجولته منعت أن يتركني بقايا امرأة، فتزوجني رغم معارضة أمه، ولم يتوان يوماً عن بذل جهده لإسعادي، ولولا الفقر والمرض وموته المبكر، لاستمرت حياتي معه إلى ما شاء الله.

وغدا وفي المستشفى، إذا بزلزال آخر أشد من زلزال أم يحيى! فبعد أن حكيت لزميلتي المقربة، تساءلت لها باستنكار واستهجان:

- هي الي اسمها أم يحيى دي.. بتشتغل إيه بالظبط؟ دكتورة وللا خاطبة؟

- ليه؟

- يا بنتي دي كانت بتخطبني لعمك الدكتور شاكر.. ولا أجدعها خاطبة.

فإذا بزميلتي تفهقه قائلة:

- عادي.. ما هي مش بتخطب لحد غريب.

- ليه؟ هو الدكتور يبقى أخوها؟

- لاء.

- قريبتها؟

- لاء.

- صاحبها الأتيم؟

- لاء.

- بتخطب له عشان صاحب المستشفى؟

- لاء.

- إيه؟ بتخطب له لمجرد إنه زميلها؟

- برضه لاء.

- الله يخيك.. أومال بتخطب له ليه؟

قالت وفهقهتها تعلقو:

- عشان بسلامته يبقى جوزها.

- يا نهارها الإسود هي وهو! جوزها؟

- أيوه جوزها.

ثم استطردت:

- ما هما الجماعة دول كده.

- جماعة مين وكده إيه؟

قالت وقهقهتها تعلو وتعلو:

- السلفيين.. شيء عادي عندهم إن الواحدة تخطب لجوزها

- تخطب لجوزها؟

- أيوه.. يقولوا إن ده شرع الله.

- شرع الله؟

- وانتي كنتي ح تبقى ضرة أم يحيى نمرة تلاتة.

- ليه؟ هو متجوز اتنين غيرها؟

- بالظبط.

وبالطبع لم أصدق هذا الشذوذ.

مع أنني في نهاية اليوم.. فوجئت بهم ينقلونني لأعمل في نظافة
مراحض المستشفى!

* * *

ثم اكتملت الدائرة..

يوما وبعد عودتي مرهقة من العمل، جلست أذاكر لأشرف، أحاول
فك طلاسم سؤال حيره وحيرني في مادة العلوم، عندما سمعت صوت
مفتاح لا يريد أن يدور في كالون الباب! كنت قد غيرت الكالون بعد
وفاة حسن، فتملكني الرعب، خصوصا عندما بدأ الشخص بالخارج

يخبط على الباب بخبطات قوية لأفتح، فوقفت أصبح فزعة:

- مين؟

- أنا.. إفتحي.

يا إلهي.. إنه صوت عادل شقيق المرحوم حسن.

عودة ما كنت أتوقعها قط.

عقلي الباطن كان يدفعني دائما لأتناساه، هو وأخته، ولأتناسي أن الشقة شقتهم أصلا، ولكن ها هو الواقع المر، فتحت لأجده أمامي، وكسابق عهده معي، دخل وهو ينظر لي ببرود شديد، ثم يقول ببرود أشد:

- إزيك؟

- بخير.. إزيك انت يا عادل.. حمد الله على السلامة.

ولم أدهش أن أول ما تبادر لذهني أن أسأله سؤالاً واحداً: هل جاء في إجازة أم جاء ليبقي؟ فمنذ سافر هو وأخته لم يسبق أن نزلا في إجازة، حتى عندما أرسلت أخبرهما بوفاة أمهما ثم أخيهما.

وجلس ينظر طويلاً لأشرف ونسمة ولا يكلمهما! لكن عندما دعوته ليتناول العشاء معنا لم يرفض، وعلى الطعام سألته:

- إجازة وللا نزول على طول؟

- نزول على طول.

فهيأت لنفسي لما هو آت.

ثم عاد ينظر لأشرف ونسمة، وهذه المرة تكلم:

- إنتو بقى ولاد اخويا؟

فلم يردا، كأنهما يعاملانه بالمثل، وظلا ينظران له بتحفظ واستغراب، حتى عندما شرحت لهما متوددة:

- ده يبقى عمو عادل.. أخو بابا.

لم يحرك الطفلان تجاهه ساكنا!

حتى قام يفرغ حقييته، ثم يتحرك في الشقة كأنه لم يغادرها، وكأنه يقول لي بالفعل لا بالكلام إن البيت بيته، إلى أن أفصح بالكلام:

- فين دولابي اللي كان هنا؟

- اتباع مع حاجات كتير.

- مين اللي باعه؟ إنتي؟

- لأ.. أخوك الله يرحمه.

- يعني إيه؟

- يعني زي ما سمعت.

- طيب ح احط هدومي وحاجتي فين دلوقت؟

- ح افضي لك مكان في دولاب أشرف.

فرع الصغير رأسه عن كراسته احتجاجا، لكنني أسكتته بنظرة قاسية، فلم أرغب أن تحدث مشكلة مع هذا الشخص من أول يوم، وحتى أرى ماذا سأفعل في هذا البلاء الذي حل فجأة، وحددت له أيضا مكان

نومه، ومضت الليلة الأولى بسلام، ربما لأنه كان مجهدا من السفر، ونظرت له طويلا وهو عمد على كنبته.. أو كنبتي سابقا.. هو كما هو لم يتغير، بل لعله ازداد صفاقة وبرودا.

وفي تالي الأيام حدث ما كنت أخشاه، بدأ يستفزني كما كان يفعل أيام أمه، بل ويتعمد إثارة المشكلات حتى مع الطفلين، ثم الملح لي يوما في معرض كلامه وعن عمد، إلى أن أخته قد تنزل هي الأخرى قريبا، كأنه يقول لي استعدي من الآن لتبحثي لك ولولديك عن مكان آخر، فبدأت نفسيتي تسوء وأعصابي تتوتر.

حتى فاض بي الكيل من أفعاله، فذهبت أشكوه لخالته لعلها تجد لي حلا، رغم أنها لم تبرأ تماما من حادث كسر ساقها، ووجدت سلوى عندها ترعاها كالعادة، وعندما حكيت لها قالت السيدة:

- اللي اعرفه يا بنتي إن الشقة من يوم ما سكنوها هي شقة المرحوم حسن.. عقد الإيجار بإسمه وهو اللي كان يدفعه.

- والله يا خالتي أنا ماعنديش مانع إن اللي اسمه عادل ده يقعد معانا.. أهى برضه شقته.. بس يقعد بأدبه من غير مشاكل.

وتدخلت سلوى:

- معاكي حق يا مهرة.. لازم يقعد بأدبه.. ولولا إن جوزي وعلاء مسافرين كانوا شافوا لهم صرفة معاه.

ولا أدري لماذا اضطربت نفسي لذكر علاء، وهممت أن أسألها متى سيعود، لكنني أحجمت.. ولكن كالعادة سألتها السؤال مغلفا بالحيلة:

- وهو جوزك ح ينزل بالسلامة إمتى؟

- والله يا مهرة مش باين لهم نزول السنة دي خالص.

- ليه؟

- الكفيل بتاعهم راجل صعب قوي ومايعرفش ربنا.

- إن شاء الله ينزلوا عن قريب بالسلامة.

ثم شردت قليلا، ثم لم أجد بدا من الانصراف، خصوصا أن أشرف ونسمة بالمنزل ولا أحد معهما إلا المدعو عادل، وبإحساس الأم كنت أشعر أن شيئا ما هناك.

وفعلا في البيت وجدت الطفلين بيكيان، والمدعو عمهما بجوارهما بارد الأعصاب، وما إن رأتهي نسمة حتى قالت بدموعها:

- عمو عادل ضربنا يا ماما.

فسألته:

- ليه يا عادل؟

- عشان دي عيال قليلة الأدب ومش متربة.

- ليه عملوا لك إيه؟

- باقول للبت فين الشوز بتاعي الي كان هنا.. ماردتش عليا..

وباقول للواد ناولنى القميص.. سابني ومشي.

فالتفت لهما أقول:

- عيب يا أشرف انت ونسمة.. لما عمكو يطلب منكم حاجة لازم
تسمعوا كلامه.

ثم له:

- ولو سمحت يا عادل.. ماتضربهمش تاني وانا مش موجودة..
الأصول إنك تشتكي لي الأول.

لكنه أعطاني ظهره كالعادة، فأطعمت طفليَّ العشاء وأودعتهما
فراشهما، ثم تعددت بجوارهما أبكي، ولم أنم إلا بعد أرق وسهد... و...
وإذا بعلاء يزورني في المنام.

ولم تكن المرة الأولى، فمنذ حدثتني المدعوة أم يحبى عن الزواج،
لا أدري لماذا أصبح علاء ضيف أحلامي يومياً، كل يوم يأتي ويمضي
كالطيف، لكن هذه المرة رأيت يعاتب عادل ويسأله بغضب، لماذا يسيء
معاملة أشرف ونسمة هكذا!

* * *

حتى حدث من عادل ما كنت أتوقعه!

بدأت معاملته لنا تتغير.. تتحول إلى الود الخالص! بدأ يتقرب لي
على غير العادة، ويكف عن إثارة المشكلات مع الطفلين، حتى عرفت
السبب وبسهولة.

إنه يلمح للزواج!

وآه من الزواج!

الحقيقة أن الزواج كان وسيظل خارج حساباتي بالكلية، ما زلت لا أتخيل أن يتمدد على فراشي رجل غير حسن، وسأظل لا أتخيل أن آتي لأشرف ونسمة في يوم من الأيام بـ(جوز أم) وإن كان ذلك عكس ما تراه بدرية، فهي ترى وبالطبع ليس مستغرباً منها، أنني أعذب نفسي بلا داع، ودائماً يدور بيننا هذا الحوار:

- إزاي يا مهرة ح تعيشي من غير جواز؟ إزاي ح تكلمي من غير راجل؟

- نصيبي كده يا بدرية وانا راضية بيه!

- يا حبيتي ماينفعش.. لازم تتجوزي.

- حاجات كتير يا بدرية تمنعني من الجواز.

- زي إيه؟

- كلام الناس.. وحاجات تانية.

- ناس زي مين وحاجات زي إيه؟

- كل الناس اللي حواليا.. جيرانني مثلاً.. وخالة حسن وبتتها.. وكفاية قوي خالة حسن وبتتها.

- يا شيخة بلاش أوهام.. ح يقولوا إيه يعني؟

- لا يا بدرية.. ح يقولوا الكلام اللي أهون عليّ إني أموت ولا اسمعوش.

- كلام زي إيه؟

- ح يقولوا شوفوا الست الناقصة اللي راحت تتجوز وتعيش حياتها على حساب عيالها.. ده طبعا غير كلام أشرف ونسمة.

- كلام أشرف ونسمة؟

- أيوه.. سيبك دلوقت من إنهم لسه صغيرين.. بكرة لما يكبروا ويفهموا.. ساعتها مش ح يساعوني.. وح يكرهوني طول العمر لاني جبت لهم جوز أم.. كمان معاشي يا بدرية.. معاشي رغم انه بسيط ح ينقطع بمجرد ما اتجوز.

- خلاص.. اتجوزي عرفي.

- لأ.. كله إلا العرفي.

- ليه؟ ده العرفي حلال وعلى ضمانتي.. اسأليني أنا.

- ولو يا بدرية.

- يا بت اسمعي كلامي.. إنتي صغيرة ولازم تتجوزي.

وتلك الكلمات بالذات أسمعها كثيرا من خالة حسن، لعلها بمكر النساء تقولها لتعرف موقفني من الزواج، لكن أيا كان، سواء أَلَحَت بدرية أو خالة حسن أو غيرهما، لن أفكر أبدا في الزواج، خصوصا لو كان الزواج بشخص مثل عادل.

طبعا أعرف ما الذي أجح فكرة الزواج في ذهنه، أنا طول الوقت أمامه امرأة جميلة وبلا رجل، وتعمل ولديها دخل، ولديها مسكن لن يكلفه شيئا لأنه يملكه معها، أي زواجي به يعد صفقة رابحة له بكل المقاييس، أيضا هو يعزف على وترين يعتقد أنهما ذوا حساسية عندي،

الأول أنني بحاجة لرجل أعيش في ظله، والثاني أن يصبح أبا بديلا لأشرف ونسمة، لينفي عنهما صفة اليتيم التي يعلم أنها تؤرقني.

لكن بجانب طبع عادل السيئ، وذكرياتي معه الأسوأ، فالأسباب التي تمنعني من الزواج به كثيرة، أهمها الغموض الذي يغلف حياته منذ عاد من سفره، أشعر أنه يخفي فشله في بناء نفسه في الغربية، ويخفي أنه عاطل منذ عودته، فأغلب الوقت أراه ممددا على الكنبه يشاهد التلفزيون، لكنه لا يستطيع أن يخفي طول الوقت، فمرة أخبرني أنه يعمل أسطى في ورشة نجارة، ثم نسي وعاد يتكلم أنها ورشة دهانات، والآن عندي شكوك أو دلائل أنه منذ عاد من سفره وهو يعمل في محطة بنزين، وأنه غير منتظم فيها، يعمل يوما ويغيب أياما.

ولم يكف عادل عن التودد لي، رغم الضيق والعذاب النفسي الذي كان يسببه لي ذلك، حتى جاءتني فكرة، لماذا لا أستغل رغبته في الزواج بي لأضمن حُسن معاملته لنا إلى الأبد؟ وفعلا، كلما ألح لي بالزواج، نعم أتجاهله، لكن مع قدر محسوب من الأمل أبته في نفسه، مع قدر محسوب من تمثيل دور الراغبة المترددة.. ونجحت الفكرة.. أصبح عادل طوع بناني، وشخصا راقيا في منتهى الذوق والأدب، بل وصار لا يألو جهدا في عمل أي شيء يرضيني!



واستمرت الحال هكذا طويلا، بالضبط ثلاث سنوات كاملة، نعم كلها عذاب نفسي لا يوصف، لكنني تحملتها من أجل أشرف ونسمة. ومرت الأيام، وكلما شعرت أن اليأس بدأ يتسرب لنفس عادل،

فورا أسرع وأبث في نفسه مزيدا من الأمل، مع شحذ كل أسلحة المرأة المعروفة، فيعود ويصبح كما أريد.

لكن ظلت مشكلتي هي بدرية.. لم تكف مطلقا عن بث فكرة الزواج في نفسي، ليس الزواج بعادل تحديدا، فأنا لم أصارحها برغبته في الزواج بي، ولن أصارحها، وإنما فكرة الزواج عموما.

طبعاً لن أنكر أن أنوثتي وغريزتي كامرأة، كانتا تعذباني، لكنني كنت أحولهما لطاقة إيجابية أسخرها من أجل أشرف ونسمة، أعمل بلا كلل أو ملل لأوفر لهما الحد الأدنى من الحياة الكريمة، وأحرص كل الحرص على أن ينالا حظاً معقولاً من التعليم، رغم دخلي المتواضع من معاش حسن وراتبي الذي فقدت نصفه بعد نقلي لتنظيف مراحيض المستشفى، ورغم نفقات المعيشة التي تزداد كل يوم، ورغم النوع الجديد من النفقات التي وجدها تحاصرني.. الدروس الخصوصية.. لم أكن أعرف أنها مرهقة لهذا الحد، وتزداد كلما تقدم أشرف ونسمة في سنوات الدراسة، هما الآن في الصف الثالث والثاني من المرحلة الإعدادية، وأكاد بسبب تلك الدروس أتسول عليهما بلا مبالغة.

إلى أن حدث تطور خطير في علاقتي بعادل.

من طول ما أهيته بالأمل الكاذب، اقتحم اليأس قلبه دفعة واحدة وبلا سابق إنذار، ولم تعد أسلحة المرأة تأتي معه بنتيجة، فقد خبرها جميعاً، فإذا بيده تمتد لجسدي، في إعلان صريح عما يريد مني!

فيوما كنت واقفة أمام المرأة أستعد لأذهب أفاوض مدرس أشرف ونسمة على أجر الدروس المبالغ فيه، وبالمرة آتي بهما من عنده، عندما

جاء عادل يقف خلفي، ثم ينزع الشال الأسود عن رأسي ويقول:

- مش كفاية إسود بقى؟ ح تفضلي لابساء لحد إمتى؟

ثم أراد أن يضمني.

فتلخبط كياني؛ فهذه أول يد تمتد لجسدي بعد حسن، ولم أدر ماذا ينبغي أن يكون رد فعلي، هل أغضب فقط، أم أغضب وأصرخ لأفضحه، أم أتغاضى وأسكت؟ لكنني لم أفعل إلا أن دفعته عني وجريت، وتلقائيا وجدتني أفكر في أشرف، فهو الآن رجلي الوحيد المنوطة به حمايتي، لكن كيف وهو ما زال صغيرا على مواجهة شخص مثل عادل، بجانب أنه ورث عن حسن ضعف البنية واعتلال الصحة؟

رباه.. لمن ألجأ إذن، وعادل إن تركني اليوم فلن يتركني غدا؟ فلم أجد إلا بدرية، اتصلت بها وأنا في الشارع.. للمرة الأولى سأشكو لها عادل منذ عاد من سفره، لكن لن أخبرها كالعادة برغبته في الزواج بي، فحديثها عن الزواج فعلا يضايقني:

- بدرية.. الواد عادل زودها قوي.

- عمل لك إيه؟

- مد إيده عليّا.

- ضربك؟

- لأ.. حاجة تانية.

- دي أول مرة يعمل كده؟

- أيوه.. لكن عموما من يوم ما رجع من السفر وهو مش سايني في حالي.

بعد صمت قالت:

- ما دام الأمور وصلت لكده.. يبقى الوادده لازم يشوف له مكان تاني بعيد عنكم.. الشقة دي شقتك انتي وعيالك.

- لا يا بدرية.. الشقة في الأساس شقته هو وأخته.

- وكمان شقتك انتي وعيالك.

- والله ما انا عارفة يا بدرية.. أنا غلبت وزهقت وتعبت.

وبكيت، فقالت:

- اسمعي.. ارفعي عليه قضية.. وقولي في المحكمة إنه بيتحرش بيكي في الشقة.. ساعتها المحكمة ح تحكم لك من أول جلسة.. وهو ح يروح في ستين داهية.

- محكمة إيه يا بدرية؟ هو انا حمل قضايا ومحاكم؟ وبعدين مين قال لك ان المحكمة ح تحكم لي من أول جلسة.. المحاكم سكتها طويلة يا بدرية.

وعدت أبكي، فعادت تقول:

- خلاص.. لو مش عايزة سكة المحاكم.. فيه سكة تانية.

- إيه هي؟

- سيبى الموضوع ده عليًا.

- لأ.. أعرف الأول ح عملي إيه؟

- ولا حاجة.. تليفون صغير من الحاج لقسم شرطة البرج.. الواد ده مش ح تشوفيه تاني.

أعرف أن زوجها على علاقة وثيقة بذوي السلطة والنفوذ، وفعلا تليفون منه يكفي لإنهاء الموضوع، لذا سرحت أفكر.. لكنني في النهاية قلت:

- لا يا بدرية.. أنا مش قليلة أصل للدرجة دي.

وهنا تذكرت سعداوي، أننى كنت عديمة الأصل معه، لكن سعداوي كان ابن العمة الكريمة، أما عادل فهو شقيق الغالي.. شقيق حسن! وانتبهت إلى بدرية تقول:

- هو الزفت عادل ده.. مش المفروض انه سافر عشان يعمل له قرشين ويبدأ حياته بعيد عنكم؟

- المفروض.. لكن الحقيقة انه رجع فلسان وعدمان.. ده حتى لمح لي مرة إنه لو اتجوز ح يتجوز معانا في الشقة. وهنا قالت ضاحكة:

- اسمعي يا مهرة.. لو الواد ده غرضه الجواز.. إيه المانع تتجوزيه؟ آه.. إنه حوار الزواج الذي فتحته بنفسى ولن تتركه.

- بدرية.. أنا مش ناقصاكي؟
- لأ بجد يا مهرة.. إيه المانع؟ أهو على الأقل من ريحة حسن.
- ولو.. كله إلا البني آدم ده.
- يا بت أهو راجل وخلاص.
- جرى إيه يا بدرية؟ هي الحكاية راجل وخلاص؟
- أيوه الحكاية راجل وخلاص.. طب عيني في عينك كده.. بدمتك مانفسكيش في الجواز؟
- وهنا صرخت فيها:
- بدرية.. لو ماسكتيش ح اقل التليفون.
- خلاص خلاص.. أنا غلطانة.. حقك عليا.
- لكنها عادت تقول، وبخبت:
- إيه أخبار علاء؟
- علاء مين؟
- أهو ده بقى اللي اسمه كهن النسوان.. علاء يا بت.. علاء ابن خالة حسن.
- وحياتك ما شفته من يوم ما سافر.
- ثم لكي أصرفها عني، أو عن موضوع علاء الذي لن تتركه، فورا فتحت معها موضوعا أعرف أنها أيضا لن تتركه:

- أخبار الحمل إيه.. مفيش جديد؟

- فيه بس أخبار وحشة.. حملت وسقطت.. ودي تبقى خامس أو سادس مرة.. بس المرة دي الدكاترة حذروني.. مفيش حمل ثاني قبل خمس سنين.

- ياه.. خمس سنين؟

- أيوه يا ستي خمس سنين.

- بدرية.. ما تعقلي يا بنت الناس وسيبك من اللي في دماغك.. وخدي حقك من الحاج بالشرع والقانون وكل واحد يروح لحاله.

- شرع وقانون إيه يا عبيطة.. أي نعم الحاج بيهب عيشتي مع كل حمل يسقط.. لكن زي ما قلت لك قبل كده.. من يوم ما جملت أول مرة وهو متشعبط فيا.. خلاص بقى مصدق إنه صاغ سليم.. عشان كده دي فرصة أفضل أحبل لحد ما أجيب الولد اللي يُقش.

- بدرية.. هو انتي يائسة من الحاج خالص؟

- الحاج عمره ما ح يخلف يا مهرة.. وانا عارفة كده من الأول وأدرى بيه من الدكاترة نفسهم.. ومن الآخر.. الحاج ماهوش أصلا في الجواز.

وإذا بي أقول:

- بس وليد ليه.. مش كده؟

- طبعا.

- هو أخباره إيه؟

- كويس وزى الفل.

رباه.. ماذا دهاني؟ هذا الحديث كنت أعتبره فيما مضى من الكبائر..
الآن أشعر بلذة غامضة عندما أخوض فيه!

حتى انتبهت إليها تقول:

- على فكرة.. الحاج فتح لي معرض أكسسوار موبيليا.. وح اجيب
وليد يشتغل معايا

وعاد شعوري باللذة يتأجج، بل وأشعر أنني لم أعد أخاف على
بدرية من الضياع، بل وربما أشعر أنني الآن أحسدها! ولكن.. هل
أنا أحسدها على الثراء وحياة البذخ التي تحياها بالطول وبالعرض؟
والملذات التي تنهل منها بغير حساب؟ أم أنا أحسدها على... على...

وقطعت حبل أفكاري تقول:

- عارفة ثروة الحاج بقت كام؟

- بقت كام؟

- قربت من الربع مليار

- ربنا يزيد ويبارك.

- بت يا مهرة؟ مش محتاجة أي حاجة يابت؟ لو محتاجة أي حاجة
قولي لي ماتنكسفيش.

- متشكرة يا بدرية.. صدقيني لو احتجت حاجة ح اقول لك.

ثم تعالت صرخات وليد، فأسرعت تقول ضاحكة:

- سلام بقى يا مرمر.

ويلي.. أخشى أن أكون أحسدها على وليد!

* * *

جلست أشاهد باستمتاع فيلم «إمبراطورية ميم» لمعشوقتي فاتن حمامة، لكن نسمة قطعت متعتي تقول:

- ماما.. مدرس العربي عايز فلوس الدرس النهارده.

- هه.. حاضر يا نسمة.. قولي له يستنى كام يوم.

- يوووه بقى يا ست ماما!

- معلش يا نسمة.. أنا لسه دافعة درس أشرف والفلوس معايا مش كفاية.

فسكتت المسكينة تأدبا، أو تعاطفا، وأعادت كتبها إلى حيث كانت.. هي الآن في الصف قبل الأخير من الثانوي التجاري، وأخوها في العام الأخير من الثانوي الصناعي.. لا أكاد أصدق أنهما وصلا لهذه المرحلة من التعليم، ولم يبق إلا عام واحد فقط لأرتاح من عبء الدروس الخصوصية إلى الأبد، لعن الله من أبدعها، بسببها عشنا ومازلنا نعيش حياة الكفاف، لدرجة أن فكرت أن أطلب وساطة بدرية لأعود أعمل على الأسانسير وعربة نقل المرضى، لكن نفسي لم تطاوعني، فالثمن قد يكون باهظا.. الزواج بالدكتور شاكر.. وكم أبغض ذلك الرجل.

ثم أجبرتني نسمة أن أترك الفيلم نهائيا وأسرح أراقبها وهي تذاكر وحدها.. ياه.. كم كبرت وصارت فتاة جميلة! كيف لم أنتبه إلى أن خراط

البنات خرطها مبكرا هكذا، لتبدو مشروع أنثى فاتنة يشار إليها بالبنان في القريب العاجل، وربما تصبح أمنية عرسان دمياط كلها؟!

لكني شعرت فجأة بالخوف عليها؛ إنها ورثت عني الجمال والأنوثة الفياضة.. بالذات الأنوثة الفياضة.. بل هي فاقتني فيها، أيضا خفت عليها أنها ورثت عني حُسن النية وسلامة الطوية، كانت حقا مثل النسمة، بسرعة تمنح ثقتها للآخرين، ثم تقع في حيص بيص إذا ثبت لها العكس.

عكس أشرف الذي ورث عن أبيه الصفات الذكورية الحادة، النزق أحيانا والإسرار والكتمان دائما، وبعض الطباع القاسية التي لا تظهر إلا في وقتها، لكن أسوأ ما ورث أشرف عن أبيه، كان المرض واعتلال الصحة، وهو ما يمثل لي قمة الألم والعذاب النفسي.. نشأ أشرف مريض الصدر كأبيه وجدته، يعاني مثلهما منذ طفولته نوعا من الربو المزمن، وللأسف أهملت علاجه من البداية، لا أدري هل بسبب ضيق ذات اليد، أم لأنني صدقتهم، أنه كلما كبر انحسر المرض عن صدره، لكن ما حدث هو العكس، تمكن منه المرض حتى صار مزمنًا، ولولا المستشفى حيث أعمل، لتحولت نفقات علاجه لعبء آخر أشد من عبء الدروس الخصوصية.

منذ نقلوني لنظافة المراحيض وأنا لا أرى الدكتور شاكِر، إلا نادرا، أراه من بعيد وأحرص على ألا يراني، أما زوجته أم يحيى، فلم أعد أراها مطلقا، وكنت أود ألا أراها أبدا، فهي التي أمرت بنقلي للمراحيض عقابا لي على رفضي الانضمام إلى حظيرة نساء زوجها، وربما لو عادت تراني، لا تتورع عن أن تطردني نهائيا من المستشفى.

حتى جاء يوم اشتدت فيه أزمة الصدر بأشرف، وكان لزاماً أن أسعفه ببعض الأدوية غالية الثمن.. هو كان يحتاج هذه الأدوية على فترات متباعدة وكلما اقتضت الحاجة.. سابقاً كنت أحصل عليها من أدوية صدقات المستشفى، وبعد استيفاء شروط صرفها وأهمها أن يرى الدكتور شاكر الحالة بنفسه.

لكن الآن كيف وقد رفضت الزواج به؟

ولكن قلت لنفسي لا بأس، هو مقدور عليه، فلن أعدم مبرراً يقنعه لماذا رفضته، كما أن صحة ابني تستحق أن أفعل من أجلها أي شيء.. أما زوجته أم يحيى فهي التي يجب ألا تراني، فرويتها لي غير مأمونة العواقب.

لذلك ولمدة يومين، لم أكف عن مراقبة حجرة الدكتور خلصة، لعلها تخلو لحظات من الزوجة الخاطبة، لكن لم يحدث، دائماً ألمح الجسد الممتلئ المغطى بالسواد قابعا فيها، حتى اضطررت عندما اشتدت الأزمة بابني، أن أصارح زميلتي المقربة، فاعترتها الدهشة وهي تقول:

- أم يحيى مين؟

- جرى لك إيه يا مجنونة؟ أم يحيى الخاطبة.. مرات الدكتور شاكر.

وإذا بها تنفجر في الضحك قائلة:

- قصدك ع المنقبة اللي بتقعد معاه دلوقت؟

- أيوه يا مخبولة.

عادت تضحك وتقول:

- ده انتي اللي مجنونة ومجنولة.

- ليه؟

- أم يحبى سابت المستشفى من زمان.

- إيه؟ سابت المستشفى؟

- أيوه.. الدكتور شاكر طلقها.. والي بتقعد معاه دلوقت واحدة
تانية خالص.. بس برضه مراته.

- بس دي شبه أم يحبى تمام.. نفس الجسم والهيئة وكل حاجة.

- ماهو الدكتور بيحب المقاس ده.. العريض من فوق ومن تحت.

وانفجرت تقهقه!

- ويا ترى اسمها إيه؟

- أم جهاد.

رباه! كل هذه المدة وأنا أظن بامرأة أنها امرأة أخرى!

وفورا دخلت للدكتور، الذي فوجئ بي، وفوجئت أنا بحملقته في
وجهي مشدوها، كأنه يراني أول مرة، حتى إنه صاح متعجبا لا يصدق:

- إيه ده؟ إنتي رجعتي؟

رباه! هل كان الرجل يعتقد أنني تركت المستشفى؟

وفورا خنت تفسيراً، أن المدعوة أم يحبى وحفاظاً على مشاعره، لم
تخبره برفض الزواج به، لكنها ادعت له بالكذب سبباً ما جعله ينفر

مني، ثم أبعدتني عن مجال رؤيته.. إلى المراحيض.. حتى يظن أنني تركت المستشفى.. وفعلًا عاد يسألني:

- ليه سبتي المستشفى يا مهرة؟

- هه.. ظروف.. ظروف يا سعادة البيه.

- ورجعتي إمتي؟

- من.. من حوالي أسبوع كده.

- وليه ماكتتش باشوفك؟

- عشان باشتغل في نضافة الحمامات.

- الحمامات؟ لا لا.. إنتي من بكرة مسؤولة عن نضافة مكنتي.

وخيل لي أن ومضة لمعت في عين المنتقبة التي تجلس بجواره.. زوجته الجديدة أم جهاد.. التي منذ دخلت له لم تكف عن النظر لي شذراء، وألح في عينيها ما تفهمه النساء جيدًا.. الغيرة.. حتى إنها قامت تغادر الحجرة غاضبة، ولم أهتم لأنني كنت في قمة سعادتي! فمعنى أن أعمل بمكتب الدكتور أن راتبي سيعود يرتفع، وبالتالي لن أحمل بعد الآن هم نفقات علاج أشرف، ولا الدروس الخصوصية، بجانب العتق من مشقة وغثيان تنظيف المراحيض.

ولكن داخلني خوف شديد أن يكرر الدكتور عرض الزواج، فعاقبة الرفض هذه المرة قد لا تكون النقل أو حتى الطرد، أسمع أنهم الآن يلفقون التهم لمن ترفض! رغم إحساسي أنها مبالغة من المبالغات المعتادة لزميلتي المقربة.

لكن يبدو أن الأيام بالفعل كانت تريد أن تصالحني.

وأول المصالحة.. أن الشقة عادت تخلو لي.

عادل بعد فعلته معي، لم يعد يجرو أن ينظر في وجهي، غالباً شعر في قرارة نفسه أنه أساء للمرحوم أخيه في شخصي، حتى صار حني ذات يوم في لحظة صفاء مستغربة، بأنه التحق بورشة حفر على الخشب، وبأن صاحبها وثق به بعدما لمس كفاءته واجتهاده، فعرض عليه أن يزوجه شقيقته المطلقة، بشرط أن يعيش بها في شقتها البعيدة نسبياً عن عزبة البرج.. وفي البداية لم أصدق.. خشيت أن يكون كاذباً كالعادة، لكن الحقيقة الحلوة أنه كان صادقاً، إذ جاءني بعد أيام يرجوني أن أذهب معه لنخبط تلك المطلقة.. وقد كان.. وأسابع ودخل بها!

أما الدكتور شاكر، فقد أصدر أوامره بأن يكون مجال عملي مكتبه فقط، أنظفه وأقدم المشروبات له ولضيوفه، وأخذ يجزل لي العطاء، بمناسبة ومن دون مناسبة، فتمكنت من إعادة طلاء الشقة، نعم بطلاء متواضع رخيص، لكنه أضفى عليها بهجة كنت محرومة منها، ثم غيرت أثاثها بالكامل، نعم بأثاث قديم مستعمل، لكنه أضفى عليها لمسة جمال دغدغتني! كما أن الدكتور شاكر بعد مدة أمرني ألا أضع البرقع على وجهي، ثم فاجأني بزي غير زي المستشفى لأرتديه في أثناء العمل.. زي مختلف تماماً!

وأغرقتني الدنيا في حلواتها.

* * *

ولكن صدق من قال إن الدنيا إذا حَلَّتْ أو حَلَّت!

بدأ سلوك الدكتور شاكر تجاهي يتغير!

طبعاً كنت أتوقعه وأعرف جيداً ما وراءه، فقط هو لم يغيره من أول يوم، بل أخره أياماً لكي آمن له، كان بمجرد أن التحقت بمكتبه، قد أمر زوجته الجديدة أم جهاد أن تلزم البيت، رغم حاجة المستشفى لتخصصها النادر وهو جراحة العيون! ثم أمرني ألا أنظف المكتب إلا في وجوده، لا قبل حضوره ولا بعد انصرافه! حتى فوجئت به يوماً يسألني متوتراً:

- مهرة.. إنتي صحيح قبل المرحوم جوزك.. كتي متجوزة ثلاثة..
و.. والثلاثة ماتوا؟

- كلام إيه ده يا سعادة البيه؟ أنا عمري ما اتجوزت غير المرحوم حسن.. هو كان جوزي الوحيد الله يرحمه.

ثم سألته متحفزة:

- ليه حضرتك بتقول كده؟

فلم يرد.. فقط هز رأسه يهمس لنفسه (يعني أم يحبى كانت بتكذب)..
لكني سمعته.. وفورا فهمت.. فهمت ما تفهمه أية امرأة..

الملعونة أم يحبى لم تجد ما ينفر الدكتور مني، إلا أن تلقي في روعه أنني امرأة شؤم.. امرأة نحس على كل من أتزوجه.. أي رجل أتزوجه لا بد أن يموت!

ولم أبال بالدكتور وانصرفت لعملي، فلم يهتم! لأنه ببساطة كان في قمة سعادته!

لكن في الأيام التالية، لاحظت أنه يراقبني خلسة في أثناء العمل، وحسبما علمني الزمن، تعمدت أيضا أن أراقبه خلسة، وكنت أشعر بالشفقة له وأنا أراه يكابد نفسه حتى لا أنتبه إلى أنه يراقبني، وكنت أشعر بالشفقة له أكثر عندما يشعر أنني انتبهت، فساعتها كان يكابد نفسه ليمثل أنه طبيعي!

حتى حدث يوما أن كنت منحنية في وضع ما بسبب ظروف التنظيف، حين رصد راداري الأنثوي أن الدكتور المبجل يقف خلفي تماما، فاعتدلت فجأة أنظر إليه.. عن عمد لكي أخرجه.. وفعلا لم يستطع التمثيل، فقال يداري حرجه:

- ها.. مبسوطه من الشغل هنا يا مهرة؟

- الحمد لله يا به.

لكن يبدو أنه قرر أن يدع الحرج جانبا ويمضي قُدما لمأربه، إذ فجأة اقترب مني وتبدلت ملامحه، فأسرعت من خوفي أقف بحيث يكون أحد المقاعد الضخمة حائلا بيني وبينه، لكنه أزاحه بسهولة وواصل اقترابه يقول بصوت متهدج:

- تتجوزيني يا مهرة؟

- إيه؟ أتجوزك؟

- أيوه تتجوزيني!

- يا بيه أنا مش قد المقام.

- بالعكس.. إنتي مقامك عالي قوي يا ماهرة.

- يا بيه أنا مش بتاعة جواز.. أنا ست غلبانة وعندي عيال عايزة اربيهم.

- ماهو لما تتجوزيني مش ح تبقى غلبانة.. وعيالك ح يتربوا أحسن تربية.

وأبدا لم يستوعب ذهني، أن هذا الكائن يمكن لجسده المقزز أن يعتلي جسدي يوما، فقط لمجرد أنه زوجي، لذا قررت الفرار، لكنه لحقني كالوحش يتبع فريسته، فتوسلت له:

- يا بيه أنا في عرضك.. سيبني في حالي لوجه الله.. أنا بالذات ما انفعكش.

- ليه؟

- ولادي كبار مش صغيرين.. مش ممكن ح يحبوك وفي نفس الوقت ح يكرهوني.. ده غير معاشي اللي ح ينقطع.

- خلاص.. نتجوز جواز المسيار.

- جواز إيه؟

- جواز المسيار.

- يعني إيه؟

- يعني كل واحد مع نفسه.. ونتقابل بس لما نشتاقل لبعض.

وشعرت أن بدرية هي التي تتكلم.

حتى انفتح الباب علينا فجأة..

إنها الدكتورة أم أسامة..

الدكتورة أم أسامة مسؤولة قسم التحاليل بالمستشفى، مطلقة والهمسات تتداول أنها تبذل نفسها وكرامتها كي يرضى الدكتور ويتزوجها، لكنه يرفضها لنحافتها المفرطة، أي لنوع قوامها الذي لا يحبه، ويبدو أنها كانت تراقبنا من مدة، أو لديها إحساس بأن علاقة ما تربطنا، وحاول الدكتور تمثيل أنه طبيعي، لكن المحاولة لم تنطلي على الدكتورة العاشقة، لأنها استمرت تنظر لنا شامته، حتى رمتنا بنظرة احتقار أخيرة قبل أن تنصرف.

وعندما حكيت لمستودع أسراري، زميلتي المقربة، لم تعلق إلا بقولها ساخرة:

- عرفتني ليه بقى عم الدكتور بيحب يلبس الجلاية؟

وقهقهت كما لم تقهقه من قبل.

لكن لم أشاركها، كنت أفكر خائفة في نهايتي، هل ستكون هذه المرة النقل أم الطرد، أم تليفق تهمة؟ ولم يذهب خوفي إلا في الغد حين اتصلت بي بدرية:

- مهرة.. إيه رأيك في الدكتور شاكر؟

- من ناحية؟

- من ناحية إنك تتجوزيه.

يا للرجل.. ها هو يطلب وساطة الحاج فهمي!

- بدرية.. أنا قلت لك قبل كده مليون مرة.. عمري ما ح اجيب
لأشرف ونسمة جوز أم.

- يا عبيطة.. إتجوزيه ولو عرفي.

- عرفي وللا مسيار؟ يا.. يا ست بدرية.

- يا عبيطة ما هو كله جواز.

- بدرية.. لو ماسكتيش ح اقفل التليفون.

- خلاص خلاص.. أنا عارفة من الأول إنك مش ح توافقني.

- ولو سمحتي يا بدرية.. ماتفتحيش معايا حوار الجواز ده تاني أبدا.

- حاضر.

- وكمان ليا طلب.

- تحت أمرك يا حبيبتني.

- مش عايزاهم يطردوني.. أو.. أو يلفقوا لي تهمة.

- مفيش جنس مخلوق يقدر يمس شعرة منك.

ثم كالعادة لم تنس بمكرها الموضوع إياه:

- إيه أخبار علاء؟

- يووه يا بدرية.. سي علاء لسه برة، وعشان ترتاحي، أول ما ينزل
أجازة ح اقول لك.

وضغطت زر إنهاء المكالمات.

وإن تبادر لذهني سؤال: هل بدرية بإحساس الأنثى.. تشعر أنني
أفكر في علاء!

* * *

لم يطردوني.. طردوا الدكتورة أم أسامة!

ثم حدث ما لم أتوقعه، وإن أثلج صدري!

يوما وفي أثناء ساعة الراحة، جلست أتسامر مع زميلتي المقربة،
أخفي الجد في الهزل وأنا أسألها سؤالاً كان يلح على ذهني منذ عملت
بالمستشفى:

- إيه حكاية أبو فلان وأم فلانة اللي منتشرة في المستشفى؟

- قصدك الكُنية؟

- بالظبط.. يعني إيه بقى الكُنية؟

- يعني ينادوكي بإسم غير إسمك.. مثلا إنتي اسمك مهرة..
فينادوكي مثلا أم عباس.

وانطلقت في الضحك!

- أنا إبني اسمه أشرف وبنتي اسمها نسمة.

- يبقى ينادوكي أم أشرف أو أم نسمة.. أو تختاري أو يختاروا لك
كنية بعيد عن إسم ولادك.. صفة فيكي مثلا أو خصلة كويسة.. أم
السعد مثلا أو أم الخير.

- وإيه الحكمة من كده؟

- السلفية يقولوا انها سُنَّة.

- طيب كُنية الدكتور شاكر إيه؟

- أبو عبيدة.

- آه.. وده بقى اسم بنته وللا ابنه؟

- ولا بنته ولا ابنه.. ده إسم واحد من الصحابة.

- عايزة الصراحة؟ المفروض ينادوه أبو كرش.

وانفجرنا في الضحك، حتى سألتها:

- وإنتي كُنتك إيه؟

- زي ما بينادوني.. أم أحمد.. إبني ربنا يخليهولي.

- يا رب.

ثم قلت:

- طيب أنا عايزاكي تختاري لي كُنية.. بس بعيد عن إسم ولادي..

تختاري لي إيه؟

أعرف مدى خبثها ومكرها، إذ أخذت تتفحصني من فوق لتحت،
ثم طلبت أن أستدير، ثم ضربت مؤخرتي تقول بضحكة مكتومة:

- أم (.....).

- آه يا مجرمة يا قليلة الأدب.

وثانية انفجرنا في الضحك.

حتى فوجئنا بالشرطة تفتح المستشفى!

صعدوا المكتب الدكتور شاكرا، ثم اقتادوه وبعض الأطباء ووضعوهم
داخل البوكس، ثم قامت النيابة بتشميع حجرة العمليات والتحفظ
عليها.. في البداية حسبناه بلاغا عن تلوث الحجرة، أو وفاة أحد بداخلها
بالخطأ، لكن في الحال عرفنا الحقيقة، أن مستشفى التوحيد الإسلامي،
لصاحبها ومديرها الدكتور شاكرا وشركاه، والمكّنّى بأبي عبيدة، هو
أكبر مركز في شمال الدلتا لإجراء عمليات الإجهاض وترقيع غشاء
البكارة، وأن جميع أقسام المستشفى ما هي إلا ستار لنشاط المستشفى
الحقيقي والرئيسي.. ألا وهو الإجهاض والترقيع.

وتولت إدارة المستشفى لجنة من بعض مساهميها تحت إشراف
الحكومة، ولم يحدث أي تغيير جوهري، فقط لم يعد النقاب أو اللحية
من شروط العمل بالمستشفى.

وبعدها عرفنا أن الدكتور شاكرا قال مدافعا عن نفسه في التحقيقات،
إنه كان يقوم بما يقوم به من عمليات قدرة، فقط من باب حرصه على
ستر بنات المسلمين! مدعيا أن الساقطة حين تعيش مع رجل غافل
متنكرة في صورة شريفة، هو أفضل من أن تعيش مفضوحة فيكون

سببا لتتحول إلى ساقطة! وأن تعيش الساقطة شريفة في نظر الناس،
لهو أفضل بالطبع من أن تعيش بينهم مفضوحة!

وأیضا لم أصدق هذا الشذوذ.

وإن أعادوني ثانية لأنظف مراحيض المستشفى.

لتعود ثانية أيام القحط.

* * *

حتى ذهبت يوما أزور خالة المرحوم حسن، ووجدت سلوى معها
تجري لها تمرينات العلاج الطبيعي لساقها، وكالعادة.. كلما زرت السيدة
ووجدت سلوى عندها، أسألها بمكر السؤال المقصود مغلفا بالسؤال
غير المقصود:

- مفيش أخبار عن جوزك يا سلوى؟

وهذه المرة أجابت:

- اتصل وقال انه مش ح ينزل دلوقت.. علاء هو اللي ح ينزل..
وح ينزل نهائي.

يا الله!

علاء سينزل؟ ونهائيا؟

وتجاوزت كياني الذي تلخبط، وعدت أسألها متصنعة الدهشة:

- ح ينزل نهائي ليه؟

- والله ما اعرف.. بس انا حاسة ان فيه مشاكل بينه وبين الكفيل هناك.

- وإمتى ح ينزل؟

- الخميس الجاي.

- بالسلامة ان شاء الله.

ثم لذت بالصمت.

وبدأت لخبطة كياني تنسحب، لتحل محلها أحاسيس لذيدة، أيضا لها نفس لذة أحاسيس فترة المراهقة، النشوة المختلطة بخدر غامض يسري في الجسد، مع فرحة غامضة تدغدغ خلاياه، وإن كانت فرحتي الآن ليست غامضة، بل مبعثها هو أنني بعد أيام قليلة سأرى علاء.. بل وسأراه دائما!

ثم تخدر جسدي حقيقة لا مجازا!

ولكن في معرض كلام سلوى مع أمها، انسحب الخدر من جسدي وكدت أموت دهشة، عندما فهمت منها أن علاء بعد إجازته الأولى التي رأيته فيها، قد نزل عدة مرات! ودون أن أشعر! إذ إنه في كل مرة كان ينزل فجأة ويعود فجأة.. وطبعا هذه الـ(فجأة) بالنسبة لي أنا فقط!

رباه.. لماذا لم تكن تخبرني بنزول أخيها؟

وأیضا لماذا لم تخبرني أمها؟

ولم أشأ أن أسألها.. رأيت أن أختلي بسلوى وحدها وأستدرجها

بمكر، وفعلا، لكن هذه المرة كدت أموت قهرا عندما صرحت بلسانها بأن علاء في كل مرة نزل فيها، كان يطلب منها أن تبذلني سلامه، لكنها كانت تنسى على حد قولها! بل والأدهى أنه في آخر إجازة طلب منها رقم هاتفي! لكنها أيضا نسيت أن تعطيه له، أيضا على حد قولها! وإن لم أصدقها في هذه بالذات.

وتذكرت!

في أثناء غياب علاء، وعلى مر عدة زيارات لوالدته، كان الكلام يتناثر أمامي عن أنها وسلوى ترشحان له فتيات للزواج، وكانت معايير المفاضلة بينهن هي الجمال وسمعة العائلة والبركة، وعند حديثهما في أمر البركة بالذات، كان كلامهما يأخذ شكل الهمس مع نظرة أو نظرات تجاهي، وكنت لا أهتم، ربما لأنني وقتها أكون مشغولة بشيطاني يوسف: لماذا لا تكونين ضمن المرشحات حتى ولو لم تكوني بكرا؟ ودائما فتاة بعينها كانت هي المرشحة.. بكر وجميلة ومن عائلة.

تُرى.. هل يكون علاء أَلَحَّ لهما يوما عني؟

وحتى الخميس المنتظر، موعد عودة علاء، لم أكف عن الحملقة في المرأة، أو بالأصح في ملابسها السوداء، تراودني فكرة أن أخلعها، قائلة لنفسني: أليست السنوات التي مرت وأنا أرتديها كافية جدا للتعبير عن الحزن؟ ثم.. ثم لا يجب أن يكون اللون الأسود هو قدرتي الذي أكتبه على نفسي.

لكنني ترددت أن أخلعها.. خفت من كلام الناس!

حتى جاء مساء الخميس، فسولت لي نفسي أن أخلعها على سبيل التجربة.. فخلعتها.. ثم ارتديت أفضل ما يبرز جمالي وفتنتي، وأطلقت شعري هائماً كما كنت أفعل أيام قطور، وتصادف دخول نسمة، التي فاجأها منظري، فهي منذ طفولتها المبكرة لا تراني إلا بالأسود، لذا قالت مبهورة:

- إيه ده كله يا ست ماما؟ ده احنا بقينا حلوين قوي!

- بجد يا نسمة؟ مامتك حلوة؟

- زي القمر.

- كنت باجرّب اقلع الأسود.

- وليه تجربي؟ إقلعيه على طول.

- ووجدتني أضمرها وأقبلها.

- ولكني فضلت أن أذهب أرى علاء مساء الجمعة.

- يكون ارتاح واسترد لياقته.

وآه من وهم الهروب من الحقيقة، وأنا أغادر منزلي كأنني لست ذاهبة لوالدة علاء، بينما أنا في الحقيقة ذاهبة إليها بروحي وكياني، بل وأفكر مضطربة: كيف ستراني من دون الملابس السوداء، رغم أنها تحثني دائماً لأخلعها؟ وفعلاً حملت السيدة للحظات في فستاني الزهري، ثم ابتسمت تقول:

- أيوه كده يا بنتي.. الحزن في القلب مش في الهدوم.

ومع ذلك شعرت بشيء من الخجل، فشغلت نفسي أمسح المكان بعيني، لعلني أرى ما يدل على عودة علاء فأكفي نفسي حرج السؤال عنه، لكن لم يكن إلا سلوى التي جاءت قبلي بثوان، وهممت أن أسألها، لكن منعني صوت مفتاح يدور في كالون الباب..

ودخل علاء..

وهذه المرة كم غيرته السنون!

بدا كما لو أنه ازداد بسطة في الجسم، مع شارب كثيف غير ملامحه تماما، لكن المفاجأة كانت تسريحته، لم تعد مستفزة، لأنها ببساطة اختفت بفعل صلح خفيف بدأ يغزو رأسه، أما نظراته، فبسبب توعك عينيه كما قال، كان يضع عليها نظارة سوداء، وجاء يصافحني وهو في غاية التوتر، ليس توتر اللقاء بعد طول غياب، لكنه التوتر الذي أعرفه من سوابقه معي، والحقيقة لم أكن أقل منه توترا، ومن أوهها بانث القصيدة، ضغطة يده أشعلتني لأصبح كالأتون، ولعلها لم تكن ضغطة وأنا التي شعرت بها كذلك! أو لعلني كنت أريدها كذلك! ثم ذهب متعمدا يختار مجلسه بعناية، في مواجهتي وبحيث لا تراه أمه.. ثم خلع نظارته.

أيتها الأقدار.. ماذا تخبئين لي؟

* * *

وعادت زياراتي لأمه تصبح يومية!

أضبط موعدها ليتوافق مع طقوسه التي حفظتها جيدا، في تمام السادسة مساء تكون سلوى لا تزال ترعى شؤون بيتها، ويكون هو

قد عاد من عمله وتناول غداءه وارتاح قليلا. هو عاد يعمل بشركة الدهانات، عادة لحظة وصولي يكون ما زال في نوم القيلولة، لكنه يصحو بمجرد أن يسمع صوتي، يعلن عن نفسه بنحنة بسيطة وهو في طريقه للحمام، يغتسل ثم يأتي يختار مجلسه بعناية، في مواجهتي وبحيث لا تراه أمه، ويظل يتابع حديثي معها باهتمام، من بعيد كالعادة ولا يشاركنا فيه.

ونظراته!

نعم لم تعد بوقاحة نظرات زمان، لكنها تظل كعهدي بها، جريئة ويمكن تفسيرها بألف معنى ومعنى، ولكن الكارثة الآن، أن النار التي تشعلها النظرات بداخلي، ها هي تعطب بوصلة مشاعري! فالآن لم أعد أدري، هل أنا أكره هذه النظرات ولا أريدها؟ أم أكرهها لكن أريدها؟ أم أحبها لكن لا أريدها؟ أم أحبها وأريدها.. بل وأعشقها؟ وعلى أية حال.. في بيتي وكل ليلة وحين أريد أن أنام.. لا أنام!

لماذا لا يتزوج علاء؟

هكذا سألت أمه يوما كأنني أسأله عفوًا، فنظرت لي طويلا قبل أن تتساءل شاردة:

- هه.. بتقولي إيه يا بنتي؟ علاء يتجوز؟

- أيوه يا خالتي.

وبعد صمت برهة عادت تقول بنفس الشroud:

- علاء يا بنتي محتار ومحيرنا معاه.. مفيش ولا واحدة عاجباه.

- ليه يا خالتي؟ ده حتى البنات الحلوين أكثر من الهم ع القلب.
- لكن تقولي إيه؟ مرة يقول دي سمرة.. ومرة دي بيضا.. دي طويلة ودي قصيرة.. دي تخينة ودي رفيعة.. لحد ما غلبنا معاه.
- يمكن يا خالتي عايزها...
- وجاء علاء، فإذا بالسيدة تغير الحديث فوراً:
- وأخبار شغللك إيه يا ماهرة يا بنتي؟
- والله يا خالتي زي ما انا.
- وبمجرد أن أخذ علاء مجلسه المعتاد، تساءل بدهشة:
- إيه ده؟ إنتي بتشتغلي يا مدام ماهرة؟
- أيوه.
- فين؟
- في مستشفى التوحيد.
- ممرضة؟
- لأ.. في النظافة.

ولم أستطع تمييز التعبيرات التي ارتسمت على وجهه لحظتها، هل هي تعبيرات الدهشة أم الشفقة، وقبل أن يعلق عادت أمه تغير الحديث:

- ولادك عاملين إيه في المدرسة؟ أشرف ونسمة في سنة كام دلوقت؟

- الاتنين دبلوم السنة دي.. بس أشرف صنايع ونسمة تجارة.

- الله! هو أشرف مش أكبر من نسمة؟

- ماهو سقط وهي حصلته.

- وعاملة إيه معاهم في الدروس الخصوصية؟

- والله قاسمة وسطي يا خالتي.. وباقول إمتى الدراسة تخلص
عشان أرتاح من همها.

وهنا قال علاء:

- هما ولادك بياخدوا دروس؟

- أيوه يا أستاذ علاء.

- في مواد إيه؟

- في العربي والإنجليزي والرياضة.

- خلاص.. مستعد أديهم دروس في المواد دي.

آه.. ها هو المغامر يخطط ليغزو قلعتي!

تلك التي لم يدخلها أحد منذ وفاة حسن.

هناك أحاسيس تحبها كل البنات، لكن لا تجربها كل البنات، منها
ذلك الإحساس الرائع الذي ينتاب البنت حين يتقدم لها عريس غفلة،
وهو الإحساس الذي لم أجربه للأسف مع حسن، فهو لم يكن عريس
غفلة، ولن أجربه مستقبلاً، فأنا الآن امرأة لا بنت، بل وامرأة لا تفكر

في الزواج، أي أن الفرصة لأجرب هذا الإحساس ذهبت إلى الأبد، لكن ها هي لم تذهب، وها أنا أجرب الإحساس مع علاء، بل وبنفس إحساس المراهقات، وآه من الأحاسيس التي لا تجربها المراهقة وهي مراهقة، ثم تأتي الفرصة لتجربها وهي ناضجة، لذلك هتفت في نفسي: لا داعي للغزو أيها المغامر.. بل وسأكفيك عناء المغامرة.. سأفتح لك ثغر قلعتي بنفسي.. وعلى مصراعيه.. سأقول لك:

- بجد يا أستاذ علاء؟ تحب نبتدي من إمتي؟

- من بكرة لو تحبي.

- اتفقنا.

وهتفت به أمه:

- والله ينوبك ثواب يا علاء يا ابني.

- ده أقل واجب يا ماما.

وابتسم لي ابتسامة رائعة، فابتسمت له أروع منها، ثم قام ينظر في ساعته ويقول:

- عايزة حاجة يا ماما؟ أنا رايح للمحامي.. ادعي لي يا ماما ربنا ينصرنى على مراتي.

وخرقت كلمة (مراتي) أذني!

وأيضاً أزعجت الكلمة السيدة!

يا إلهي.. هل علاء متزوج؟ كيف؟

ألم تصرح السيدة منذ لحظات، بأن الاختيار هو مشكلته في الزواج!
ألم تقل إن لا فتاة تعجبه! فكيف يطلب منها أن تدعو له أن ينصره الله
على زوجته؟ لماذا تعتمد السيدة أن تخفي أن ابنها متزوج؟ لماذا هو يعلن
وهي تخفي؟ لماذا؟!

حتى كدت أجن!

ولم تفلح الابتسامات التي تبادلتها مع علاء وهو ينصرف، في أن
تبدد التساؤلات التي كانت تتصارع على وجهي، والتي يبدو أن أمه
كانت تلاحظها جيدا، حتى إنها اضطرت أن تفسر:

- رايح للمحامي الي ماسك قضية مراته.. الي بإذن الله ح تكون
طليقته.

يا إلهي.. طليقته!

لكني تساءلت للسيدة بمنتهى اللامبالاة:

- إيه ده يا خالتي؟ هو علاء متجوز؟

- جوازة الندامة بعيد عنك.

- ليه كفى الله الشر؟ إمتى ده حصل؟

- في أجازة من أجازاته خطبها وكتب عليها وخذها وسافر.. وهناك
مارتاحوش مع بعض.. قامت الملعونة سابته ونزلت.. ومن ساعتها
وهما في مشاكل ومحاكم.

- مش دي يا خالتي الي كنتي بتقولي انها حلوة وبنت بنوت ومن
عيلة؟

- هي يا بنتي .

ولم أشأ أن أخوض معها في تفاصيل، أو أسألها عن سبب عودة ابنها فجأة من سفره، السبب الذي كنت أتوق حقا لمعرفة، فهناك وهو في بيتي، حتما سأعرف منه كل شيء .

وفي البيت وهربا من إحساس الحيرة والغيرة، شغلت نفسي أفكر في أشياء كانت تهمني فعلا.. مثلا حين يأتي علاء ليعطي الدروس، أين سأضع المنضدة التي سيشرح عليها؟ كي يكون على راحته! وما لون المفروش الذي سيكون عليها؟ وما المنظر المناسب أمامه على الحائط الذي يجب أن يقع بصره عليه؟ وأشياء أخرى هكذا..

وفورا شرعت في الترتيبات وأنا أزف الخبر لأشرف ونسمة، ففرحت نسمة، أما أشرف فقد امتعض قائلا:

- علاء؟ أوووف .

- عيب يا أشرف.. وبعدين اسمه الأستاذ علاء، مش علاء .

- حاضر يا ست ماما.. الأستاذ علاء.. بس بصراحة الأستاذ علاء ده.. أنا مابحبوش .

- ليه؟

- عشان مرة واحنا عندهم.. كان عمّال يبص لك قوي .

ياه.. لهذه الدرجة كبر أشرف!

- بلاش قلة أدب يا واد.. واعمل حسابك انت واختك انه ح بيتدي معاكم الدروس من بكرة .

وفي الغد وفي الميعاد، جاء علاء، جاء متأقًا متعطرا، لكنه جلس متحفظا على طرف المقعد، فهذه أول مرة يدخل بيتي، وكنت مثله متأقًا متعطرة، وحاسرة الرأس إلا من شريط حريري أبيض يفرق شعري فاحم السواد، وأرتدي فستانا لم أرتده منذ المرحوم حسن، وبعد تبادل كلمات الترحيب المعتادة، لم يكن بيننا إلا تبادل النظرات والابتسامات، حتى جاءت نسمة تسلم عليه:

- أهلا عمو علاء.

- أهلا أهلا بعروستي الحلوة.

ثم سألها ملاطفا:

- يا ترى عروستي في سنة كام؟

- تالته دبلوم تجارة.

وقبل أن يعلق جاء أشرف، وسلم عليه ابني من دون مصافحة، ثم جلس ينظر له متحفزا، فأراد علاء أن يلاطفه مثل أخته:

- في سنة كام يا أشرف؟

- تالته.

- تالته إيه؟

- دبلوم.

- دبلوم إيه؟

فلم يرّد، فرددت أنا:

- دبلوم صنایع.

ثم أمرته وأخته أن يستعدا للدرس، ثم سألت علاء:

- تشرب إيه يا أستاذ علاء؟

- ولا حاجة.

- لا.. القعدة هنا بالمشروب.

وضحكنا جميعا إلا أشرف، وطلب علاء شايًا، ثم اندمج يشرح للاثنين درس العربي المشترك، وذهبت أجلس بعيدا عنهم مرغمة، فمن داخلي كنت أريد أن أجلس معهم، لكن اللياقة طبعًا تقتضي أن أتركهم وحدهم، ولكن من فرط ضيق الشقة، رأيت أنه لو ذهبت وجلست في غرفة نومي ولم أغلق بابها، فكأنني أجلس معهم تمامًا، ففعلت، وجلست أدعي الاندماج في مشاهدة التلفزيون، وفي الحقيقة كنت مندججة في متابعتهم، موهمة نفسي أنهم ربما يحتاجون شيئًا.

ولكن ما أشد دهشتي، أن علاء لم ينظر ناحيتي مطلقًا! وانتظرته طويلا أن ينظر، فلم ينظر، ومر الوقت وهو مندمج في الدرس، واستمر هكذا حتى كدت أجن.

رباه.. ألهذه الدرجة أحب نظراته؟ وأريدها؟

إلى أن عرفت السبب.. علاء بحكم الخبرة، لاحظ أن أشرف يراقبنا، ولكن يراقبنا بسذاجة، فالولد من حين لآخر كان ينقل بصره صراحة بيني وبين علاء، فانتبه علاء، فتعمد بمكر ألا ينظر ناحيتي مطلقًا، حتى اطمأن أشرف.

ومن ناحيتى قررت أن أساعده، أساعد علاء! تعمدت أيضا ألا أنظر ناحيته مطلقا، واندجبت بالفعل في مشاهدة التلفزيون، حتى تأكد أشرف أن بالفعل لا شيء يستحق المراقبة، فكف عنها تماما، وإن عذبتني كثيرا نظرة الحيرة التي كانت تلوح في عينيه البريثتين!

وقررت ألا أخبر بدرية بهذه التطورات أبدا.

* * *

أفرجوا عن الدكتور شاكر بكفالة..

لكنه تحول لإنسان آخر، حلق لحيته وارتدى البذلة الكاملة، وفقد الكثير جدا من وزنه، ومرة أخرى عدت أحرص على أن أراه ولا يراني، هو نفسه كان يحرص على ألا يراه أحد، والحقيقة شعرت تجاهه بنوع من الأسى! نعم.. فرغم كل شيء، ما أشق على النفس أن ترى من كان يوما يتنفس السطوة والجبروت، وهو يتوارى أن يراه الناس منكسرا هكذا.

ولكن ما هي إلا أسابيع قليلة إلا وعاد يختفي! وهذه المرة طال اختفاؤه، حتى لم نعد نسمع عنه نهائيا، وحتى فسرت لي بدرية:

- الدكتور شاكر؟ الحمد لله أهو غار في ستين داهية.

- إيه؟ سجنوه؟

- خد خمسة وعشرين سنة.

- يا خبر! عشان الإجهاض والترقيع؟

- لأ.. اتضح ان مصيبته أكبر من كده.

- إيه؟ تجارة جثث وأعضاء؟

- يا ريت .. سياسة.

- إيه؟ طلع إخوان؟

- إخوان سلفية الله أعلم.. إنتي عارفة اني مافهمش في الحاجات دي.. لكن تصوري إن الحيوان ده كان عايز يورط الحاج معاه؟!

- الحاج فهمي؟

- بس الحاج أنكر صلته بيه وقال ما عرفهوش.. وقدر يثبت للحكومة إن مفيش أي صلة بينهم.

- الحمد لله يا بدرية.. دي كانت تبقى مصيبة.

ثم وبلا مقدمات إذا بي أفتح معها الحديث إياه:

- مفيش جديد عن الحمل؟

- قريب قوي ح تسمعي أخبار حلوة

- إيه؟

- ح احبل تاني.. دلوقت باخد علاج جديد واحتمال يحيب نتيجة.

وتخدر جسدي، ثم زاد وأنا أسألها هامة:

- وطبعاً وليد هو اللي...

- طبعاً.. هو فيه حد غيره؟!

ثم سألتني أيضا هامة:

- وانتني مفيش جديد؟

- قصدك علاء؟

- هو فيه حد غيره؟!

وانطلقنا نضحك بـ... بخلاعة!

وكدت أصارحها بكل شيء، بعودته نهائيا من سفره، وبزواجه الغامض ومشكلاته مع زوجته، وبترده الآن على بيتي، لكن لا أدري لماذا أحجمت في آخر لحظة، بل وأنهيت المكالمة فجأة كأن الاتصال انقطع من نفسه! بل وأغلقت الهاتف نفسه، ثم تمددت على السرير أنتظر موعد علاء.. أقصد موعد الدرس الذي أصبح وشيكًا.

* * *

لكن أشرف لم يكف تماما عن مراقبتي أنا وعلاء.

ولا علاء كف طبعًا عن نظراته!

كان ينجح في أن يصوبها لي بمهارة من وراء ظهر أشرف، ولكن أحيانا ينتبه أشرف، فيعود علاء يلقي في روعه أن لا شيء يستحق المراقبة، حتى كف أشرف في النهاية يأسًا.. ولكن أيضا ليس تمامًا!

أيضا لم يكن يترك فرصة إلا ويعلن عن ضيقه بعلاء، وبالدرس عموما، أيضا كان يود العودة لمدرسه القديم، عكس نسمة، التي سرعان ما ارتاحت لشرح علاء، وانعكس ذلك بالفعل على مستواها الدراسي،

أيضا كانت تستملح مزاحه ومداعباته الطريفة، عكس أشرف الذي لم يجارِه ولا مرة في مزاحه، وكثيرا ما كان يتعمد إحراجَه.

لكن أشرف بدأ شيئا فشيئا يتهرب من الدرس، ثم يغيب عنه مرة بعد مرة، حتى انقطع عنه تماما، في البداية كنت أعنفه، ثم أعاتبه، حتى تركته لا أبالي، ثم تركت التليفزيون وبدأت أدنو رويدا رويدا من مجلس الدرس.. من علاء.

ثم.. ثم بدأت أشاركه النظرات بلا تحفظ!

وإن أوهمت نفسي أنها فقط من باب الشقاوة! تماما كما كنت أفعل أنا وبدرية أيام مراهقتنا في قطور، كنا من باب اللهو بالرغبات الآفلة للرجال العجائز، نهوى مشاغلهم من وقت لآخر بنظرات الهوى، فنستمتع بهم وهم يعيشون لحظات الوهم، وكنا وقتها نسميها شقاوة بنات.

لكنني سرعان ما انتبهت لنفسي، أنني تجاوزت مرحلة المراهقة والشقاوة من زمن، وأن علاء ليس عجوزا ورغباته ليست آفلة، بل هي في أوج تأججها وعنفوانها، وأن مشاركته النظرات في ظل غياب مراقبة أشرف، وفي ظل وجود نسمة الساذجة، هي أولى خطوات الانزلاق نحو الضياع، وأنا لا أخاف في هذه الدنيا إلا الضياع، والآن خوفي منه لا بد أن يكون أشد، فلو وضعت لن أضيع وحدي.. سيضيع معي ولداي.

ولكن.. ما العمل مع نظرات هذا الرجل؟

إنها كالسحر!

يقولون وإن كنت لا أعلم مدى صحته، إن الدجاجة لا تستطيع النظر في عين الصقر، فلو نظرت ستخدرها نظراته، والكارثة أنها لن تستطيع أن تتجنب النظر، ستنظر رغما عنها، رغم علمها أن في النظر هلاكها!

وكننت كالدجاجة وعلاء كالصقر!

حتى اهدتيت لحل ..

أن أهرب من علاء إلى علاء!

نعم.. أليس أفضل مكان للهروب من الشرطة، هو مخفر الشرطة ذاته؟ إذن فلأشارك نسمة وعلاء مجلس الدرس، فبجواره سأكون في مأمن منه، لا سيما أن مشاركته جو الدرس كانت هي رغبتى من البداية، فقط خوفاً من أشرف هو الذي كان يمنعني.

أيضا ما أجمل أن أشارك علاء جو المزاح الذي يخلقه وتعشقه نسمة، هو مغرم باختبارها بالمسائل الصعبة، ثم الضحك منها عندما تعجز عن حلها، وكانت هي تعشق هذا المزاح، وكننت مثلها، لكن أشاركها فيه من بعيد! والآن سأشاركها.. أو سأشاركها من قريب!

وقد كان.. بل وأصبح مزاحنا نحن الثلاثة يثير من الضحك ما أظن أن من بالشارع يسمعه!

ومع الأيام وجدتني أستمري هروبي من علاء إليه!

ولكن يظل سؤال ..

هل يستطيع مجرم من كان.. أن يهرب لمخفر الشرطة إلى الأبد!

* * *

ابتني نسمة تعشق الشعر، وتهوى إلقاء تمثيلا بصوت عالٍ، ويوما
سمعتها تزعق بيت لمن تدعوه شكسير:

الحب أعمى.. والمحبون لا يدرون أية حماقة يرتكبون

ويوما سمعتها تقرأ بانبهار لمن تدعوها غادة السمان:

الحب يخذل الكل.. والموت لا يخذل أحدا.. ليتني أموت

وفي المرتين شعرت بالكلام كأنه لي!

فهل أنا أحب علاء؟

بالقطع لا..

وبالطبع لم تفلح فكرة الهروب لمخفر الشرطة! فقد استطاع علاء
بمكره أن يجعل وقت الدرس كله لي، يعطى نسمة مسائل كثيرة صعبة،
ويطلب منها أن تحلها جميعا بتمهل، ثم يتركها ويلتفت لي، لننطلق في
أحاديث لا تنتهي، مرة يحدثنى عن نفسه، ومرة أحدثه عن نفسي، ولا
ننتبه إلا على نسمة وهي تستوضحه شيئا في المسائل.

وكم حاولت مرارا أن أستدرجه ليحدثني عن زيجته الغامضة، أو
عن سبب عودته من بلد السفر، رغم أن زوج أخته ما زال هناك، لكنه
مطلقا لم يفعل، بل وبدا كأنه يتهرب مني!

وفي نهاية الشهر، فوجئت بالمبلغ الذي توفر لي من وراء دروس
علاء، الآن أستطيع اشتراء اللحم أو الدجاج أو السمك أكثر من مرة
في الأسبوع، وأيضا الموز الذي يحبه أشرف والفراولة التي تعشقها

نسمة، وتقديم العصائر لعلاء كمشروب آخر غير الشاي، وغمرتني السعادة أن الله لو وفق أشرف ونسمة للنجاح في الدبلوم بعد أشهر قليلة، فسيتتهي عبء الدروس الخصوصية إلى الأبد.

ولكن إذا بي أفكر:

بأية حجة بعد الدروس.. سيدخل علاء بيتي!

ولكن منذ متى والمرأة تعدم الحيلة؟

فما إن ظهرت نتيجة الدبلوم ونجح أشرف ونسمة، وقالت لي نسمة وهي تكاد تبكي:

- ماما.. عايزة كمبيوتر زي ياسمين بنت طنط سلوى.

حتى قفز علاء إلى ذهني فوراً!

الكمبيوتر عند ياسمين منذ كانت في الإعدادية، وكانت لا تفتأ تدعو نسمة لتقضي معها الوقت في لعب (الجيمز)، فلا تفتأ نسمة تلح لأشترى لها كمبيوتر مثلها، لكنني كنت أتجاهلها لضيق ذات اليد، لكن الآن ما أسهل أن أدخل في (جمعية) وأقبضها الأول، ثم أشترى جهاز كمبيوتر ولو مستعمل، وطبعاً لن تستخدمه نسمة في لعب الجيمز فقط، بل لا بد ستتدرب عليه لتكتسب مهارات التشغيل والبرامج، وهذه يجيدها علاء.

مرة ثانية.. هل أنا أحب علاء؟

وثانية بالقطع لا..

وعاد علاء يتردد على بيتي بحجة دروس الكمبيوتر، ومن حظه أن أشرف منذ انتهاء الدراسة، وهو منطلق أغلب الوقت مع أصحابه بحجة البحث عن عمل.

* * *

منذ دخل علاء بيتي أول مرة، وأنا أشيع عن عمد بين الجيران أنه ليس فقط مدرس أشرف ونسمة، بل أيضا ابن خالة المرحوم أبيهما، والقائم مقام عمهما، لكنه لم يكن يزورنا بسبب سفره الدائم خارج البلاد.. في الحقيقة كنت أحتاط لكلام الناس والقييل والقال!

وتوالت دروس الكمبيوتر، وكانت درسا كل يومين، الدرس الأول ثم الثاني، وحقا تعلمت نسمة خلاهما الكثير، وفي الثالث فوجئت بعلاء يقول لي:

- إيه رأيك لو تتعلمي الكمبيوتر انتي كمان؟

وانقلب كياني.. ويا للرجل!

المغامر بعد أن فتحت له باب قلعتي بنفسي.. وعلى مصراعيه..

يريد أن أسلمه نفسي كأسيرة حرب!

أعرف أنه لكي يعلمني، لا بد أن أجلس بجواره ملتصقة، وساعتها لن يخلو الأمر من ملامسة، تماما كما كان يمسك يد نسمة ليعلمها مهارات تحريك (الماوس)، بل وأحيانا كان يضربها عمازحا أنها بليدة لا تريد أن تتعلم، لذا قلت وقلبي يخفق، لكن مع ادعاء الدهشة:

- أنا؟ أتعلم الكمبيوتر؟

- أيوه إنتي.. فيها إيه؟

- بعد ما شاب ودوه الكُتَّاب؟

- شاب إيه وكُتَّاب إيه؟ إنتي اللي يشوفك يقول انك أخت نسمة.

وعاد كياني ينقلب.. فهذا أول غزل صريح من علاء.

- أيوه يا أستاذ علاء.. بس...

- مابشش ولا حاجة.. يللا تعالي اقعدي جنبي.

لكن نسمة اعترضت.. كانت في المرحلة الأخيرة من لعبة الباتمان، فقال ممازحا يدفعها لتقوم:

- كفاية يا شاطرة وقومي اعملي لي كوباية شاي.

ورغم أنها لا تفوت فرصة لترد على مزاحه، وأحيانا تتهاذى لدرجة أن أوبخها، استسلمت له هذه المرة قائلة:

- أمرك يا بروفوسير.

وقامت ابنتي لأجلس بجوار علاء، وإذا بالخدر اللذيذ يجتاح جسدي، وكما توقعت، لم يكن يعلمني بقدر ما كان ينظر في عيني! وكنت لا أجد مهربا إلا النظر في شاشة الكمبيوتر، حتى.. حتى لمس يدي أول لمسة، وإذا بي أشعر وكأن تيارا كهربيا بقوة ألف فولت سري بجسدي، متأكدة لو أنني نظرت في مرآة لحظتها، لوجدت وجهي يشتعل باللون الأحمر، وكان ذلك في اللحظة التي جاءت فيها نسمة بالشاي، فقممت من فوري أدعو الله في سري أن تكون ابنتي لم تتبه لشيء، حتى سمعتها تقول لعلاء:

- تسمح تقوم بقى يا برو فوسير يا فاشل .. أهى التلميذة طفشت منك .

فعرفت أنها لم تنتبه، وانتهاز علاء الفرصة، تركها للباتمان وجاء يجلس بجوارى، وفورا اندمجا فى الأحاديث، وطالت بنا وتشعبت، تحدثنا فى كل شىء وعن أى شىء، إلا عن زيجته الغامضة، وعن سبب عودته !

حتى عاد أشرف فجأة، والحقيقة لم يعد فجأة، فقط هو لم يطرق الباب وفتح به بمفتاحه كعادته، لنجده واقفا أمامنا يخلق فينا، وبدا أنه لاحظ شيئا ما علينا، لأنه رمانا بنظرة وهو واجم ثم دخل مخدعي وأغلقه عليه، فاضطر علاء إلى أن يستأذن وينصرف، ولم يكن مستاءً، فقط كان مهتما أن يهمس لي بموعدا المقبل .. أقصد بموعد درسنا المقبل .

* * *

أيام دروس أشرف ونسمة، كثيرا ما كنت أضطر أنا أو علاء إلى أن نرتب مواعيدها بالتليفون، فأتصل به أو يتصل بي، وإذا تصادف وكان الاتصال أمام أشرف، فورا يتغير وجهه، فكيف على حد قوله أتحدث مع رجل غريب ! فالولد حقا كان حساسا تجاه أى رابط يربطني بعلاء .
أما الآن، إذا اتصل بي علاء أو اتصلت به، وكان ذلك أمام أشرف، أجده يصرخ كالمجنون :

- هى الدروس مش خلصت ؟ ليه بقى بيكلمك وتكلميه ؟

- ما انت عارف ان اختك لسه بتاخذ دروس كمبيوتر .

فيعود يصرخ :

- يا دي الكمبيوتر ودروس الكمبيوتر !

وساعتها أموت في نفسي رعبا، ماذا لو عرف أنني أتعاطى الدروس أيضا! رغم أن ابني لا يترك أخته في حالها، إلا إذا علمته عمليا على الكمبيوتر كل ما تعلمته من علاء.

ثم أصبح في صراخه يستبدل بكلمة «كمبيوتر» كلمة «زفت»!

ثم تطور الأمر، أصبح يقلب في هاتفي من ورائي بحثا عن رقم علاء، ثم أصبح يقلب في الهاتف صراحة أمامي، ويا ويلى لو رأى أنه كلمني أو كلمته، ثم ولأنه يعرف أرقام كل صديقاتي ومعارفي، أصبح يفتح معي تحقيقا بشأن أي رقم غريب عنه، خصوصا إذا كان رقما بلا اسم، حتى أمرني صراحة أن أمسح رقم علاء واسمه من ذاكرة هاتفي! لكنني اهدتيت لحيلة.. صارحت علاء، فغير رقمه لرقم آخر، ثم سجلته على هاتفي باسم «بدرية ٢».. كأن لبدرية رقما ثانياً.

مرة ثالثة.. هل أنا أحب علاء؟

بالقطع لا وألف لا.. أنا لم أحب سوى حسن، ولن أحب سواه.. لن أحب سوى الرجل الذي سلبني شرفي ثم رده لي ومعه شرفه، لأحافظ له عليهما، فحافظت كأحسن ما تحافظ زوجة على شرفها وشرف زوجها.

إذن ما دمت لا أحب علاء.. فربما هو الذي يحبني!

أيضا وبملء الفم.. لا وألف لا..

فنظرات علاء التي كانت ولا تزال، لا تدل أبدا على أنه يحبني، بل تدل على أنه يشتهي، فأنا في نظره مجرد أنثى مشتتة، تماما كما يراني كثيرون غيره، وإن كنت أتمنى من أعماق قلبي، أن أكون واهمة في تصوري هذا أو مخطئة.

إذن ما الذي بيني وبين علاء؟

أبدا لا شيء... ببساطة في حياة كل امرأة، خصوصا إذا كانت جميلة ومفعمة بالأنوثة، لا بد أن يكون ثمة رجل! قد يكون هذا الرجل هو الزوج.. أو الحبيب.. أو العشيق.. أو الصديق.. أو حتى الزميل.. لا يهم.. المهم سيكون هناك رجل والسلام.. وبالنسبة إليّ فعلاء هو هذا الرجل، لذلك وحتى هذه اللحظة على الأقل، سأضع علاقتي به في إطار أنها فقط مجرد علاقة عادية، أو طبيعية، بين امرأة تشعر بأنوثتها، ورجل يشعر برجولته.

* * *

والآن أصبحت دروس الكمبيوتر يومية.. ولي وحدي!

نعم.. الآن آخذ الدروس وحدي من دون نسمة! فهي على حد قول علاء، أجادت كل مهارات التشغيل الأساسية ولم تعد بحاجة للمزيد، كما أن ابنتي من فرط فرحتها بي.. فرحتها بأمرها التي تتعلم الكمبيوتر.. أو من فرط سذاجتها، كانت بمجرد أن يأتي علاء، تترك لنا الكمبيوتر فوراً وتقوم.

علاء قبل أن يأتي للدرس، كان يحرص على أن يتصل بي أولاً، فقط ليسألني إن كان أشرف بالبيت أم لا، وإلا فإنه يؤجل الدرس، ومن حظه أن أشرف أغلب الوقت لا يكون بالبيت، عكس نسمة، التي وإن كانت تتركني لعلاء وللدرس، إلا أنها لا تغادر البيت، لا تذهب لياسمين مثلاً، بل تظل تحوم حولنا من بعيد، تشاركنا بكلمة أو تعلق بقفشة، وللعجب كان ذلك يضايق علاء وألمحه واضحاً على وجهه!

وكم من مرة أسيطر على الأنثى بداخلي بالكاد، وهي على وشك أن تقول لنسمة: ألا تذهبين لتزوري ياسمين؟

حتى تصادف في يوم أن ذهبت من نفسها، لأجد نفسي لأول مرة، وحدي مع علاء والمنزل خاليا علينا.

وآه من لذة أحاسيس وإن كنت جربتها من قبل، إلا أنها الآن لها طعم جد مختلف.. تلك الأحاسيس التي لا بد أن تثيرها الخلوة مع رجل.. رجل مثل علاء.. رجل منذ عرفته ونظراته تفضح رغباته، الرغبات التي تؤرق مضجع الأنثى بداخلي، تلك الأنثى التي حتى هذه اللحظة ورغم كل شيء، لا تزال تحت السيطرة، وأرجو أن تظل!

وإن كنت لا أنكر أن لذة تلك الأحاسيس، كان يشوبها شيء من الكدر، كدر أنني أفعل ما يمكن أن يؤخذني عليه الآخرون.. وعلى رأسهم إبنني أشرف.

حتى بدأ علاء يستغل بمكر ألعاب الكمبيوتر! كان يعلم مدى عشق نسمة لها، وكنت أعلم وكما تعلمت على يديه، أن بعض (سيدات الجيمز) تحتاج لجهاز كمبيوتر عالي (الميموري)، وكان جهاز نسمة منخفض الميموري، فكان الماكر يأتي لها بألعاب يعرف أنها لن تعمل على جهازها، ما كان يدفع المسكينة للذهاب إلى ياسمين أغلب الوقت، حيث جهازها يصلح لتلك الألعاب.. ولم أكن أعترض! لأجد نفسي في خلوة شبه دائمة مع علاء، ثم عاشقة لأحاسيس تلك الخلوة، ثم أسيرة لها!

حتى بدأ أشرف ينتبه..

يتنبه إلى أنني أستقبل علاء وحدي بالمنزل، فبدأ يعترض، ثم يؤاخذني صراحة! وكان يؤاخذني بكلام رجل بلغ الخمسين لا فتى لم يبلغ العشرين.. حتى وبخني ذات يوم قائلاً:

- الناس يا ماما ممكن يتكلموا عليكى.. خصوصاً الجيران!

- عيب الكلام ده يا أشرف.. إنت عارف ماما كويس.

- ما أنا بتكلم عشان عارف ماما كويس.

فوجهت.

حتى قلت بصوت اجتهدت أن يكون واثق النبرات:

- أشرف.. إنت عارف كمان إن الناس كلها عارفة إن علاء ده يبقى قريبنا.. يعني في مقام عمك وعم نعمة.

- أيوه يا ماما.. بس مش معنى كده إنك تستقبله لوحده.. وكل يوم.

فخرست.

في البداية كنت أواجه ابني بالفاظ ملء الفم.. ثم أصبحت الألفاظ تتبعثر على شفتي!

ومع ذلك لم أكف عن استقبال علاء وحدي!

أقنعت نفسي بالحجة.. أو أوهمتها.. بأنني لا أفعل ما يستحق المؤاخذة، أوهمتها ولكن بأسئلة مقنعة بالفعل، بأنني لا أخطئ في حق نفسي ولا في حق أحد.. أسئلة مثل:

أليس علاء من ذوى قرابتنا؟ ألا يعتبر فعلا في مقام عم أشرف ونسمة؟ ألم يتطوع من البداية وعن طيب خاطر أن يعطيها دروسا خصوصية بلا مقابل؟ أليكون جزاؤه في النهاية أن أمنعه من دخول بيتي؟ وإن كان على خلوتنا، فلا بأس أن يزورني في وجود.. في وجود نسمة.. ولا داعي لأشرف الذي يكرهه بلا سبب!

ولكن أشرف كان شديد المكر، كأبيه أحيانا!

بعد الدبلوم أصبح لا شغل ولا شاغل، فجعل شاغله هو علاء، من مكر ابني كان يوهمني وهو يغادر البيت أنه سيغيب طويلا، ثم يفاجئني بعودته بعد وقت محسوب، طبعاً بهدف أن يضبط علاء.. ولو حدث وضبطه.. فيا لها من ليلة ليلاء.. فبعد أن يجعله ينصرف يتعثر في حرجه، يبدأ معي تحقيقات وأسئلة لا تنتهي، متى ولماذا جاء، وماذا قال لي وماذا قلت له، وكيف سمحت لنفسي أن أغلق باب الشقة علينا وحدنا، وأجالسه حاسرة الرأس وبملابس غير محتشمة هكذا.. ابني كان يرى الروب المنزلي بأكمامه الطويلة وصدره المغلق.. ملابس غير محتشمة!

حتى أصبح علاء يخشى أشرف.

ثم أصبح يكرهه.. بل ويمقته!

أرى ذلك واضحا في عينيه كلما جاء ذكره!

فبدأت أخشى، أو أنتظر صداما بينهما!

* * *

يوما كنت أمام البوتاجاز أعد العشاء، عندما رن هاتفني في مخدعي،
فصاح بي أشرف الذي كان قريبا منه:

- ماما.. طنط بدرية بتتصل.

وجاءني بالهاتف، فإذا بشاشته مضاءة باسم بدرية ٢، فتوقف قلبي
رعبا.. إنه علاء.. فخطفت الهاتف من ابني وأطفأت البوتاجاز وأسرعت
لمخدعي، وأغلقتة دوني أتحدث هامسة:

- أيوه يا علاء.

- إزيك يا مدام مهرة.

- مش اتفقنا بلاش مدام.. مهرة وبس.

- إزيك يا مهرة؟

- بخير.. وانت؟

- بخير.

ثم سأل السؤال المعتاد:

- أشرف هنا؟

عجبا.. أعرف وأعرف أنه يعرف، أنه لا درس كمبيوتر اليوم،
فعرفت أنه الشوق لرؤيتي.. فهمست:

- بصرحة هو هنا.

- يبقى مش ح ينفع.. ح اجيلك وقت تاني.

- لأتعالى.. هوح يتعشى وأكيد ح ينزل لصحابه.

- خلاص.. لما ينزل ادينني رنة.

- اتفقنا.

وآه مما شعرت به يحتاج جسدي!

وجلست أراقب ابني وهو يتناول طعامه على مهل، حتى فرغ ثم أخذ يسعل للحظات، فأسرعت أناوله الدواء المهدئ وأسأله:

- ح تنزل؟

- احتمال.

- يعني إيه؟

- خطوبة أخت سامي صاحبي الليلة.. بس بصراحة مكسل أروح.

- وده كلام؟ واجب تروح تجامل صاحبك.

فذهب ابني، لكن بعد أن تأكدت منه بدهاء الأنثى، أنه لن يعود في المدى القريب، وأسرعت أتصل بعلاء، الذي جاءني في ثوان، ولم يبادر إلى الكمبيوتر كعادته، أعرف أنه متوجس من عودة أشرف.. مثلي تماما، فقلت أطمئنه، أو أطمئن نفسي:

- أشرف مش ح يرجع دلوقت.

فاطمأن، ثم بدأ يصوب لي أولى النظرات، فهربت إلى حيث جهاز الكمبيوتر، أضغط زر تشغيله وأنا أنظر إليه، وهي إشارتنا المعتادة

لنبدأ الدرس، رغم علمي أنه لا درس، وأن الدرس يعني الاقتراب والتلاصق والمزيد من الخطر، وفعلاً جاء يقترب مني وبأكثر مما ينبغي، حتى خفق قلبي، ولكن قلبي كان مستعداً لكل الاحتمالات، وبما فيها أن يراودني علاء عن نفسي! لكنني فوجئت به يقول:

- عندي خبر حلو لنسمة.

- بجدا؟ إيه؟ عريس؟

- لأ.. شغل.

- بجدا يا أستاذ علاء؟

- مش اتفقنا بلاش أستاذ؟

- بجدا يا علاء؟ شغل فين؟

- في مكتب المحامي اللي ماسك قضية مراتي.. هو في الحقيقة صاحبي.. وكذا مرة يتكلم قدامي عن وظيفة للأرشيف.

- متشكرة يا علاء.. متشكرة قوي قوي.

- المهم هي جاهزة عشان تستلم الشغل؟

- من بكرة لو تحب.

وكنت متوقعة أنه يوما سيفعل شيئاً كهذا!

وكنت متوقعة أيضاً أنه سيبدأ حالا الدرس، كان قد جلس إلى الكمبيوتر وتلقائياً جلست بجانبه، وفعلاً همس لي:

- ها.. نبدأ؟

وحالا أعلنت موافقتي، ليس بلساني ولكن بيدي، التي أمسكت بالماوس تداعبه وتحرك مؤشره على الشاشة على غير هدى، في الحقيقة كنت أداري خوفا مركبا، خوفا مما لا أتوقعه من علاء، وخوفا من مفاجأة أشرف لنا، وإن كنت متأكدة أنه لن يأتي الآن، وحتى لو جاء فلن أعدم مبررا لوجود علاء، بمنتهى البساطة سأقول إنه جاء ليعرض علينا وظيفة لنسمة.. المشكلة حقا في علاء نفسه.. الذي بدأ الآن بالفعل يأتي بما يثير خوفي.. ليس منه تحديدا.. بل من العواقب!

حتى خطرت لي خاطر.. بما أنه تطرق بنفسه من لحظات لقضية زوجته، لماذا لا أستغل رغبته المحمومة لنبدأ الدرس، وأستخلص منه قصة زواجه بالتفصيل.. أي القصة مقابل الحصة!

وفعلا سألته.. وتعمدت أن يكون السؤال بمنتهى الدلال:

- علاء.. هو مفيش طريقة للتفاهم مع مراتك غير المحاكم؟

وامتقع لونه وهو يجيب باختصار:

- لأ.

- طيب إيه اللي خلى الأمور بينكم توصل لكده؟

- هي اللي عايزة كده.

- معقول؟ إزاي؟

وبدا مترددا.. لكنه تحت تأثير الدلال قال:

- بعد خلاف بسيط بيننا.. وزى ما بيحصل كل مرة.. سابت البيت ومشيت.. وزى كل مرة حاولت أرجعها.. رفضت بشدة.. لحد ما فوجئت بيها رافعة قضية طلب طلاق للضرر.

- طلاق للضرر؟

- أيوه..

- ليه للضرر؟

وعاد يتردد ولونه يمتقع.. لكنه أجاب:

- عشان.. عشان تاخد كل حقوقها.. خصوصاً الشقة.

- معقول يا علاء؟ فيه واحدة في الدنيا تهدم بيتها عشان شقة؟

- ما انتي ماتعرفيش هي سافلة قد إيه.

- هي حاضنة؟

- أيوه.. معانا ولد وبنت في سن الحضانة.

- يبقى المحكمة ح تحكم لها بالشقة.

فانتفض يقول:

- على جشتي.. ده أنا كنت أدفنها فيها قبل ما تطول شبر منها.

ثم فوجئت به يرجوني.. أو يتوسل:

- مهرة.. بلاش نتكلم في الموضوع ده تاني.. لو سمحتي.

- زي ما تحب.. وعموما أنا آسفة يا علاء.. آسفة جدا.

- عادي مفيش حاجة.

قالها مصحوبة بابتسامة..

ولكنها ابتسامة جد ساحرة!

أول مرة أنتبه أن لعلاء.. ابتسامة ساحرة هكذا!

هل لأنها ابتسامة أسي وألم؟ والأسي والألم هما سر سحرها، ابتسامته كانت تعبر أبلغ تعبير عن مأساته مع زوجته ومدى إحساسه بالظلم منها.. ولا أنكر أن ابتسامته قبل مأساته.. قد أثارت في نفسي تعاطفا ما معه!

«ربما لو لم يحك علاء من لحظات مأساته تلك، ما عرفت أبدا أن له مثل هذه الابتسامة الساحرة».. هكذا قلت لنفسي.

ثم ويا للعجب.. أيضا نظراته!

أيضا ربما لو لم يحك مأساته، ما عرفت أبدا أن له نظرات غير نظراته التي أعرفها!

نعم.. كنت قد ذهبت دون أن يطلب لأعد له كوب شاي آخر، فأنا أعرف مدى عشقه للشاي.. أو في الحقيقة ليس الشاي.. بل عشقي أنا لشيء آخر! كنت أحيانا وأنا عند البوتاجاز، أهوى اختلاس نظرات له، كي أرى منه ما لا أنكر أنني أصبحت أحبه وأريده.. نظراته! هذه التي أعرف أنه بدأ يصوبها لي من لحظة ما قمت وأعطيته ظهري.

ولكنه الآن وبعدما حكى لي مأساته، أراه ينظر بعيدا بنظرات غائمة

شاردة، نظرات أبعد ما تكون عن النظرات التي أعرفها، بل وأشعر به معها كأنه سيبيكي! بل الأكثر.. الآن وأنا أجلس أمامه نشرب الشاي، ألمح في عينيه كلما التقت نظراتنا، شجنا وأحزانا وهموما، وأيضا هياما راقيا بي! لكنه فوراً يداريه!

تُرى هل يخفي عني سرا ما!

ولكن أي سر؟!

ويا إلهي من هذا الرجل!

ها هو بعد الشاي يلح لنبداً الدرس، ويعود يلتصق بي، وها هي نظراته تعود لسابق عهدها.. حتى ابتسامته لم تعد ساحرة! عادت كنظراته!

وكان لا بد أن أهرب، فإحساسي الأنثوي الآن أن مداهمة أشرف باتت وشيكة.. وعجبا أنني لم أجد مهربا إلا البوتاجاز! ذهبت لأعد له كوب شاي آخر! ومن هناك.. ها هي سهام نظراته تحترق جسدي، وتشعل حرائقي، حرائق ستجعلني كالعادة أرفع إبريق الشاي الساخن من فوق النار بلا قطعة قماش، وأصبه في الكوب حتى يفيض ولا أشعر به، وأعرف أنها لن تجعلني أنام الليلة مثل ليالٍ سابقة كثيرة.

بحقك يا إلهي.. من أكون أنا؟

هل أنا هي أنا؟ أم الأنثى بداخلي؟

ويا لمكر ابني الذي عاد فجأة.. عاد مبكرا جدا عما كنت أتوقع، وكعادته نظر لنا شذرا، بل وتجاهل يد علاء الممدودة له بالسلام! فقام من فوره يريد الانصراف.

لكن وامصيتهاه.. ها هو ما كنت أخشاه.. أشرف يضمّر له الشر.. يريد مواجهته، فهذه المرة لم يدخل مخدعي ويغلقه عليه كالعادة، بل جلس للكمبيوتر لكن لا ينظر لشاشته، بل ينظر لعلاء بعين لا ترمش ولا تتحول، حتى توتر الأخير وانكمش على نفسه، ثم بدأ يرتبك، ولم ينقذ الموقف إلا عودة نسمة، فانتهزت الفرصة حالا، قلت لها كي أشوش على أشرف وأخلق موقفا جديدا:

- مبروك يا نسمة.. عمو علاء جاب لك شغل.

فصاحت به لا تصدق:

- بجديا عمو؟ فين؟

- في مكتب واحد محامي.

- متشكرة يا عمو علاء يا أحسن عمو في الدنيا.

واقتربت منه تريد أن تقبله، وأيضا انتهزت الفرصة، نظرت له بنظرة فهمها على الفور.. فقام كأنه يقوم لها.. ثم أسرع يلقي السلام ويفتح الباب وينطلق!

وفعلا ليلتها لم أنم، أولا من تأنيب ابني الذي اضطرت إلى أن أتحمّله، وإن ساندني نسمة التي لا ترى حرجا في أن أستقبل علاء وحدي! وثانيا من حرائقي.. تلك التي اشتعلت الليلة بالذات.. بأكثر مما أتحمّل.

* * *

عمل نسمة كان فترة مسائية، من الثالثة للتاسعة، لتكون في المنزل على العاشرة تقريبا، وكنت في الحقيقة غير راضية عن عملها مساءً.. إلى أن وقع علاء بنفسه في الكلام.. قال عفوا وبالصدفة البحتة، إنه الذي كان وراء أن يكون عمل نسمة فترة مسائية.. ولم أراجع!

وأصبحت تقريبا لا أزور أمه، لكنني لم أهمل محادثتها تليفونيا.. حتى فاجأتني سلوى ذات يوم باتصال:

- عقبال نسمة يا مهرة.. خطوبة ياسمين الخميس الجاي..

وكان الحفل في شقة سلوى، وذكّرني الجو بيوم رأيت علاء أول مرة، فإذا بي تلقائيا أمسح المكان بحثا عنه، لكن لم أجده، حتى انتبهت على أمه ترحب بي وتعاتبني في آن:

- كده برضه يا مهرة يا بنتي؟ ماشوفكيش إلا في المناسبات؟

- معلش يا خالتي.. اعذريني.. البيت والولاد والشغل.

- ربنا يقويكي يا بنتي.

وتقدمت من سلوى وزوجها أقدم لهما واجب التهئة، تغير زوج سلوى كثيرا عن آخر مرة رأيته، أصبح يضع العدسات الطبية وتلون معظم شعره بالأبيض:

- ألف مبروك يا ابو ياسمين.. وعقبال الليلة الكبيرة.

- عقبال نسمة وأشرف.

ثم أردف فجأة يقول:

- أم أشرف.. طمنيني.. يا ترى عادل أخو المرحوم حسن عامل
معاكي إيه؟ لسه بيضايقلك؟

- ياه.. ده من يوم ما اتجوز ماشفت هوش.

- هو اتجوز؟

- من زمان.

- وأخته؟

- برضه اتجوزت من زمان وما بشوفهاش.. خصوصاً إنها عايشة
مع جوزها في راس البر من يوم ما رجعوا من السفر.

علق ضاحكاً:

- ياه.. ده فيه حاجات كتير قوي بتحصل من زمان والواحد
ما عندهوش خبر.

ثم نظر لزوجته يقول مداعباً:

- الحق على أم ياسمين.. تقاريرها الإخبارية مش وافية.

وضحكنا..

ودوناً عن ثلة النساء الموجودات، كانت امرأة تجلس وحدها تقريباً،
نادراً ما تكلم أحداً أو أحد يكلمها، فحسبتها من أهل العريس، وخيل
لي أنها ترمقني بنظرة ما، أو لعلها كانت تنظر لي شذراً! في البداية فسرتها
غيرة النساء المعهودة، رغم جمالها الواضح، وإن انتابني شعور بأن وجهها
ليس غريباً على ناظري.. تقريباً رأيته من قبل.. لكن أين ومتى لا
أدري.. حتى تذكرت فجأة..

يا إلهي! إنها زوجة علاء!

رأيتها من قبل في صورة لها مع طفليها كانت مع علاء، وعدت أنظر للمرأة، في الواقع تبدو أكثر نحافة مما رأيتها في الصورة، وهو ما لا يحبه علاء في النساء كما المح لي مرة، لكن علامات النبل وهدوء الطبع واضحة جدا عليها، وتتعارض مع ما قاله علاء عنها.. أنها سافلة.. وتتنافى مع الفكرة التي كونتها أنا عنها.. أنها من أولئك المشاكسات اللاتي لا يتورعن عن هدم بيوتهن من أجل شقة! تُرى هل كان علاء صادقا حين وصفها بالسافلة؟ ويفرض أنها كذلك، ومع خلافاتها المنظورة في المحاكم، أليس غريبا أن تكون موجودة هنا الآن! تجلس بجوار أمه وتبارك خطبة بنت أخته!

وانتحيت بسلوى أهمس لها:

- مش دي مرات علاء؟

- أيوه.

- هما اصطلحوا؟

- لا.

ولم تزد بكلمة أخرى! فلم أشأ أن أخوض في أمر أقنعت نفسي أنه لا يخصني، لكن يبدو أن عيني كانتا تعجان بالتساؤلات، لأن سلوى اضطرت إلى أن تفسر:

- ماهو خطيب ياسمين يبقى من طرف مرات علاء.. ابن أخت جوز عمته.. مهندس إلكترونيات.. كان حاطط عينه على ياسمين من زمان.

ثم أردفت:

- يمكن الجوازة دي تكون السبب في رجوع عبير لعلاء.

- هي اسمها عبير؟

- أيوه.

- ربنا يهدي النفوس.

علاء لم يكن يدعوها باسمها..

كان يدعوها (اللي ما تتسمى)!

واستمرت المرأة.. أو عبير.. ترميني بالنظرات، بالضبط كأنني غريمتها! مصيبة لو أنها تعلم بحكاية الدروس، وأن زوجها ما زال يتردد على بيتي إلى الآن.

ثم شعرت بشيء من تأنيب الضمير، فربما أكون سببا من أسباب خلافها مع زوجها، أو السبب الرئيسي، ففكرت أن أذهب أتعرف بها، فربما يسفر التعارف عن شيء إيجابي، لكنني تراجعت في آخر لحظة، فالمرأة بدت بالفعل غير مرحبة!

حتى جاء علاء.. فاقتربت منه زوجته تريد أن تكلمه، لكنه تجاهلها عن عمد، ثم لحظات وجاء يحوم حولي، كان واضحا أنه يعتمد إثارة حقنها.. حتى اقترب يهمس لي مستغلا لغط المدعوين:

- عندي أخبار حلوة لأشرف.

- خير

- شغلانة في شرم الشيخ.

- ياه يا علاء.. شرم الشيخ!

- أيوه.. ما لها شرم الشيخ؟

- ما انت عارف.. أشرف عيَّان مش بتاع غربة.

- غربة إيه يا مهرة؟ هوح يهاجر؟ دى شرم الشيخ.. يعني بلد جوة مصر.. وهناك برضه فيه دكاترة وعلاج زي هنا ويمكن أحسن.

- مش عارفة اقول لك إيه يا علاء!

- إنتي شايفة الحال هنا.. نايم وماحدثش لاقى شغل.. وكمان لما تعرفي المرتب اللي ح ياخده إبنك.. مش ح تصدقي.

- ح ياخذ كام؟

- تلتلاف جنيه.

- في الشهر؟

- أو مآل في السنة؟

- ودار رأسي..

- وح يشتغل إيه هناك؟

- زي تخصصه في الدبلوم.. كهربائي.

- وعاد رأسي يدور.. لكن من شيء آخر..

علاء منذ أيام أتى بعمل لنسمة.. وها هو الآن يأتي بعمل لأشرف..
هل بغرض الوقوف بجانبها باعتبارهما في بداية حياتهما العملية، أم
بغرض أن يبعدهما عن المنزل ليخلو له الجو؟ بالذات أشرف؟

وفي المنزل أغرقني أشرف بقبلاته وهو يسألني:

- مين يا ماما اللي جاب لي الشغلانة دي؟

- واحد ماتعرفهوش.

- مين يعني؟

- واحد من معارف طنطك بدرية.

- يبقى لازم أتصل بيها أشكرها.

فصرخت فيه:

- لأ يا أشرف.. إوعى.

-ليه؟

- أنا شكرتها خلاص.. مش كل شوية ح نشكرها.

وعاد ابني يقفز من الفرحة.. رغم سعاله الذي راح يمزق صدره..
والأكثر صدري.. ومع ذلك.. أيام قليلة وكان في شرم الشيخ!

* * *

وكان لا بد أن أحكي لبدرية، على الأقل لأنبهاها ماذا تقول لأشرف
لو اتصل بها يشكرها.. وكما توقع.. ما إن حكيت لها حتى قالت

تشاكسني بلهجتها الماكرة:

- بركاتك يا سيدي علاء.. اظهر وبان عليك الأمان.. من إمتى
كراماته دي كلها يا ست مرمر؟

ولم أقل لها منذ متى، ولم أحك لها عن زوجته ونظراتها، فقط صارحتها
بظنوني عن العمل الذي أتى به لأشرف ونسمة:

- أنا حاسة إن الشغل اللي جابه لأشرف ونسمة مش لوجه الله.

- يا شيخه اتلهي.. ده بدل ما تشكريه وتقولي له كتر خيرك؟ هو
فيه حد لاقى شغل النهارده؟

- والله ما انا عارفة يا بدرية!

- على فكرة يا مهرة.. فيه حاجة لازم تكوني عارفها وواحدة بالك
منها كويس قوي.

- إيه هي؟

- أشرف ونسمة في يوم من الأيام ح يتجوزوا.. وكل واحد ح يبقى
له حياته الخاصة.. وساعتها ح تلاقي نفسك وحدانية ومش لاقية حد
يونسك أو حتى يكلمك.

- وعلاء بقى هو اللي ح يونسني؟

- هو أو غيره مش ده المهم.. المهم تكوني عارفة إن الدنيا مالهاش
أمان.. ومهما كان.. إحنا في الأول وفي الآخر ستات مكسورين الجناح..
ومعلش يا مهرة ماتأخذنيش.. إنتي جربتني بنفسك يعني إيه تكوني

وحدانية.. ويعني إيه حد يتخلى عنك.

وزلزلني كلامها!

- بس انا خايفة يا بدرية أكون بعمل حاجة غلط!

- اسمعي يا ماهرة.. إيه رأيك لو تتجوزي علاء؟

- يووووه.. تاني يا بدرية؟

- يا عبيطة عقد عرفي وخلصي نفسك.

ولزمت الصمت.. صمت التردد والحيرة والخوف!

سابقا كنت أخاف الضياع.. وما زلت.. وما زلت حتى اللحظة أنظر
لبدريه كنموذج له، والآن أشعر أنني نموذج آخر مرشح.. والبداية
ستكون علاء!

ولكي لا تتمادى في حديث الزواج، رأيت أن ألهيها بالحديث المفضل
لديها.. و.. والذي أحب أيضا الخوض فيه:

- أخبار وليد إيه؟

- زي الفل.

- مفيش جديد؟

- جديد زي إيه؟

فقلت هامسة:

- ما انتي عارفة.

- قصدك الحمل؟

- أيوه.

- لسه وحياتك مفيش.

- مش كنتي بتاخدي علاج جديد؟

- شكله مش جايب نتيجة.

وإذا بي وكما تعلمت منها.. أمزاحها بمزاح خارج:

- بت يا بدرية.. إوعى وليد بتاعك ده يكون زي الحاج هو كمان..
ماهوش.

- مين ده اللي ماهوش يا حبيبتى؟ طيب ده الحاج جنبه يقول له يا عمو.
وانطلقنا في عاصفة من الضحك الماجن.. أول مرة أضحك بمجون
هكذا.. حتى تذكرت فقلت:

- بدرية.. لو أشرف اتصل عشان يشكرك على شغلانة شرم الشيخ..
إيقي قوليله...

فقاطعتني:

- عيب يا مرمر.. لو اتصل أنا أعرف أقول له إيه.

* * *

والآن لا رقيب!

ها هو أشرف أصبح غائباً في شرم الشيخ، ونسمة غائبة في العمل أو

عند ياسمين، فأصبحت أكثر إدمانا لزيارات علاء.. أو لخلوتي معه..
أستشعر لذتها من لحظة ما يتصل يخبرني أنه في الطريق، بل وربما قبلها،
من لحظة تعجلي الخروج من المستشفى لأستعد له في البيت، ولو مر
الوقت ولم يتصل أتصل أنا.. وإن لم يرد، أظل أتصل حتى يرد!

في الماضي لم أكن أحبه.. فهل الآن أحبه؟

لا.. لم ولن أحبه..

وأصبحت لزياراته طقوس، تبدأ بدرس الكمبيوتر، أو ما أوهم
نفسي أنه درس الكمبيوتر، ثم نتعشى عشاءً خفيفاً، يعقبه مشروبه
المفضل الشاي، كل ربع ساعة تقريباً أعد له كوباً.. للغرض إياه.. أن
أضبطه من عند البوتاجاز وهو يلتهمني بنظراته.. والحقيقة كنت دائماً
أترقب موعد كوب الشاي التالي! ولم لا والآن لا رقيب! الآن عندما
أكون عند البوتاجاز، أجدني في انتظار شيء ما من علاء! لكنه دائماً يخيب
ظني، يخيب ظني كامرأة تشعر بأنوثتها، وكرجل يشعر برجولته! ولم
أكن أدري هل أفرح بذلك أم لا، ولكنني على أية حال كنت وهو يشرب
كوب الشاي الأخير، الملح له أنه الأخير، كي يشربه وينصرف قبل أن
تأتي نسمة، فلا أحب لابتني أن ترى رجلاً مختلياً بي هكذا.. وكل يوم!

أيضاً كنت أتعهد أن أترك باب الشقة مفتوحاً على مصراعيه.

باب الشقة؟

آه من باب الشقة وما حدث بسببه!

علاء كان بمجرد أن يدخل، يتعهد أن يغلق باب الشقة وراءه،

فأسرع أنا وأفتحه، وأصر أن يبقى مفتوحا، وعلى مصراعيه، لا شيء إلا احتراما لغياب رجل البيت.. أشرف.. أتذكر تأنيبه لي بسبب الباب، فأصر على أن يبقى مفتوحا.

حتى جاء علاء ذات يوم بفيلم لنشاهده على الكمبيوتر:

- الفيلم ده من أفلام السبعينات الجريئة قوي.. وح يعجبك.

وهذه المرة أصر على أن نغلق الباب، وجلسنا نشاهد الفيلم، أول مرة أعرف أن السينما كانت تنتج أفلاما جريئة هكذا! الفيلم كان يناقش بلا تحفظ قضية العلاقات السرية للأزواج والزوجات، وبه من مشاهد الإغراء ما به!

على أن المشكلة لم تكن جرأة الفيلم.. كانت تعليقات علاء.. كانت أشد جرأة من الفيلم! ومن جراتها كنت إما أصمت خجلا، أو أدير وجهي حرجا.. فيهمس لي مبتسما:

- مالك؟

فأهمس مبتسمة:

- مفيش.

حتى جاء مشهد ساخن للبطل.. فإذا به يعلق:

- الممثلة دي هايلة.. كل أدوارها إغراء وجنس.. بس بصراحة بتعملها كويس قوى.. جمالها وجمال جسمها بيساعدوها.

ثم:

- أنا بحب قوي النوع ده من الستات.

ثم:

- عارفة.. فيكي شبه كبير قوي منها.. خصوصا جسمها.

ثم زاد الطين بلة:

- بس الحقيقة جسمك أحلى منها بكثير.

فكدت من شدة الخجل أقوم وأتركه!

مشكلتي مع الخجل، أن أثره يظل على وجهي إلى أجل غير معلوم،
لون أحمر لا يذهب حتى ولو بعد حين، والكارثة أن علاء هذه المرة،
أطال النظر في وجهي قبل أن يهمس:

- مالك؟

- مفيش.

- لأ.. عينيك بتقول فيه.

ثم كأن جنونا أصاب نظراته، إذ راحت تمسح كل شبر في جسدي،
وكنت أجلس بجواره بينما فقط صينية الشاي، فبدأت يده تمتد نحوي،
امتدت أولا لشعري، وتحديدًا لذيل الحصان، تصفيفة الشعر التي لم أعد
أصفف شعري إلا بها، فقد صار حني مرارا أنها تذييه، ثم فوجئت بيده
تمتد خلف رأسي تجذبه برفق.. ذيل الحصان.. كأنه يهين فمي ليصبح
في مرمى قبلاته، ويا للهب قبلته الأولى.. ثم الثانية.. ثم..

ثم إذا بخبطات على الباب..

يا مصيبيتي.. إنها ليست نسمة، فهي معها مفتاح، كما أن موعد عودتها لم يأت، ولكن من إلحاح الخطبات عرفت أنها أم ياسر، جازقي الفضولية التي تعلوني في السكن مباشرة.. وبلي لو أنها كانت تشعر بنا من قبل فكانت تراقبنا.

أنا وعلاء نعرف مدى حبها للتطفل، أيام الدروس كانت إذا شعرت به عندي، أجدها تحبب بخبطات لحوجة على الباب، فأفتح لها فتدخل كأنها تقتحم علينا الشقة، وتقف تطيل النظر له وهو مندمج يشرح الدرس، ويا لنظراتها إذا تصادف ورأته ييازح نسمة أو تمازحه.

رباه.. هل بسبب هذه الفضولية وكما حذرنى أشرف، سأجد سيرتي وقد أصبحت على ألسنة عذبة البرج كلها؟ وذهبت أفتح لها والخجل يشتد بي، وفعلا كانت هي، وكالعادة دخلت مقتحمة تنظر بفضول.. ويا لنظراتها حين رأتنى وحدي مع علاء، وحين رأته وجهي مصبوغا بحمرة الخجل.. ويا لنبرة التهكم في صوتها وهي تقول له:

- الله! أو مال فين تلامذك يا سي الأستاذ؟

ولما لم تسمع ردا.. قالت لي بتهكم أشد وكأنها تمزح:

- الظاهر إن الأستاذ بيديكي درس خصوصي لوحذك يا أم أشرف.

وأطلقت ضحكة بها ما بها، وانصرفت لا تهتم بإلحاحي الكاذب لتبقى.. وانصرف إثرها علاء.

ومن يومها قررت ألا أغلق الباب ثانية..

ومن يومها وأدركت أن شقتي أصبحت مرصودة..

ولكن علاء لم ينقطع عن زيارتي، وحتى لم يعد يقنع بزمي لقائنا المعتاد، بل أصبح يزيد إلى ما بعد عودة نسمة، وفي الحقيقة كنت أشجعه!

وها هي نسمة الآن تراه عندي كل يوم.

وها أنا بدأت ألمح تغيراً يطرأ على نظراتها لي!

كانت كعادتها بعد عودتها من عملها، تجلس تتناول عشاءها والنوم يغالبها، ومع ذلك لا تكف عن مازحة علاء، لدرجة أنها تأوي إلى فراشها مرغمة، فما زالت تملك بقايا مخزون مزاح تريد أن تفرغه معه، ثم يحدث أنها تقوم في جوف الليل لأمر ما، فتجد علاء ما زال جالساً معي، فتعود لفراشها وعيناها تتساءلان، إلى أي وقت متأخر من الليل، سيظل عمو علاء ساهراً مع أمي!

ثم لم أعد أنا أقنع بزمي اللقاء!

أصبحت بعد انصراف علاء، أذهب أتمدّد على فراشي ثم أطلبه على هاتفه.. ف(يكنسل) ويطلبني هو، ونشرع نكمل ما كنا نتحدث فيه، حتى ينفد رصيده ثم رصيدي!

* * *

ولم أعد أسأل عن والدته علاء.. حتى ولو بالهاتف.

لكن خجلي من نفسي دفعني يوماً لأزورها، وكالعادة كانت سلوى معها مشغولة ترعاها، وتعجبت أن السيدة عندما رأته لم ترحب بي بحرارة كما عودتي، فقط كلمات مقتضبة ثم الصمت.. حتى سلوى.. فظننته العتاب الصامت على غيابي الطويل عنهما، لكنهما ظلّتا على صمتها،

إلى أن قالت السيدة بفتور:

- إزيك يا مهرة؟

لم تقل كعادتها.. يا مهرة يا بنتي!

- بخير والله يا خالتي.. إزيك إنتي؟

لكنها عادت للصمت.. حتى سألتني بعد برهة وهي تتبادل نظرات مع بنتها:

- قولي لي.. هو علاء لسه بيدّي دروس لولادك؟

وأسقط في يدي..

هي تعلم أن أشرف ونسمة أنها الدراسة منذ زمن! وتعلم أيضا أن أشرف يعمل الآن في شرم الشيخ ونسمة عند المحامي صديق ابنها! هذا بخلاف رنة التهكم في سؤالها!

- دروس إيه يا خالتي! الدروس والدراسة انتهوا من زمان.

فتدخلت سلوى:

- أوّمال ليه علاء كل يوم سهران عندك؟

- كل يوم سهران عندي؟ لا يا سلوى.. إنتي غلطانة.. علاء فعلا بيزورني.. لكن مش كل يوم.. ومايسهرش زي ما بتقولي.

فعبت أمها:

- إبنّي من يوم ما راح يدي دروس لولادك.. وهو مهمّل ولاده

وسايبهم من غير مصاريف.. ولا حتى عايز يشوفهم.. والناس يقولوا إنه يوماتي سهران عندك.

- كدايين يا خالتي.. علاء عمره ما سهر عندي.. وأحلف لك بإيه إني فين وفين لما باشوفه.

فسكتت السيدة ياسا.. حتى قالت والحيرة تمزق صوتها:

- مصدقاكي يا بنتي.

لكني هتفت لنفسي: ها أنا أكذب.. والكذب بداية الضياع.

وفورا نزلت أهاتف بدرية:

- اللي كنت خايفة منه حصل يا بدرية.

- حصل إيه؟

فحكيت لها.. فإذا بها تقول:

- أما إنك خايفة بصحيح.

- ليه؟

- يا حبيبتي كنتي تصارحي أمه وأخته بالحقيقة.

- حقيقة إيه؟

- إن سي علاء بيزورك فعلا.. وكل يوم.. بس الذنب مش ذنبك..

لأنه مش صغير وماحدث بيضربه على إيده.. ثم إن بيتك مفتوح لأي حد.. لعلاء ولغير علاء.

وأتلج كلامها صدري، فهو بالضبط ما كنت أريد وأحب أن أسمعه..
ومع ذلك قلت لها:

- بس أنا حاسة بالذنب ناحية عياله.. حاسة إنه ساييهم بسببي.

- يا حبيبتى دي مسؤوليته هو مش مسؤوليتك انتي.

- مش عارفة يا بدرية.. خايقة أكون بعمل حاجة غلط.

- صدقيني لأ.

وهذا أيضا كان رأي علاء:

- إحنا مابنعملش حاجة غلط.

- لكن شكلنا قدام الناس إننا بنعمل حاجة غلط.

- طظ في الناس.

- الناس دول يا علاء.. يبقوا أمك وأختك ومراتك وعيالك.

وهنا صاح بعصبية يضرب كفا بكف:

- أنا مش عارف إيه حكاية أمي وأختي.. هما معايا وللا مع مراتي..

كمان هما مش أوصياء عليا.. ولما اعمل حاجة غلط يبقوا يحاسبوني..

أما اللي ما تتسمى مراتي.. فدي واحدة لو عندها ذرة كرامة.. كانت

تسييني في حالي وتغور في ستين داهية بعيد عني.. كفاية اللي شفته

منها.. أما عيالي.. من بكرة ح ابعتلهم المصروف اللي يكفيهم وزيادة.

ولكني أجبرته ألا يزورني ثانية..

وكاد يجن..

وأنا أيضا..

لكننا عوضنا اللقاءات المنزلية باللقاء عبر الهاتف، بالنهار يظل يكلمني وأنا في المستشفى حتى أعود للمنزل، وفي المساء يكلمني إلى ما بعد منتصف الليل، ليتركني في النهاية أنام على فراش متقد بالحرائق.

حتى اتصل يوما يطلب أن نتقابل خارج البيت، فقلت:

- لا يا علاء.. إنت عايز تفضحني؟

- أفضحك؟

- أيوه تفضحني.. الناس هنا كلهم عارفين بعض.. لو قابلتك برة الخبر ح يوصل في الحال لأملك وأختك ومراتك.. وتبقى فضحيتنا بجلاجل.

- طيب والعمل؟ ما انا لازم أشوفك.

ودغدغتني (ما انا لازم أشوفك)

ومع ذلك قلت:

- عايز تعرف إيه العمل يا علاء؟

- أيوه..

- العمل إنك تستهدى بالله وترجع لمراتك وبيتك وعيالك.. مراتك يا علاء ست ولا كل الستات.. وهي وعيالك أولى بيك مني..

أنا كما ن عيالي أولى بيا منك .. وفي النهاية أنا حياتي مرتبطة بيهم مش بحد
تاني .. فعشان خاطري يا ابن الناس .. سييني في حالي وروح لحالك .

فإذا به يرد بمنتهى الألم :

- ده آخر كلام عندك؟

- أيوه يا علاء ده آخر كلام عندي .

أقسم بالله كنت صادقة!

لكنه فاجأني :

- بس لو انتي عندك استعداد نبعد عن بعض .. أنا ما عنديش .. أو
ما قدرش .

ووجدتها فرصة لأسأله السؤال الذي طالما تمنيت أن أسأله له وكنت
أخجل .. أو السؤال الذي سيكشف كيف ينظر للعلاقة بيننا :

- يعني إيه ماتقدرش يا علاء؟ هو انت بتحبني؟

وتعمدت أن يكون السؤال حادا وبلهجة مفعمة بالاستنكار، كأن
حبه لي شيء مستنكر، أو لا يجوز له من الأساس، أو سقطة منه يُلام
ويؤاخذ عليها!

وكما توقعت لم يرد!

وكنت أتمنى أن يرد، يرد لكي نفتح حديثا نتصارح خلاله بالحقيقة،
الحقيقة التي لا يستطيع أن ينكرها لا هو ولا أنا .. أنه يشتيني لا
يحبني .. وكل مبتغاه فقط أن ينالني كامرأة، أيضا كنت أريد أن يعرف

أنني أعرف هذه الحقيقة .. أنه يشتهيني ولا يحبني .

وطال صمته .. لا أدري هل بسبب مفاجأة السؤال ولهجته، أم لأنه فهم غرضي منه ويديره الآن في رأسه .. وأيا كان فصمته طويلا هكذا يدل على أنه فعلا لا يحبني .

لكنه فاجأني ثانية يقول:

- أيوه بحبك .. وانتي كمان بتحبيني وماتقدريش تنكري .

ولخبطتني كلماته .. بالذات آخر كلمتين!

لأجد نفسي غارقة في بحر من العذاب والحيرة .. والنشوة!

العذاب لكلمة (بحبك)

تلك التي خرجت منه بإحساس مفعم بالألم، ألم من يحب بيأس وبلا أمل، أيضا هي الكلمة التي لم أسمعها في حياتي قط، حتى من الرجل الذي أحببته بقلبي ومنحته شرفي!

والحيرة لأنني متأكدة أن علاء لا يحبني .. بل يشتهيني!

أما النشوة ..

فللخدر الذي سرى بجسدي وهو يقول (وماتقدريش تنكري) .. فلا أنكر أن الكلمتين دغدغتا على نحو ما .. مشاعري كامرأة!

وشعرت أن كلماته تحاصرني، فقررت أن أهرب منها ومنه، فلم أجد إلا زر إنهاء المكالمات .. فضغطته .. ثم ضغطت زر إغلاق الهاتف نفسه، ثم انخرطت في بكاء طويل، ولم أفتح الهاتف إلا بعد ساعات،

لأجد ذاكرته مليئة برسائل كلها من أشرف مفادها إنه اتصل بي كثيرا،
ولم يكن بينها رسالة واحدة من علاء! فاتصلت بابني بكل ما في نفسي
من شوق إليه:

- أشرف.. عامل إيه يا حبيبي؟

- إزيك يا ماما؟

- إزيك انت يا روح ماما؟

فإذا به بعد صمت يقول:

- أنا تعبان قوي يا ماما.

- ليه كفى الله الشر.. مالك يا نور عيني؟

- بصراحة الشغل هنا صعب قوي.. من سبعة الصبح لسبعة بالليل..
والمرتب طلع نص الي قالوا لنا عليه.. وباصرف أكثر من نصه على
الأكل والشرب والسكن.. والباقي على العلاج.

- العلاج! ليه؟

- صدري تاعبني قوي من ساعة ما جيت هنا.

- حبيبي إنت مش بتاخذ الفندكسين الي بترتاح عليه؟

- مش موجود هنا.. باخد البديل بتاعه.. بس مش عامل حاجة
رغم إنه أغلى.

ولم أرد على فلذة كبدي عجزا وحيرة.. حتى قال:

- ماما.. أنا عايز أنزل.

- تنزل؟

- أيوه.

- إنت تعبان للدرجة دي يا أشرف؟

- أيوه.

- خلاص.. انزل يا حبيبي.

- يبقى انتظريني بعد بكرة.

- في انتظارك يا حبيبي.. وتيجي بالسلامة.

وذهب ذهني يتخيل رد فعل علاء!

* * *

حتى شعرت كم أنا في أشد الحاجة لأفضفض لبدرية، أو في الحقيقة
لأعترف لها.. لكنها فاجأتني تقول:

- باركي لي يا مهرة.

- مبروك يا حبيبتي.. على إيه؟

- أنا حامل في أول شهر.

- ألف ألف مبروك.

فإذا بها ترد وضحككتها الماجنة تجلجل:

- عقبالك.

فوبختها، لكن بهمس، فالكلمة فعلا أخذتني:

- يا مجرمة.

- ياختي فرفشي ماحدث واخذ منها حاجة.

- يا بختك يا بدرية.. دايا مش شايلة للدنيا همّ.

- بالعكس يا مرمر.. ده أنا مهمومة ع الآخر وحياتك.

- ليه؟

- خايفة الحمل يسقط زي كل مرة.. ساعتها الحاج بيخلي عيشتي

هباب.

ثم أردفت:

- عارفة يا مرمر.. لو أول شهرين عدّوا على خير.. يبقى الحمل

ح يثبت.

وإذا بى وكما أصبحت عادتى.. أمازحها بمزاح خارج:

- لو كان شغل الحاج مضبوط.. يبقى الحمل ح يثبت.

- حاج؟ حاج مين؟ وليد وبس يا حبيبتى.

أعلم طبعا أنه وليد، حتى انتبهت لها تقول:

- بس بصراحة.. مش وليد لوحده.

- نهارك اسود! قصدك إيه؟

- قصدي الأعشاب اللي باخدها.. وحاجات تانية وليد ياخذها.

- حاجات إيه؟

- لا.. حاجات كده اللي زيك مايعرفهاش.

- طيب ما تقولي لي عليها.

- لا.. لما تتجوزي الأول.

وعادت تجلجل بالضحك.. وأيضاً أخذني الكلام!

وقبل أن أفضفض لها بموضوع علاء، جاءتني مكالمة على الانتظار..
وكان أشرف.. وفورا أغلقت معها لأكلمه:

- أشرف.. إنت فين دلوقت يا حبيبي؟

- أنا وصلت دمياط.. ودقايق وأكون عندك.

وجاء ابني، وضممته لصدري أقبله وأبكي، ويا لو خز ضميري
عندما سعل في حضني، فبالغت أضمه وأقبله، ثم تحول بكائي لنحيب،
فقال متعجباً:

- إيه ده يا ماما؟ أومال لما اسافر برة ح تعملي إيه؟

- تسافر برة؟ مش ممكن يا حبيبي أسيبك تسافر تاني.. لا برة ولا جوة.

- ماظنش يا ماما.. أنا لازم أسافر برة.. دي أمنية حياتي.

فلم أعلق وقبلته قبلة أخيرة قبل أن أذهب أعد له العشاء، ثم رن

هاتفني من حيث تركته.. ويا مصيبيتي.. إنها النعمة المخصصة لعلاء،
وكالمجنونة أسرع للهاتف قبل أن يسبقني أشرف ويرد.. وفعلًا
أدرسته على آخر اللحظة:

- أيوه يا بدرية.

واستغرب علاء.. طبعًا لم يدر بخلده أن من أجبرنا على هذا التمويه
المكرر، يقف الآن أمامي على بعد خطوات، واضطرت أن أذهب لمخدعي
وأحدثه هامسة:

- أيوه يا علاء.. أشرف هنا.

- أشرف؟ هو رجع؟

- أيوه.

- إمتى؟

- دلوقت حالًا.

فصمت، فذهب ذهني يتخيل تعبيرات وجهه الآن.. لا شك أنها
خليط من الحنق والحزن والإحباط.. حتى قال:

- ضروري أقابلك بكرة يا مهرة.. فيه مفاجأة حلوة.

- مفاجأة إيه؟

- ح تعرفي لما نتقابل.

وتأكد ظني كم هو محبط.. فكلمة (حلوة) خرجت منه ميتة بلا
إحساس.. وانتبهت على أشرف خلفي يهتف:

- ماما.. إدينى طنط بدرية أكلمها.. عايزها تشوف لي شغلانة غير
بتاعة شرم الشيخ.. بس تكون هنا.

- مش وقته يا أشرف.

ثم لعلاء:

- خلاص يا بدرية.. ح اكلمك بكرة وانا خارجة من المستشفى.
وفورا أغلقت الهاتف.

وفي الغد اتصلت بعلاء بمجرد خروجي من المستشفى:

- ألو يا علاء.

فرد مازحا:

- علاء وللا بدرية؟

ثم أردف:

- على فكرة.. أنا شايفك وانتي واقفة على باب المستشفى.

- يا نهار إسود! طيب إوعى تقرب مني لا حد يشوفنا.

- أنا جوة العربية الحمرا اللي واقفة بعد الباب بشوية.

عربية؟

أعرف أنه لا يملك سيارة!

هل تكون هي المفاجأة الحلوة؟

وفعلا لمحتها حمراء على بعد أمتار وهو بداخلها، فاقتربت منها
بحذر، وبسرعة ركبت بجواره أقول:

- امشى بسرعة لا حد يشوفنا.

فانطلق من فوره وقلبي يخفق رعبا، فأعين الناس هنا ترصد كل
شيء، ولم أتنفس الصعداء إلا عندما أصبحنا على الطريق السريع خارج
عزبة البرج كلها، ولحظتها فقط عدت أتكلم:

- معقول جنانك ده يا علاء؟

- طيب مش تباركي لي الأول على العربية.

- مبروك.. اشتريتها إمتى؟

- ماشتريتهاش.

- أجرتها؟

- لاء.

- بتاعة واحد صاحبك؟

- لاء.. بتاعة الشركة.. استلمتها بحكم الوظيفة.. أنا بقيت نائب
مدير المبيعات.. يعني نائب جوز سلوى.. وبالتالي من حقي أركب
عربية من بتوع الشركة.

- يبقى مبروك مرتين.. مرة على الترقية ومرة على العربية.

- يبقى الله يبارك فيكي مرتين.

وضحكنا.. ثم وجدته يهدئ السرعة شيئاً فشيئاً، حتى توقف في بقعة مظلمة تماماً على يمين الطريق، وبدأ قلبي يخفق مجدداً، لكن بخفقان مختلف، فنظراته عادت جريئة وتوحي بأشياء، فسألته مرتبكة:

-وقفت ليه؟

فلم يرد، ولم أر من وجهه إلا النظرات، ألمحها على ضوء السيارات المارقة، وطال بنا الصمت حتى عدت أسأله:

-وقفت ليه يا علاء؟ أنا لازم أرجع حالا قبل ما أشرف يحس اني اتأخرت.

-هو رجع ليه من شرم الشيخ؟

-بيقول الشغل هناك تعب.. والمرتب طلع نص المتفق عليه.

-مع إني مو صيهم يشغلوه في التركيبات مش في الصيانة.

-مش عارفة.

ثم عدنا للصمت، ولم أعد أسمع إلا صوت السيارات المارقة، ومعها صوت دقات قلبي، لأن نظرات علاء الآن أصبحت تحمل ما لا أتحملة، وشجعني أننا خارج عزبة البرج كلها على أن نتصارح:

-علاء.. بصراحة كده.. إنت عايز مني إيه؟

-كل ده ولسه مش عارفة؟

-أحب أسمع منك.

-معقول يا مهرة مش حاسة بيا؟

- حاسة يا علاء.. بس...

- بس إيه؟

- إنت عارف وأنا عارفة.

- عارف إيه؟

- إن اللي بيتأده مش حب.

- أو مال إيه؟

- برضه إنت عارف وأنا عارفة.

فإذا به يقول:

- خلاص.. شوفي انتي إيه شكل العلاقة اللي عايزاها تربطنا.. وانا تحت أمرك.

- يعني إيه!

- يعني عايزة تبقي مراتي؟ ماشي.. عايزة تبقي حبيبتي وبس؟ ماشي.. عايزة تبقي عشيقتي؟ برضه ماشي.. اللي انتي عايزاه.

فقلت شاردة كأني أحدث نفسي، أو كأنني لست أنا التي تتكلم:

- مراتك؟ لأ.. كله إلا مراتك.. أنا الجواز بالنسبالي مشكلة كبيرة قوي.

وحتى هو بدا غير مرحب بالزواج، لأنه فوراً قال:

- خلاص.. تبقي حبيبتي أو عشيقتي.

وعدت أشرد وأقول:

- عشيقتك؟ برضه لأ.

- تبقي حببتي.

- طيب وآخرتها يا علاء؟

- آخرتها زي أولها.. نبقي لبعض وخلص.

- يا علاء إنت راجل متجوز وعندك ولاد.. ومراتك ست زي
الفل و...

وقاطعني:

- مهرة.. سبق وقلت لك بلاش نتكلم في موضوع مراتي ده تاني..
لو سمحتي.

- ماشي.. بس الأول أعرف إيه عيب مراتك اللي عايز تسيبها عشاني؟
وهنا ثار:

- مش ح اسيبها عشانك.. أنا باكرها من غيرك.. فاهمة يعني إيه
باكرها.. وأظن إن ده سبب كافي عشان أسيبها.. وكم إن سبب كافي
عشان ماتجيبش سيرتها تاني قدامي.

- وتفكر يا علاء إني ح اقبل آخذك منها ومن ولادك؟

- قلت لك قبل كده إن هي اللي مش عايزاني.. هي اللي رافعة قضية
عايزة الطلاق.

- وإيه يعني؟ ممكن تتصالحوا وترجعوا لبعض.

- وتفتكرى كرامتي تسمح اني أرجع لواحدة عايزة تخلص مني؟

فلم أجد ردا.. وشعر هو أنه كان عارما في ثورته أكثر مما ينبغي..
فاعتذر.. وفي الظلام فوجئت بيده تتحسس يدي، في البداية أجفلت
وسحبته، لكنه كان مصمما أن يمسكها.. فتركها له.. لتشتعل حرائقي!
ومشكلتي مع هذا الرجل، أنه يعرف كيف يشعل حرائقي، يشعلها كما
تشعل الشمس الملهبة نف القطن الجاف!

ثم.. ثم حاول أن يقبلني، لكن قائدي السيارات المارة بنا كانوا قد
بدأوا يتبهون لسيارتنا الواقفة في الظلام، فبدأوا يسلطون الأضواء
عليها، وبدأنا نسمع تعليقاتهم، فقلت خائفة:

- علاء.. يللا نمشي من هنا!

فأدار المحرك وانطلق، ولم يكن مستاءً، بل كان في قمة سعادته
ونشوته.. وكنت مثله.. وبعد أن سرنا مسافة قال هامسا:

- إوعي تفتكري ان المفاجأة كانت العربية وبس.

فقلت هامسة أيضا:

- فيه إيه تاني؟

- عارفة طبعا إن بعد بكرة أجازة رسمية.

- عارفة.

- فرصة نطلع اسكندرية بالعربية.. وهناك ح افسحك فسحة
ماحصلتش.

- لا يا علاء.. كله إلا كده.

- ليه؟

ورحت أفتش في ذهني عن سبب مقنع للرفض، فلم أجد.. ولعلنى كنت أريد ألا أجد! حتى قلت في النهاية:

- الولاد يا علاء.. بالذات أشرف.

وكما توقعت، همس لنفسه بكلمات غاضبة، لكن كلمة أشرف كانت واضحة جدا بينها.. وعندما انتبه تدارك:

- أشرف مابقاش صغير يا مهرة.. يعني ممكن يسبب حضنك ولو يوم واحد.

ثم مازحا:

- إيه رأيك لو شفنا له عروسة وجوزناه؟

رباه.. إنه يتكلم بصيغة المثني! أنا وهو!

- مش لما أجوز اخته الأول.

- نسمة مش مشكلة.. أشرف هو المشكلة.

رباه.. ها هو مكنون صدره يخونه ويخرج رغما عنه!

أو لعله يعتمد ذلك!

وعموما سألته بدهشة مصطنعة:

- أشرف مشكلة؟ مشكلة في إيه بالضبط؟

واحترار بماذا يردد.. لكنه قال محاولاً إزالة أثر كلامه من نفسي:

- أقصد إن نسمة بكرة العرسان يخطفوها.. دي بنت زي القمر
وألف واحد يتمناها.. لكن أشرف.. أنا شايف إنك واخداه في حضنك
أكثر من اللازم.

- عشان مريض.

- ولو.. ده مايمنعش إنه في يوم من الأيام ح يتجوز.. عشان كده
لازم يتعود يسبب حضنك من دلوقت.

وهكذا وفي أقل من دقيقة، باح علاء بمكنون صدره مرتين! يا
إلهي.. لهذه الدرجة يرى أن أشرف عقبة بيننا لا بد أن تُزال؟ للأسف
نعم.. والدليل شرم الشيخ..

وعاد يقول:

- ها.. قلتي إيه في رحلة اسكندرية؟

- موافقة.. بس بشرط.

- إيه هو؟

- بدرية صاحبتني تيجي معانا.

- مين بدرية؟ آه.. مش دي اللي انتي مسجلة رقمي باسمها؟

- أيوه.

- أنا كنت فاكرها شخصية وهمية.

- دي حبييتي وصاحبتي الروح بالروح.

- وعازها تيجي معانا ليه؟

- أهو كده وخلاص.. وده شرطي الوحيد.

ولم أقل له لأن وجودها يمنحني الأمان، بالطبع أنا لا أخافه، لكني مع بدرية أستمد من قوتها قوة ومن جرأتها جرأة، وأشعر أن حبها للحياة وإقبالها عليها، سيشجعني لأقبل على ما هو متوقع من رجل مثل علاء!
- خلاص يا ستي.. تيجي معانا.. بس يا رب تكون بحبوحه ومش معقدة.

وفهمت قصده.. فهمست في نفسي ضاحكة: أه لو تعرف كم هي بحبوحه!

وليلاً ومن فوق فراشي المتقد بالحرائق، اتصلت ببدرية لأخبرها، فقالت تشاكسني كما كنت أتوقع:

- سيدي يا سيدي.. إسكندرية مرة واحدة.. ده احنا كنا في جرة وطلعنا لبرة يا ست مرمر.

- طبعاًح تيجي معايا يا بدرية؟

- طبعاً يا حبييتي.. ده أنا اللي ح انظملكو الرحلة.. أنا دايسة اسكندرية كويس وعارفها حته حته.

- هايل يا بدرية.. بس الحاج ح يوافق؟

- وهو يقدر يقول لأ.

- يبقى اتفقنا.

ثم أخبرتها بكل ما دار بيني وبين علاء، بالذات ما قاله عن شكل العلاقة التي يريد أن تربطنا.. ثم ختمت أسأله:

- تفتكري كنت غلطانة لما قولته بلاش جواز؟

- يعني.. ولو ضروري الجواز يبقى تتجوزيه عرفي.

- لا يا بدرية.. كله إلا العرفي.

- يا حبيبتى مش ح تفرق.. عرفي شرعي حب عشق.. المهم زي ما قال سي علاء.. تكونوا لبعض وخلاص.

ثم فجأة قالت:

- مهرة.. نتكلم يا حبيبتى في الموضوع ده في اسكندرية براحتنا.. مضطرة أسيبك دلوقت.

- خير؟

قالت بضحكة:

- وليد بيشاور لي أجهز له الحمام.

وتناهى لأذني صوت صرخاته..

في الغد، وللمرة الثانية، تجمعني الظروف بزوجة علاء، جاءني الخبر بأن والدته أغمي عليها فجأة، فهرعت فوراً إليها، لكنها كانت إغماءة إرهاب لا أكثر، وجاءت جلستي قبالة زوجة علاء، وهذه المرة انتابني

إحساس جديد تجاهها.. إنها لا ينقصها شيء لتكون زوجة مثالية..
فجانب جمالها الوافر وطبعها الهادئ، لمست أسلوبها الراقى من حديثها
وتعاملها مع من حولها، حتى إن شيئاً من الغيرة تسلل فجأة إلى نفسي!
حتى جاء علاء.. وما إن رآته زوجته يخطو نحوى، حتى قامت
تسحبه لإحدى الغرف وتغلق الباب، ثم يأتيني صوتهما عالياً:

- هي مش مصاريفك ومصاريف عيالك بتوصلك لحد عندك؟
عايزة مني إيه تاني؟

- أنا مشكلتي معاك مش المصاريف وانت عارف.
- اخرسي.

- لو عندك كرامة صحيح ماتنطقش كلمة (اخرسي) دي أبدا.
فسمعت صراخها ثم.. المفاجأة.. كلمات فهمت منها أن شقة
الزوجية الخاصة بهما، هي في الأساس شقتها لا شقته! وعاد صوتهما
يرتفع ويدل على أن شجارهما سيتطور للأسوأ، وأن اسمي قد يتردد
خلاله! فأسرعت أنصرف.

وقبل دخولي المنزل بلحظات، إذا بعلاء يتصل:
- إنتي مشيتي ليه؟

- الظرف والمكان مش مناسبين يا علاء.

- معاكي حق.. لكن طبعا إحنا متفقين على رحلة اسكندرية؟
- هه.. آه طبعا متفقين.

كنت مشغولة أفكر والحيرة تقتلني، لماذا أخفى علاء أن شقة الزوجية هي ملك زوجته وليست ملكه! وبالتالي فطمعها فيها كما ادعى، لن يستقيم أن يكون هو سبب الخلاف بينهما!

وانتهت إليه يقول:

- إنتي وصلتي البيت وللا لسه؟

- وصلت.. لكن ح اكلمك بعد ما الولاد يناموا.

ولأن غدا إجازة، لم تنم نسمة إلا متأخرة، وانتظرت طويلا عودة أشرف فلم يعد، فاتصلت بعلاء، وكالعادة (كنسل) واتصل هو:

- معقول يا مهرة كل ده والولاد ماناموش؟

- المهم يا علاء.. ح نتقابل بكرة ازاي؟

- ح اجيلك بالعربية عند البيت.

- لأ.. إوعى تعمل كده.

- ليه؟

- ماحبش حد يشوفني باركب معاك عربية.

- طيب ح اجيلك عند المستشفى.

- ولا المستشفى.. ولا أي حته في عزبة البرج كلها.

- أو مال أجيلك فين؟

- بدرية ح تيجي من فارسكور بعربيتها.. ح تاخدني من عند البيت

لحد الطريق السريع.. وهناك نتقابل في المكان اللي انت عارفه.

- هایل.. كده تمام.

ثم استطرد:

- ح تقولي إيه لأشرف ونسمة؟

- ح اقول لهم رغم ان بكرة أجازة.. بس عندنا شغل ضروري في المستشفى من الصبح لحد بالليل ويمكن أبات.

- هایل.. تمام كده.

ثم أردت أن أسأله عن تفاصيل الرحلة، ماذا سنفعل في الإسكندرية وأين سنذهب هناك، لكن أشرف لم يعطيني الفرصة، سمعت مفتاحه يدور في الباب، فأسرعت أخبر علاء وأغلق الخط.

وصباح باكر استيقظت على بدرية تتصل تخبرني بأنها في الطريق، فأسرعت أجهز نفسي، وحرصت على أن أنزل وأشرف ونسمة نائمين، فلا يجب أن يشاهداني متأنقة هكذا، وبملابس وزينة على غير المعتاد.

ورغم أنها مفاجأة.. فإنني كنت أتوقعها.. جاءت بدرية ومعها وليد! ونظرت للشاب.. أو الرجل.. ما أشد ما تغير، لم أره منذ فعلته مع بدرية في حفل زفافها، الآن يبدو أكثر وجاهة وأناقة، شارب منسق بعناية، وهندام لاف للنظر، وعطر راق يفوح منه، وطبعاً كل ذلك بذوق بدرية، أيضاً الشامة السوداء على صدغه الأيسر، اتسعت رقعتها لتزيد وجهه وسامة.

لكن المفاجأة الكبرى.. بدرية نفسها!

كانت ترتدي النقاب!

والحقيقة بدت عيناها من خلاله أكثر جمالا وروعة وسحرا وفتنة،
وفسرت لي وهي تضميني وتضحك:

- أعمل إيه؟ الحاج عايزني كده.

- بس بصراحة يا بدارة.. زي القمر.

- بجد؟ حلو النقاب عليا؟

- آه والله.

- بس لما باخرج لوحدي باقلعه.. مابلبسهوش خالص إلا قدام الحاج.

- طيب ولا بساه ليه دلوقت؟

- عشان تشوفيني بيه وتقولي لي رأيك.

- والله العظيم قمر.

وفعلا لحظات وخلعته..

وجاء وليد يصافحني ويتبسم، ويغمغم بكلمات غير مفهومة، لكن
بدرية فسرتها:

- بيقول لك إنه لسه فاكرك.

فوجدتني أربت على ظهره بحنان، وأفهمته أنني أيضا ما زلت
أذكره، فضحك بسعادة، وقالت بدرية وأنا أركب بجوارها:

- معلىش يا مرم.. كان لازم أجيبه معايا.

- إخص عليكى يا بدرية.. ده أنا كنت ازعل منك لو كنتى ماجيبتيهوش.

- أنا قلت مش معقول ح اقعد أتفرج عليكى انتى وسي علاء.

- بصراحة خير ما فعلتى.

وضحكنا الضحكات إياها، ودقائق وكنا على الطريق السريع،
ووجدنا علاء فى انتظارنا، بدرية لم تكن تعرفه إلا من كلامى عنه، لذا
حملت فيه لحظات وأنا أقدمه لها، ثم صافحته مع ابتسامة، ثم قدمت
له وليد بنفسها:

- وليد.. قريبى.

وبدا علاء ممتعضا لوجوده، إذ مديده يصافحه بشيء من البرود:

- أهلا أستاذ وليد.

لكن وليد لم يعره اهتماما، ولأن علاء لم يكن على دراية بظروفه ازداد
امتعضا، فأسرعت بدرية تقول:

- معلش يا أستاذ علاء.. عنده نوع من التخلف العقلي.

فأسرع يقول:

- آه.. أنا آسف.. آسف جدا.

وأودعت بدرية سيارتها أحد الجراجات العمومية، وانطلقنا بسيارة
علاء.

وشعرت أنني أنطلق لدنيا جديدة.. أول مرة فى حياتى أخرج فى

خروجة كهذه، في حياتي كلها لم أخرج خارج ما كنت أسكن إلا ثلاث مرات، الأولى عندما خرجت من قطور لدمياط، والثانية من فارسكور لعزبة البرج، والثالثة خروجتي هذه.. ولم أكف طول الطريق عن التطلع حولي يمينا ويسارا، أرى الناس والبيوت والحقول حولي تبدو أكثر جمالا، أو كأنني أراها للمرة الأولى، وأشعر كم هي جميلة الحياة وتستحق أن تُعاش.. وكما تعيشها بدرية.. بالطول وبالعرض!

آه يا نفسي..

كم حرموك طويلا بلا سبب.. من متع كثيرة بلا ذنب.

ويا للسعادة حين تأتي من أبسط الأشياء، مس علاء زر الراديو، فانبعث صوت وردة تشدو «احضنوا الأيام».. وأخذتني الأغنية لجو آخر، خاصة حين أمسك علاء يدي ليضغطها.. ففكرتها له! ولكن.. لماذا ألمحه من حين لآخر يختلس النظر لبدرية من خلال مرآة السيارة؟ هل راقته له وراق لها؟ أم أنها تمارس الغرام مع وليد وهو يراقبها؟ ولم تهدأ نفسي.. هل يمكن لبدرية أن تخونني؟

أيام مراهقتنا في قطور كان ثمة عهد خفي بيننا، ألا أخونها ولا تخونني، لا أخطف منها شابا أعجبها ولا تخطف مني شابا أعجبني! ولكن علاء رجل يثير إعجاب النساء، وهو يريد منهن ما يريد أي رجل، وبدرية امرأة تثير إعجاب الرجال وتريد منهم ما تريده أية امرأة، إضافة إلى أنها تريد الولد، تريده من أي رجل وبأي ثمن.. والدليل وليد.. فهل يمنعها عهد قطور عن علاء؟

وقطعا للشك باليقين، استدرت لها فجأة كأنني سأحدثها في أمر ما..

فلم أجدها تمارس غراما أو غيره، فقط يدها على كتف وليد ويده على كتفها.. فعدت أراقب علاء، ما زال حتى اللحظة يجتلس إليها النظر في المرأة! حتى كدت أجن!

حتى توقف أمام ورشة ونزل يضبط هواء الإطارات، فوجدتها فرصة لأسأله:

- بدرية.. إيه رأيك في علاء؟

- عايزة الصراحة؟

- طبعا.

- يا باي على تناكته وتقل دمه.

فضحكت في نفسي، وضحكت أكثر عندما عرفت الحقيقة.. أن قائد السيارة من حين لآخر لا بد أن ينظر في المرأة الخلفية.. وإن شعرت برغبة جامحة أن أسأل بدرية: لماذا رأيت في علاء أنه (تيناك ودمه ثقيل)، وتذكرت أن هذا كان رأى بعضهن فيه، بعضهن اللاتي كان ييازهن حين رأيته أول مرة عند أمه.. فعدت أضحك!

وسألته بدرية حين عاد:

- أستاذ علاء.. تعرف اسكندرية كويس؟

فرد بثقة:

- طبعا.

- هايل.. تعرف حتة هناك اسمها الجبل؟

- الجبل؟

- أيوه.. جبل ناعسة.

- لأ ماعرفهوش.

- طيب تعرف حته اسمها البياصة؟

- البياصة؟

- أيوه.

- لأ ماعرفهاش.

- طيب تعرف الزنقة؟

- الزنقة؟

- أيوه.. زنقة الستات.

- لأ ماعرفهاش.

فخرجت منها ضحكة سخرية.. ضحكة ضايقت علاء بالفعل.

وعز على نفسه أن يبدو جاهلا بالإسكندرية أمامي، ولم يكن يعلم أن بديرية تعرف الاسكندرية جيدا، ولكي يداري جهله أمامي وأمامها، زاد الطين بلة، أردف يقول لها وبنقة مستفزة:

- مفيش حته في اسكندرية اسمها زنقة الستات.

فسأله بتحد:

- متأكد؟

- أيوه متأكد.

فلكرته غيظا في كتفه تقول:

- بلاش تعمل أبو العُريف وانت مابتعرفش

فأسرع يقول كأنه تذكر:

- أيوه أيوه.. زنقة الستات.. عارفها.

ولكن بدرية تجاهلته، فعاد يزيد الطين بلة ويستفزها، عاد يقول
وهذه المرة بتأفف:

- زنقة إيه بس وجبل إيه اللي احنا جايين اسكندرية عشانهم؟ إنتي
عايزة إيه من الحنت اللي زي دي؟
وهنا خبطته بدرية في ظهره قائلة:

- عايز تعرف عايزة إيه؟ من جبل ناعسة عايزة اشتري حشيش..
ومن الزنقة عايزة اشتري كلونات وقمصان نوم.

فوجم وسكت تماما!

ومن مكرها أرادت أن تفضح جهله أكثر وبحيث لا يستطيع أن
يداريه، فسألته:

- بتقول عارف الزنقة؟

- أيوه.

- طيب تعرف توصل لها من محطة الرمل؟

- محطة الرمل؟

- إيه؟ ماتعرفهاش دي كمان؟

وارتسمت على وجهه علامات الارتباك، فصاحت به:

- أستاذ علاء.. لتاني مرة بأسألك.. تعرف اسكندرية كويس؟

وينظرات زائغة أجاب:

- بصراحة ماعرفش فيها إلا مكان واحد.

- إيه هو؟

- جناين المنتزة.

وهنا خبطته في رأسه:

- آه يا نيمس.. إשמعنى دي بالذات اللي عارفها؟

ثم خبطة أخرى وبسخرية:

- ويا خوفي لتكون بتقول عارفها وانت مش عارفها.

ثم انطلقت تقهقه!

وأدركت أنا لماذا لم يرق لها علاء من البداية!

ولأول مرة يخامرني شعور بخيبة الأمل فيه!

كنت أتمنى لو كان يعرف!

وحمدت الله في سري أن بدرية جاءت معنا، فمعرفتها بالإسكندرية
هكذا زادتني إحساسا بالأمان! ولفنا الصمت باقي الطريق، لكن هي
ووليد في واد، وأنا وعلاء في واد آخر، حتى وصلنا الإسكندرية، فقالت
بدرية التي أصبحت في نظري وبحكم الواقع، هي قائد الرحلة:

- حمدالله ع السلامة يا جماعة.. الأول ح نروح نفطر فول في مطعم
المصري في شارع البورصة القديمة.. فول اسكندرا في معتبر وصاحبه
حببي الروح بالروح.. وبعدين ح نتمشى في محطة الرمل والمنشية
ونتسوق من هناك.. وبعدين نتغدى سمك وجمبري في بحري.. وبعدين
نروح الجبل.. وبعد الجبل...

فقاطعها علاء معترضا:

- لأ.. لازم الأول نروح جنائن المنتزة.

- لأ.. الجنائن ح نخليها لآخر اليوم.

وقبل أن يعترض ثانية لكزته لكزة خفيفة في رأسه، فأطرق ولم يعلق!

وقد كان.. بعد الإفطار تمشيينا في محطة الرمل والمنشية، ثم أخذتنا
بدرية فعلا لما تسمى زنقة الستات، وفعلا اشترت منها قمصان نوم
وملابس داخلية.. ملابس تدير الرؤوس فعلا.. ثم ذهبنا نتغدى السمك
والجمبري في بحري، وكطلبها وضعوا لنا المائدة على البحر مباشرة،
فكان غداء رائعاً، ثم ذهبنا لقلعة قايتباي، وعلى سورها اختلى بي علاء،
وأغراه هواء البحر الذي يداعبنا بأن يداعبني، لكن وجود الناس حولنا
منعه من أن يسترسل، فهمس لي:

- لما نروح جناين المنتزة ح ناخذ راحتنا.
- ثم أصر أن نذهب إليها، ولكن بدرية أصرّت أن نذهب أولاً للجبل ناعسة، وفعلت قالت لعلاء بلهجة شبه امرأة:
- أنا قلت المنتزة في آخر اليوم.. ودلوقت بيناع الجبل.
- فاعترض:
- لكن انا ماعرفش الجبل ده.
- يبقى هات مفاتيح العربية.. أنا اللي ح اسوق.
- وانترعت منه المفاتيح، فسألته متعجبة:
- ح نعمل إيه في اللي اسمه الجبل ده يا بدرية؟
- فردت ضاحكة:
- ح اجيب التموين من هناك.
- تموين إيه؟
- لما اجيبه ح تعرفي.
- وقادت السيارة في شوارع الإسكندرية كأنها من أهلها، حتى وصلنا لمنطقة غاية في العشوائية، واستمرت تتوغل فيها والأعين تتابع سيارتنا بفضول، وعند حد معين توقفت وقالت لعلاء:
- اسمعني كويس.. أنا ح انزل وانت ح تاخذ العربية وتمشي من هنا حالا.. وبعد ربع ساعة بالظبط ترجع تاخذني من هنا برضه.

وشممت في كلامها رائحة مغامرة ما، فشعرت بخوف عليها،
فقلت:

- ح آجي معاكي يا بدرية.

فصرخت:

- إوعي تنزلي من العربية.. واعمل يا علاء زي ما قلت لك.

ووضعت النقاب على وجهها وأخذت وليد وانطلقت، وبعد ربع ساعة عدنا لنجدها في انتظارنا، فركبت ثم أرادت استئناف قيادة السيارة، لكن علاء تشبث بعجلة القيادة وقال بإصرار:

- مستحيل.. ودلوقت بيناع المنتزة.

فرضخت، وتذكرت أنا التموين فسألتها:

- إيه بقى حكاية التموين؟

فقالت ضاحكة وهي تخرج من حقيبتها لفافة صغيرة:

- قرشين حشيش.. يا دوب تموين أسبوع.

فصرخت فيها:

- يا نهارك إسود.

أما علاء فنظر لها ممتعضا، ثم قال وهو لا يستطيع أن يداري نبرة
الخوف في صوته:

- إنتي عارفة لو فتشونا في أي كمين على الطريق ح يعملوا فينا إيه؟

ح ياخذونا في حديد ونروح كلنا في ستين داهية.

فصاحت به:

- لو خايف نزلني.

كانت تتكلم بجذ وتحد، لكنني قلت لها متضامنة مع علاء:

- بصراحة يا بدرية اللي عملتيه ده غلط.

فقلبت لي حقيبتها تقول:

- شايفة الجيب السحري ده؟ لو خبيتي فيه طربة حشيش بحالها..

الجن الأزرق مش ح يعرف طريقها.

ودست فيه الحشيش، فسكتنا.

ووصلنا المنتزة على الغروب، وما إن دخلنا من بوابة الحدائق الضخمة الفخمة، حتى انبهرت بالمنظر الساحر حولي.. أول مرة في حياتي أرى حدائق بهذا الرونق وهذا الاتساع! معه حق علاء في أن يصر على أن تأتي إلى هنا.. أينما نظرت حولي فلا شيء إلا الخضرة الزاهية والأشجار الباسقة والأزهار المنسقة، بجانب نوافير المياه المتدفقة والنسيم العليل المعبق بشذى الزهر ورائحة البحر، فقلت لنفسي وأنا أختلس نظرة لعلاء: وهل تكون الجنة شيئاً آخر غير هذا؟ ماء وخضرة ورجل كهذا.. رجل وإن كنت أعلم أنه لا يجبني للحب، لكنه على الأقل لديه ما تتمناه كل أنثى.. الاهتمام.

ومرة أخرى آه يا نفسي.. كم حرموكِ بلا سبب من متع كثيرة بلا

ذنب!

وأوغلنا بالسيارة في الحداثق الشاسعة، ومن فرط شسوعها حسبتها خالية علينا، لكن من حين لآخر ألمح سيارة تقف هنا أو هناك، نعم مغلفة الزجاج لكن أشياء ما تجرى وراءه! وكلما مررنا بواحدة أطلب من علاء أن يتمهل لنرى ما يجري بداخلها، فيضحك قائلاً:

- مفيش داعي نقطع عليهم

فلا أفهم ماذا يقصد.

حتى وصلنا لبقعة متطرفة كثيفة الشجر، وكان الظلام قد هبط، فهتف علاء:

- ركنة ممتازة للعربية.

وفهمت قصده عندما ركن! فلم تعد السيارة تظهر من بين أدغال الشجر، ولا من الظلام الذي اشتدت حلكته وأصبحنا جزءاً منه! فهنا لن نستطيع أحد أن يقطع علينا خلوتنا! ثم ازدادت فهماً حين تطلعت حولي، فبهمني سحر المكان!

حقاً يا لغموض الليل وسحره في الحداثق هنا.. خصوصاً مع كوكتيل شذا الزهر وعبير البحر الذي يملأ أنفي، مع حفيف الشجر الذي يسري كاهمس في أذني، حتى وجدتني أحلق في عالم كالأساطير، تماماً كأنني في حديقة مسحورة من حداثق ألف ليلة وليلة!

ونظرت خلفي ألتمس بدرية ووليد، فمنذ وصلنا الحداثق لا أسمع لهما صوتاً، فوجدتهما في المقعد الخلفي مندبحين في عالمهما الأسطوري الخاص! فنظرت تلقائياً لعلاء.. والتقت نظرانا.. والآن.. يا لهول ما

بنظراته! ثم لمس يدي أول لمسة، ثم أمسكها، ثم تشابكت أصابعنا، فكان لا بد من أن أهرب إلي شيء، فسألته:

- علاء.. إنت ليه كنت مصمم نيجي هنا؟

وتوقعت أن يقول مثلاً «الجمال وسحر المكان».. لكنه قال:

- عشان ناخذ راحتنا.

طبعاً أفهم قصده، لكني ادعيت عدم الفهم، فعاد يقول:

- هنا نقدر ناخذ راحتنا عن أي مكان تاني.. ده أحسن مكان للعشاق ياخذوا فيه راحتهم.

ثم أردف:

- أنا وصحابي أيام الجامعة.. شبان وبنات.. كنا دايبا نيجي هنا عشان ناخذ راحتنا.

وفضلت أن أظل مدعية عدم الفهم:

- تاخذوا راحتكو في إيه؟

لكن فوجئت به يسرح ببصره.. ثم يقول بصوت حالم:

- عارفة.. جنابن المتزة دي.. لياً معاها ذكريات.. مستحيل أنساها.

ثم أخذ يحدثنني عن ذكرياته مع الحداثق بكلام.. آه وآه من جرأته.. أو.. آه وآه من مجونه! لدرجة أنني كنت أنكس رأسي خجلاً! وعلى الرغم من جرأة حديثه، كان يضطر أحياناً إلى أن يلمح لأشياء، يمنعه

الخنجل حقا أن يصرح بها، ولكنني بإحساس المرأة والأنثى، كنت أفهم ما وراءها بسهولة.

باختصار كلام علاء عن الحقائق، كان يدل على أنها تمثل له ذكريات فعلا لا يستطيع أي رجل أن ينساها.. لأنها باختصار.. ذكريات رجولته الأولى!

ثم عاد يسرح ببصره ويقول:

- عارفة الجنانين دي بتفكرني بإيه كمان؟

- بإيه؟

- بغابات بولونيا.

- غابات إيه؟

- غابات بولونيا.. جنانين العشاق في فرنسا.

- وإيه بقى حكايتها غابات بولونيا دي كمان؟

- زي جنانين المنتزة بالظبط.. أحسن مكان في الدنيا العشاق ياخدوا فيه راحتهم.

- وانت رحت فرنسا؟

- رحتها في صيف سنة أولى جامعة.

- ويا ترى كان ليك عشيقة هناك؟

وتعمد أن يبتسم ولا يرد، كأنه يثير غيرتي.. أعرف طبعا أن رجلا

مثله لا بد أن له في عالم النساء صولات وجولات، وإن كنت فعلا شعرت بالغيرة! ثم تأكدت عندما عاد يقول بنفس الصوت الحالم:

-بس عارفة.. جناين المنتزة أجمل عندي مليون مرة من غابات بولونيا.

-إشمعني؟

- عشان بنات مصر أجمل مليون مرة من بنات فرنسا.

ثم نظر طويلا في عيني، ثم أصبحت نظراته تفضح ما يريد! ولم يُضع وقتا.. امتدت يده تعبت بخصلات شعري.. ثم لوجهي تمسحه برفق.. حتى امتدت يده لـ....

ومن ناحيتي كنت مستعدة بالسيناريو المناسب، التمنّع ثم التدلّل ثم الموافقة! وقد كان.. ثوان وكنا غرقى بحر من النشوة بلا قرار، وحرائق تشتعل أعرف أنها ستقضي على الأخضر واليابس.. فقط رأيت من باب ذر الرماد في العيون.. أن أقاومه قليلا.. فقلت بهمس أعرف أنه لن يسمعه:

- لا يا علاء.. بدرية ووليد.

كنت أكذب وكان يعلم أي أكذب! فأعلم ويعلم أنها تسلا من السيارة منذ زمن، وإذا به يضمني بحيث يكون الاستسلام هو قدري، ثم راح يؤجج حرائقي المشتعلة.. ثم يطفئها.. ثم يشعلها من جديد.. ثم يطفئها.. مرة ومرة ومرات.. وبمهارة لم أعهد لها من قبل قط، لا في بيت الباتعة! ولا حتى في بيتي!

وفي النهاية.. الحرائق لا تحلف إلا الرماد.. لكن حرائقي لم تحلف

رمادا، بل خلفت أحاسيس لا يمكن وصفها، فما أجملها من لحظات حين انهمكنا نعيد إصلاح ثيابنا، ثم نتقاسم ورقات المناديل القليلة المتبقية في العلبة على تابلوه السيارة.. فتتلاقى نظراتنا فنبتسم.. وأيضا حين ألقيت بنفسي في حضنه بلا مقدمات، فمنحني ما كنت أتوق إليه، فيض من القبلات الرقيقة الهادئة، وأيضا حين داعبت تلقائيا زر الراديو، فانبعث صوت نجاة شجيا (ماستغناش عنك بالدنيا مستغناش.. أنا في الحب.. يا احبك إنت يا إما بلاش).

يا لها من أحاسيس.. ويا له من رجل!

ولم تذكر بدرية ووليد إلا وهما قادمين في الظلام، يسبقهما عبثهما وضحكاتهما الصاخبة، فسألت بدرية بخبث لم تخطئه أذناها:

- كنتو فين وبتعملوا إيه؟

فأشارت لسقيفة خوص تبدو رغم الظلام كعُش غرام أعد لعاشقين، ففهمت.. ثم رن هاتفها وكان زوجها:

- أيوه يا حاج.

.....

- ماتقلقش يا روح قلبي.. إحنا أهو راجعين في الطريق.

.....

- تسلم لي يا روح قلبي.. وعلى فكرة.. جايالك معايا مفاجئتين.

.....

- لا.. مش ح اقول لك دلوقت إلا على واحدة بس.. جايالك
حشيش من الصنف اللي بتحبه.

-

- أيوه من المعلم سطوحي.. وعلى فكرة هو باعت لك سلام مخصوص.

-

- لا.. المفاجأة الثانية ح تعرفها لما أجيلك.. سلام.

وهنا تذكرت الوقت، وصعقت أن ساعة الهاتف تخطت العاشرة،
والهاتف نفسه على الوضع الصامت ولاشك أن أشرف ونسمة أشبعاني
اتصالا، وفعلا وجدت نسمة اتصلت مرتين، أما أشرف فعشر مرات،
وسقط قلبي أن يكون اتصل بالمستشفى ثم ذهب يسألهم عني، وبحت
لبدرية بمخاوفي.. ويا للصدفة والمفاجأة.. كان ذلك في اللحظة التي
رن فيها هاتفي وكان أشرف:

- أيوه يا أشرف.

فصرخ:

- إنتي فين يا ماما؟ م الصبح بتصل بيكي مابترديش

وقبل أن أجيب عاد يصرخ:

- سألت عليك في المستشفى قالوا لي ماجاتش النهارده.. فيه إيه؟

ومن لجلجتي وتعبيرات وجهي فهمت بدرية، فأشارت لأعطيتها
الهاتف بسرعة، فألقيته لها، فأسرعت تقول لابني:

- أيوه يا أشرف أنا طنط بدرية.

-

- ماتقلقش على ماما يا أشرف.. مامتك عندي في فارسكور.

-

- ما هي كانت رايحة المستشفى فعلا.. بس انا اتصلت بيها وقلت لها تجيلي بسرعة.. كنت تعبانة وباموت يا أشرف.

-

- الله يسلمك يا حبيبي.. ساعتين بالكثير وماما ح تكون عندك.
وخطفت منها الهاتف أقول:

- اسمع يا أشرف.. اتعشى يا حبيبي انت وأختك وناموا.. ولو اتأخرت عن كده ماتقلقش.. مع السلامة.

وأغلقت وأنا أتنفس الصعداء، وعلق علاء:

- مهرة.. من هنا ورايح.. لازم أشرف يتعود إنه مش كل ما تتأخري في مكان يقلق عليك بالشكل ده.

- علاء.. أرجوك رجعني دمياط حالا.

فقال وهو يبتسم:

- حاضر.. بس مش قبل ما...

وهمس لي بما يريد، فقلت:

- لآ يا علاء.. كفاية قوي كده.

- ده شرطي الوحيد عشان نتحرك من هنا.

وهذه المرة تركنا بدرية ووليد في السيارة، وذهبنا إلى حيث كانا..
إلى السقيفة الخوص.. وعاد يشعل حرائقي ثم يطفئها!

وفي رحلة العودة، شعرت بالسيارة تكاد تطير بنا من فرط سعادتنا
نحن الأربعة، ولم أرفع رأسي لحظة عن كتف علاء وهو يقود السيارة،
ومن جانبه لم يكف لحظة عن لثم رأسي بالقبلات، رغم أنه كان يقود
بسرعة جنونية ليحقق رغبتني في العودة بسرعة.

وبسبب السرعة.. إذا بشيطاني يوسوس لي بخاطر بغض:

ماذا لو أن علاء وهو يقود بهذه السرعة، ومع انشغاله بالقبلات
التي يندمج فيها أحياناً، ارتكب لا قدر الله حادثاً ما.. فنجد أنفسنا
في مستشفى أو قسم شرطة، وتحقيقات وسين وجيم، ثم يصل الخبر
لعزبة البرج، لأجد فضحيتي وقد أصبحت على كل لسان، فهمست له:
- علاء.. هَدِّي السرعة شوية.. إحنا مستعجلين آه.. لكن مش
لدرجة دي.

ويبدو أنه فهمني خطأ، ظنّها رغبتني في جولة أخرى يطارحني فيها
الغرام، إذ أخذ يهدئ السرعة حتى توقف عند بقعة مظلمة، وكنا بالكاد
خرجنا من الإسكندرية.

- وقفت ليه يا علاء؟

فلم يرد، ثم تأكد ما حسبته.. فإذا به يضمّني لصدره، وبدأ يشعل

أول حريق.. ولكن.. هنا غير حداثق المنتزة.. هنا كنت أفزع كل حين على صوت ما.. حفيف ورق الشجر.. أو صوت سيارة مارقة.. أو ضوء أخرى أظنها تقترب منا، فأنتزع نفسي منه خائفة، لكن عندما أعود لا أرى إلا الظلام ولا أسمع إلا الصمت، عدا صوت زفير وشهيق بدرية ووليد، أعود لحضن علاء من جديد.

حتى انتزعت نفسي منه هذه المرة على صوت صخب مفاجئ! ثم ضوء شديد باهر يبدد الظلام، كأن الشمس بزغت فجأة! ولكن يا إلهي.. إنها ليست الشمس.. إنها الشرطة.. وشعرت كأني في حلم مزعج والسيارة تحوطها وجوه غليظة تتفحصنا، ثم صوت أمر يقول:

- هاتوهم ع النقطة.

وهناك بدأ التحقيق:

- إسمك يا ض؟

- علاء.

- ثلاثي يا روح امك.

- علاء أنور الصواف.

- وانتي يا بت؟

ولم أنتبه إلى أن السؤال لي، كنت منذ اقتادونا أخفي وجهي بيدي وأبكي، كما أن لهجة السائل من سفالتها، لم أصدق أنها لي، فأجابت عني بدرية:

- اسمها مهرة عطية عبد العال.
- ماتكلميش إلا لما نسألك يا (.....).
- وتفوه بلفظ أشد سفالة، فصرخت فيه بدرية:
- احترم نفسك وإلا أوديك في ستين داهية.. أقدر أعرف احنا هنا ليه؟
- يعني مش عارفة يا روح امك؟
- لأ مش عارفة.
- ولأن بدرية كانت نائمة لحظة إلقاء القبض علينا، فقد فوجئت بالتهمة التي راح يذكرها الضابط:
- إنتو هنا يا حلوة بتهمة ارتكاب فعل فاضح في الطريق العام.
- أنا كنت نائمة.
- نائمة في حضن الواد ده.. مش كده؟
- وأشار لوليد، فقالت بدرية:
- ده معاق ذهنيا وإياك تتعرضه ولو بكلمة.
- إنتي ح تفهميني شغلي يا (.....).
- وكرر نفس اللفظ، فنطق علاء، لكن متلجلجاً:
- ممكن.. ممكن سيادتك.. تحقق معنا من.. من غير إهانة؟
- وكم تمنيت أن ينطق علاء من البداية، يقول أي شيء يدافع به عني

وعن نفسه، لا أن يترك بدرية هي التي تدافع عنا وعن نفسها، رغم أنها لا تحتاج للدفاع عن نفسها، على الأقل بحكم أنها لم تضبط متلبسة مثلنا.

لكن الضابط أخرس علاء.. فقط قال له وهو يشير لي:

- الإهانة يا روح امك.. لما تتمسك في وضع مخل مع الهانم دي.. هي فاتحة لك صدرها ع الآخر.. وإنت بنطلونك لا مؤاخذه نازل.

فلم ينطق علاء.. وتمنيت لحظتها أن أموت!

ثم رن التليفون على مكتب الضابط، فانشغل بالرد، وإذا ببدرية تحملق فيه طويلا، وفورا عرفت ما يدور في ذهنها، منذ اقتادونا وهي تحاول الاتصال بزوجها من هاتفها، لكن بلا جدوى، والآن تحدثها نفسها أن تحدثه من التليفون الأرضي، وفعلا قالت للضابط وهو يضع الساعة:

- عايزة أتكلم في التليفون.

- ممنوع.

- لأ مش ممنوع.

- ماشي.. مش ممنوع.. عطلان يا روح امك.

فانفجرت فيه:

- طيب ممكن أعرف احناح نفضل هنا لحد إمتى؟

- لحد ما ناخذ أقوالكم ونقل المحضر.. ونعرضكم الصبح على النيابة.

وسقط قلبي.. نيابة؟

لكن بدرية كان لها رأي آخر.. خبطت على مكتب الضابط تقول
بثورة عارمة:

- مفيش محضر ومفيش نيابة.. وح اتكلم في التليفون غصبن عنك.
وأمسكت بالساعة، لكن الضابط انتزعها منها ثم صفعها، فكادت
تشب أظافرها في وجهه، وزجر وليد وتكهرب الجو، لكن اثنين من
قوة القسم شلا حركته، كل ذلك وعلاء منزو في مكانه لا يجرو أن
ينطق منذ نطق بآخر كلمة، بينما أنا لا أكف عن البكاء والنشيج، ولم
ينقذ الموقف إلا هاتف بدرية الذي رن فجأة.. فصرخت في زوجها:
- إنت فين يا حاج؟ م الصبح باتصل بيك.. إنت فين؟

-

- إسمع.. إحنا ممسوكين في قسم.. قسم...

ونظرت للضابط تسأله:

- إحنا في قسم إيه؟

فلم يرد.. فصرخت فيه:

- قسم إيه؟ انطق.

- نقطة المعديّة.

فعادت تكلم زوجها:

- في نقطة المعديّة.

-

- أنا ووليد وصاحبتي وخطيبها.

-

- ما اعرفش يا حاج.. من غير سبب وقفونا ع الطريق وجرجرونا على هنا.. وقال إيه عايزين يعرضونا الصبح ع النيابة.

-

- وغلاوتك يا حاج ما اعرف ليه؟

-

- حاضر.. حاضر يا حاج.. مع السلامة.

ثم نظرت لنا تقول مبتسمة:

- فيه رتبة كبيرة قوي من الداخلية ح تتكلم دلوقت.

وفعلا لحظات ورن هاتفها، فردت فوراً:

- آلو.

-

- أهلاً أهلاً سيادة اللوا.. أيوه يا فندم أنا بدرية الصايغ حرم الحاج

فهمني الرواس.

-.....

- حاضر يا فندم ح اسأله حالا .

ونظرت للضابط تسأله :

- اسمك ورتبتك ؟

وبعد تردد نطق :

- ملازم أول نبيل صفوت .

وعادت تكلم محدثها :

- رافض يتكلم يا فندم .. خد سيادتك كلمه بنفسك .

وألقت بالهاتف للضابط، الذي التقطه وقام يتحدث واقفا :

- ملازم أول نبيل صفوت يا فندم .. من قوة نقطة المعديّة .

-.....

- الموضوع يا فندم ...

وأخذ يحكي كل شيء بالتفصيل، واضطر أن يذكر لمحدثه أن بدرية ووليد كانا نائمين لحظة مدهامة السيارة، وبعدما فرغ من الحكي عاد يستمع باهتمام، حتى قال :

- أيوه يا فندم .. بس ...

-.....

- أيوه يا فندم.. بس دا فيه واحدة منهم ريحتها كلها حشيش!

-

- فتشناها يا فندم وفتشنا العربية.. مالقيناش حاجة يا فندم.

-

- حاضر يا فندم.

-

- أوامر معاليك.

-

- الي تشوفه سيادتك يا فندم.. مع السلامة.

ثم نظر إلينا يقول:

- آسفين يا جماعة.. تقدرُوا تفضلُوا.

فقالت بدرية وهي تنتزع هاتفها من يده:

- متشكرين يا روح امك.

وخرجنا لا أصدق..

وعند ركوبنا السيارة، صممت أن أجلس في المقعد الخلفي بجوار بدرية ويجلس وليد بجوار علاء، ووافق وليد بعد جهد ومحيلة.. وعاد هاتف بدرية يرن:

- أيوه يا حاج.. خرجنا وراجعين حالا.

.....-

- أوووف.. يا حاج قلت لك أنا ووليد وصاحبتني وخطيبها وبس..
أظن كلامي واضح!

.....-

- لأ.. خطيبها راجل عجوز كركوبة.

ثم أردفت بضحكة:

- مش عايز تعرف إيه المفاجأة الثانية اللي أنا جايها لك؟

.....-

- شوية قمصان نوم إنما إيه.. إوعى وشك.. وياللا استعد وحضر
نفسك.

.....-

- النقاب؟ لابساه وحياتك يا حاج.. يللا بقى مع السلامة.

ثم أغلقت الهاتف وعادت ضحكتها تجلجل.

أما أنا، فلم تواتني الشجاعة لأتكلم إلا بعد ابتعادنا عن نقطة
الشرطة بمسافة:

- توبة أعمل كده تاني.

ثم بكيت، فلم يعجب بدرية.. رأت أنه ضعف لا مبرر له، فقالت:

- وهو حصل إيه يعني؟ إكمنهم مسكونا نايمين جوه عربية؟ ما يروحوا يمسكوا اللي نايمين جوه شقق الدعارة اللي بقت مالية البلد.
- بس أنا ما كنتش نايمة يا بدرية.. أنا كنت بارتكب فعل فاضح.
وبكيت أشد، فضمتني تقول:

- ولا فعل فاضح ولا حاجة.. إنتي بس من الحر كنتي فاتحة بلوزتك ع الآخر.

ثم بصوت هامس:

- إنتي ست زي كل الستات.. وللا يعني مكتوب عليك عيشي أرملة طول عمرك؟

- ولو يا بدرية.. الغلط غلط والحرام حرام.

- ولا يهملك.. الحرام حالا يبقى حلال.

- يعنى إيه؟

- حالا ح تعرفي.

ولكزت علاء تسأله:

- معاك ورقة وقلم؟

منذ خرجنا من نقطة الشرطة وهو شارد، لكن اللكزة استنطقته، لكنه قال كأنه يحدث نفسه:

- أي نعم دي مش أول مرة أدخل قسم بوليس.. لكن دي أول مرة

أتهان وأتبهذل بالشكل ده.. وكمان كان ممكن أتحبس.

فعادت بدرية تلكزه وتقول ساخرة:

- الحبس للجدة عان.

ثم تكرر:

- معاك ورقة وقلم؟

- معايا.

- يبقى لو سمحت تركز عند أول كافتيريا تقابلك.. ترتاح شوية وتشرب لك واحد لمون يهدي أعصابك.. وفيه حاجة كده ح نعملها إحنا الأربعة مع بعض.

فهتفت بها:

- حاجة إيه يا بدرية؟ كفاية بقى.. أنا عايزة اروّح لبيتى وعيالى.

- مش ح نتأخر يا مرمر.. ربع ساعة بالكثير.

وجلسنا على أول كافتيريا قابلتنا، وبعد الليمون والشاي، أمسكت بدرية بالورقة والقلم.. ويا لها من امرأة.. انهمكت تصوغ عقد زواج عرفى بيني وبين علاء! فصرخت فيها:

- بدرية.. إنتي اتجننتي؟

- اسمعي بقى يا مهرة.. بلاش تضحكي على نفسك.. بعد اللي عملتيه مع علاء في المنتزة.. بقيتو في حكم المتجوزين.. بس حة الورقة

دي (وأشارت للعقد) ح توفر عليكو، وعليكي إنتي بالذات، مشاكل انتو مش قدها.

فنظرت لعلاء الذي من فرط توتره، خيل لي أنه يرتعش، ولبث أنظر له وينظر لي ولا نتكلم، حتى صاحت بنا بدرية:

- جرى إيه؟ إنتو مش عايزين بعض وللا إيه؟

فعدت أنظر له، لكنه تحاشاني يحملق في لا شيء، فانبرت بدرية تشرح لنا قائلة ما أعرف أنها ستقوله، لأنني سمعته منها كثيرا:

- الجواز العرفي يا جماعة.. زيه زي الجواز العادي.. كل ما في الأمر إنه مش ح يتسجل في دفاتر المأذون.. وده شيء مش مهم.. زمان أيام الصحابة ماكانش فيه مأذون ولا يحزنون.. ده حتى الجواز أيامها كان بكلمة مش بورقة.

وعندما بدا لها أننا غير مقتنعين، قالت تلكز علاء وتسأله بحسم:

- علاء.. إنت عايز مهرة؟

- هه.. آه.. آه طبعاً عايزها.

ثم تلكزني:

- وانتي عايزة علاء؟

ولم أحر جواباً، فقط حملقت في علاء، فأسرعت تقول:

- السكوت علامة الرضا.

ثم أردفت تزيد في الشرح لنقتنع:

- الجواز أساسه الرضا والقبول والإشهار والإعلان.. الرضا والقبول واضح إنهم موجودين والحمد لله.. فاضل الإشهار والإعلان.. وده من أسهل ما يكون.. زغرودة واحدة مني دلوقت.. وكل الناس الي قاعدة الكافيتيريا يعرفوا انكو بتتجوزوا.

وهمت بالفعل أن تزغرد! ومن خبرقي بها أعرف مدى تهورها، فهتفت بها أرجوها:

- لآ يا بدرية.. إوعي.. أنا في عرضك.

فقلت وضحكاتنا تعلو:

- إنتي عارفاني مجنونة وأعملها.. وأقسم بالله.. لو إنتي وعلاء مامضيتوش على عقد جوازكم قدامي حالا ودلوقت.. أقسم بالله لأعملها وازغرط.

وفوجئت بعلاء يبتسم.. ثم يوقع.. بينما ترددت أنا، فقلت تستحشني وتشجعني:

- يا عبيطة.. الورقة دي لو معاكي من الأول.. كنتي تحطيها في عين الحكومة الي كانت ح تبهدلك.

ثم أردفت وهي تربت على ظهري بحنان:

- لازم تتجوزي كده.. عرفي.. عشان معاشك ماينقطعش.

فوجدت نفسي أوقع، ثم وقعت هي كشاهدة، ثم أمسكت بيد وليد توقع بها كشاهد ثان وتقول:

- إحننا شهود مؤقتين.. أول ما نوصل دمياط لازم تشوفولكو اتنين شهود غيرنا.. ودي طبعا مهمة سي علاء.

وتعمدت أن تنطق كلمة علاء بكسر حرف العين! لكنه لم يعلق، ثم قمنا نستأنف العودة.

وفي المنزل لم يكن ثمة شيء غير عادي، نسمة غارقة في النوم وأشرف منهمك أمام الكمبيوتر.. ولم يسألني إلا:

- طنط بدرية عاملة إيه؟

- هه.. بخير.. دي.. دي حتى هي اللي وصلتني بنفسها.

ثم أسرع أسأله:

- اتعشيت؟

- من بدري.

- طيب عايز حاجة؟ أنا داخلة أنام.

ولم يرد.. كان مندمجا تماما مع الكمبيوتر!

وتهاويت على سريري، لا أصدق أنني سأنام عليه لا على أرض التخشبية، ولا أصدق أنني تركته في الصباح أرملة، لأعود إليه بعد منتصف الليل زوجة.. نعم زوجة مع إيقاف التنفيذ.. لكن مؤقتا.

* * *

وفي الصباح كان كل همي أن أشتري حقيبة مثل حقيبة بدرية، بها جيب سحري لا يراه الجن الأزرق، واشتريتها بالفعل ودسست في

جيبها السحري نسختي من عقد زواجي العرفي، فهذا العقد لا يجب أن يراه أحد.. وإلا فالضياع مصيرى.

ثم تذكرت.. فخبطت على صدري!

وامصيتاه لو أن علاء لا يفكر كما أفكر، لا يهتم بإخفاء نسخته أيضا.. وفورا طلبته:

- علاء.. إنت شايل نسختك فين؟

- نسخة إيه؟

- عقد جوازنا.

- شايلها في دولابي.. ليه؟

- دولابك؟ يا نهار إسود!

ويبدو أنه فهم، لأنه فورا قال:

- ماتخافيش محدش يقدر يشوفها.

- لأ يا علاء أنا خايفة.

وبعد صمت برهة.. قال بمكر:

- خلاص.. مستعد أقطع نسختي وكفاية نسختك.. بس بشرط

- شرط إيه؟

- أتعشى عندك الليلة.

وتخدر جسدي.. فالعشاء عندي هو تورية دخلته بي.. لكنني قلت:

- مش ح ينفع يا علاء.

-ليه؟

- أشرف هنا وشكله مش خارج الليلة.

وصمت و طال صمته، وذهب ذهني كالعادة يتخيل تعبيرات وجهه
عندما يسمع اسم أشرف، حتى قلت:

- بس عموما أنا ح اتصرف.

- ح تعملي إيه؟

- مش عارفة.. لكن سييني يوم أو يومين.

وإن تساءلت لنفسي: هل تدبير المكان مسؤوليتي أنا؟ لكن لا بأس،
فمؤكد أن علاء سيسعى لتدبير مكان، ولا بد أن ألتمس له العذر مع
زواجنا الذي جاء فجأة هكذا.

ولكن مرت الأيام ولم أجد حيلة مناسبة أبعد بها أشرف عن البيت
ولو ساعة، فهو أصبح مدمنا للكمبيوتر، ثم تعقد الأمر عندما اشترى
كاميرا وأدخل وصلة نت، فأصبح أسيرا له لا يغادر المنزل مطلقا.

ورأيت، إلى حين تدبير مكان، ألا أنقطع عن زيارة والدة علاء،
وكنت أقنع نفسي أنه الواجب.. لكن نفسي بالطبع لن تنخدع.. الحقيقة
أنني لا بد أن أزورها من وقت لآخر، حتى لا يثير انقطاعي عن زيارتها
أية ظنون أو شكوك.

حتى زرتها يوما.. وليتني ما فعلت!

هالني ما وجدته منها من فتور، وأيضا من سلوى، سلوى أصبحت تنظر لي شذرا كزوجة أخيها.. أما أمها فقد فاجأتني هذه المرة بأنها لم تمد لي يدها بالسلام! وشعرت أنها بقلب الأم تشك في وجود علاقة تربطني بابنها.. يا مصيبيتي لو كانت علمت بأمر زواجي بعلاء.

ولم أتحمّل فتورها ونظرات سلوى، فغادرتها والدنيا تدور بي، سلوى لم تكن تهمني بقدر أمها.. نعم.. كله إلا هذه السيدة، مستعدة لأواجه الدنيا كلها بعلاقتي بعلاء.. إلا هذه السيدة..

ثم ختمت بزوجة علاء.. في أثناء هبوطي الدرج وجدتها أمامي فجأة.. وشعرت بأنها تكاد تبصق في وجهي!

لذلك في المنزل وربما للمرة المليون، وجدتي أفكر: هل ما أقدمت عليه مع علاء هو الصواب؟ أم أنه الخطأ بعينه؟ ألا يكون ما فعلته هو بداية الضياع! يا إلهي.. حقا كم ترعبني هذه الكلمة.. ودفعني الرعب إلى أن أتصل بعلاء وقد قررت أمرا:

- علاء.. إحنا لازم نسيب بعض.

فصرخ:

- هي إيه الحكاية؟ من بعد رحلة اسكندرية ودي خامس مرة تتصلي تقولي لي لازم نسيب بعض.. فيه إيه يا مهرة؟

- فيه إننا لازم فعلا نسيب بعض.. يا علاء أمك وأختك ومراتك شكلهم عارفين كل حاجة.. أمك وسلوى مقابلتهم ليا بقت وحشة

قوي.. ومراتك كل ما تشوفني أحس إنها عايزة تقتلني.

- بلاش تروحي عندامي.

- علاء.. إنت ليه بتنكر إن مراتك ست كاملة و...

فصرخ ثانية:

- اسمعي بقى.. بصراحة وعشان ترتاحي.. مراقي ست متنفعش للجواز.. يعني من الآخر كده وعلى بلاطة.. مش بتاعة سرير.. أظن دلوقت تبقي ارتحتي.. من فضلك بقى ومن هنا ورايح.. إياكي تحبيي لي سيرتها تاني.. مفهوم؟

وأنى المكاملة.. فتهاويت أبكي كما لم أبك في حياتي.

* * *

حتى وجدت علاء يوما في انتظاري داخل السيارة أمام المستشفى، فأسرعت كالعادة أركب بجواره وأرجوه أن يبتعد، فابتعد حتى كدنا نغادر دمياط كلها، وكما توقعت، اختار بقعة مظلمة على الطريق وتوقف عندها، ومضى وقت لا حديث بيننا إلا النظرات الصامتة، حتى مد يده وأمسك يدي، ثم تشابكت أصابعنا، ثم بلا مقدمات اندمجنا في القبلات، في البداية كانت هادئة حذرة، ثم انقلبت لعنيفة محمومة، حتى أبعدته عني أهمس:

- كفاية بقى يا علاء.. أعصابي ماتستحملش كده.

- ولا انا يا مهرة.

- طيب لحد إمتي؟

- مش عارف.

فتغيرت لهجتي:

- يعني إيه مش عارف؟

- صدقيني مش عارف.

- يا ترى اللي بنعمله ده يا علاء.. صح وللا غلط؟

- أكيد صح.

- صح ازاي بس؟

- إحنا مش متجوزين؟

- وانت بتسمي ده جواز؟

فتغيرت لهجته:

- لو انتي شايفاه مش جواز.. أتخداكي تقطعي نسخة العقد اللي معاكي.. بس بشرط تقطعيها دلوقت وقدامي.. زي ما أجبرتيني أقطع نسختي قدامك.

وبكل تحد فتحت حقيبتني، وأخرجت العقد من مكمته وهممت أن أمزقه.. ولكن.. إذا بيدي تترأخى عنه في آخر لحظة.. ثم انهرت أبكي وأنا أهتف في نفسي: يا لك من رجل!

حتى عاد يقول:

- إحنا مشكلتنا المكان يا مهرة.. شقة.. شقة ولو بالإيجار.. بس للأسف ده مش في إمكاني دلوقت.

وأطرق صامتا.. صمت العجز وقلة الحيلة!

وقلت في نفسي: آه.. إذن فالأمر هكذا!

وبدأ ذهني يستعيد أحداثا ويرتبها ويستخلص منها، بالفعل أشعر أن ظروف علاء المادية ليست على ما يرام، فخلال رحلة الإسكندرية، بديرية كانت هي التي تصرف في المطاعم والكافريات وفي كل مكان، حتى تساءلت لنفسى وقتها: هل هو شح علاء أم ضيق ذات يده؟ حتى أدركت أنه ضيق ذات يده.. أيضا ذات يوم سمعته عفوًا يقول: - شقا عمري اللي جمعته في الغربية.. ضاع في المحاكم على بنت الكلب اللي ما تتسمى.

وكان يقصد زوجته.

أيضا تذكرت كلمات غامضة خرجت منه رغما عنه ذات يوم، كلمات كادت تفسر سبب عودته من سفره، لكنه تدارك وأسرع يمسك لسانه، لكن بعد أن قر في نفسى أنه عاد من السفر مضطرا أو مجبرا.. وإن لم أهتم وقتها كثيرا.

إذن فالآن وكما قال، لا سبيل لملتقى كزوجين إلا شقة صغيرة أو حتى غرفة.

أو.. أو لعله يرمى ليكون بيتي هو الملتقى دائما؟

لكن بيتي مشكلة كبيرة.. أو مغامرة.. بداية من أشرف ومرورا بالجيران، خصوصا أم ياسر، ونهاية بوالدة علاء وأخته وزوجته.

وأراد أن نستأنف قبلاتنا، لكن نفسى كانت مشغولة، كانت لا تبرح

تذكرني بمدخراقي بالبريد، لكنني فورا وكما أفعل دائما.. نهرتها أن لا..
إنها لأشرف ونسمة وللزمن.. حتى انتبهت إليه يهمس:

- بعد بكرة الجمعة.. إيه رأيك نروح المتزة؟

- لأ يا علاء.. ماتفكر نيش أرجوك.. انسى المتزة دي خالص.

- أهو مكان ناخذ فيه راحتنا.

- علاء.. قلت لأ يعني لأ.

فسكت، لكنه عاد يلح لنستأنف القبلات، لولا اتصال من بدرية..
التي وجدتها تتحدث والفرحة لا تسعها:

- مهرة.. باركي لي يا مهرة باركي لي.

- ألف مبروك يا حبيبي.. على إيه؟

- أخيرا الحمل ثبت.. الدكاترة أكدوا لي ده.. وكل التحاليل والتقارير
بتقول كده.. يعني كلها كام شهر وابقى أم.. ح ابقى أم يا مهرة ح ابقى أم..
ولم تعطني فرصة لأكرر لها كلمة مبروك، إذ إن الكلام كان يندفع
منها كالسيل:

- الحاج يا مهرة ح يموت من الفرحة.. والعوانس ح يموتوا من
القهرة.. عارفة.. الحاج قال لي لازم نغير العتبة.. قال لي مش لازم تتابعي
الحمل مع دكاترة من مصر.. ومش لازم تولدي في مصر أصلا.. ح نساfer
أوروبا يا مهرة.. كلها كام يوم ونساfer.. ح نلف أوروبا كلها.. وبعدين
نطلع على أمريكا أولد هناك عشان البيبي ياخذ الجنسية الأمريكاني..

مهرة.. لو عايزة حاجة من أمريكا قولي لي.. عارفة.. من فرحتي طلبت
من الحاج يكتب لي صالة موبيليا.. قام من فرحته كتب لي صالتين..
صالتين يا مهرة صالتين.. و...

وإذا بي أقاطعها:

- ورح تعملي إيه في وليد؟

- وليد! ماله وليد؟

- ح تسييه لمن المدة دي كلها؟

- لأمه طبعا.

كانت تتكلم كأن فرحتها قد أنستها بالفعل أمر وليد، ولم تتذكره
إلا الآن، وكعادتها قلبت الأمر لمزاح، لكنه مزاح لم أكن أتوقعه، إذ
قالت تضحك بخبث:

- إيه رأيك لو تاخديه عندك.. أهو تكسبي فيه ثواب.

فوبختها هامسة:

- يا مجرمة.

وفجأة انقطع الاتصال، ووجدتني أشرد قليلا، فسألني علاء:

- خير؟

- هه.. أبدا.. حمل بدرية ثبت أخيرا.

- مبروك.

وانتهزها فرصة ليقبلني، ثم اندمجنا، ثم ما لبثنا أن سمعنا صوت سارينة سيارة شرطة، ورغم أن الصوت كان بعيدا جدا، فإن علاء أسرع يدير السيارة وينطلق.

وفي المنزل وجدت أشرف مشغولا كالعادة بالنسبة .. وتعجبت منه .. لولا هذا أنت الذي أدمنه، لكان أشبعني اتصالا أين أنا ولماذا تأخرت، لكنه فعلا سألني:

- كنتي فين يا ماما وتأخري ليه؟

- كان عندنا شغل ضروري في المستشفى.

- هو الشغل الضروري ده كل يوم؟

فنهرته بشدة:

- أشرف .. مش كل ما اتأخرح تسألني السؤال ده.

- آسف.

ثم تركني مكسور الخاطر للشات الذي كان غارقا فيه، لكنني بعد لحظات ندمت .. فاقتربت منه لأطفه:

- بتعمل شات مع مين؟

- مع نادر صاحبي.

- نادر؟ مش ده اللي كان عايز يخطب بعد الدبلوم؟

- يخطب إيه بقى يا ست ماما .. نادر عقبال ابنك .. طلع إيطاليا من

حوالي شهر.. ومن هناك طلع على فرنسا.. وح يتجوز واحدة خواجه
ومش ح يرجع مصر تاني.

- وازاي عرف يجيب تأشيرة إيطاليا؟

- تأشيرة إيه يا ماما؟ نادر طلع عن طريق البحر.. طلع على بلانص
صيد.

- قصدك هجرة غير شرعية؟

- بالظبط.

- وماخافش يغرق زي اللي بيغرقوا؟

- لأ طبعا.. نادر طلع على بلانص من بتوع الريس سردينه.

- يا سلام! وهي بلانصات الريس سردينه دي مابتغرقش؟

- طبعا.. بلانصات الريس سردينه عمرها ما تغرق أبدا.

رباه.. آخر موكب نواح كان من يومين فقط!

- والي غرقوا أول امبارح دول.. كانوا على بلانصات مين؟

- الريس خميس.

- واشمعني؟

- بلانصات الريس خميس كلها قديمة.. ودايا يحملها بشر فوق

طاقتها.. لكن بلانصات الريس سردينه دايا جديدة.. وعمره ما يحملها
فوق طاقتها.

وإذا بي أسرح في حسن، وفي أول موكب نواح أسمع، ذلك الذي
كان هدية القدر لي في ليلة دخلتي، حتى انتبعت إلى ابني ينهي الشات
ويقول:

- عارفة يا ماما.. نفسي أسافر زي نادر صاحبي.

- هه.. تسافر؟

- أيوه.. دي أمنية حياتي.

- وماله يا حبيبي.. سافر.. بس تسافر شرعي مش على بلانصات
سردينة أو غيره.

- شرعي إيه بس يا ماما؟ يظهر انك مش عايشة في الدنيا.

- ليه؟

- السفر الشرعي انتهى من زمان.. دول أوروبا ماعدتش تدي
تأشيرات زي الأول.

- أو مآل طنطك بدرية طالعة أوروبا الأسبوع الجاي ازاي؟

- هي طالعة تشتغل؟

- تشتغل إيه يا واد؟ طالعة تتابع الحمل وتولد عند الخواجات.

- يا ماما العلاج والولادة حاجة.. والشغل حاجة تانية خالص.

وتركني وعاد للشات.. وهذه المرة سرحت في علاء!

ثم انتبعت فحولت تفكيري إلى نسمة، إنها إلى الآن لم تعد من عملها،

ولم تتصل كعادتها حين تتأخر.. فسألت أختها:

- أختك ماتصلتش؟

- لا.

- ولا انت اتصلت بيها؟

- لا.

فأسرعت أكلمها:

- إنتي فين يا نسمة؟

- أنا جاية في السكة يا ماما ومعايا أخبار حلوة.

- بجد يا حبيبي؟ أخبار إيه؟

- لا.. مش ح ينفع في التلفون.. سلام.

وبقيت على نار حتى عادت فلذة كبدي، ولم أمهلها حتى لترتاح،
إذ سألتها بمجرد تخطيها الباب:

- أخبار إيه يا نسمة؟

- جالي عريس.

- بجد؟

- أو بصراحة.. عريسين.

- يا حبيبة ماما!

واندفعت أغرقها بقبلاقي، ولم أعطها الفرصة لتبدل ملابسها، إذ رحت ألاحقها بالأسئلة:

- مين دول يا نسمة؟ ويشتغلوا إيه؟ وعرفتيم ازاي؟ أو عرفوكي ازاي؟ و...

- واحدة واحدة يا ست ماما.. ح اقول لك كل حاجة.. الاتنين من عملاء المكتب.. بس الأولاني مش مصري.. سوداني.. بس لونه قمحي فاتح مش أسمر غامق.. وكمان كبير شوية في السن.. لكن في الفلوس مبسوط شويتين.. يشتغل في تصدير اللحوم.

- والثاني؟

- الثاني مصري.. ليسانس آداب وأكبر مني بخمس سنين.. عنده ورشة أحذية وكان واخد قرض من الصندوق الاجتماعي.. بس اتأخر في كام قسط فحجزوا عليه.. فجالنا المكتب عشان نعمل له تصالح مع البنك.. والحمد لله وقف فعلا على رجله وبدأ يشتغل تاني.

- خرينا في المصري.. تعرفي إيه عن أهله وعيلته؟

- أعرف كل حاجة.. وانتي كمان تعرفي عنه كل حاجة.

- أنا؟ إزاي؟

- ما هو يبقى ياسر ابن جارتنا اللي فوق.

جارقي الفضولية!

ثم انتبهت إلى ابنتي تكمل:

- مامته كانت ح تكلمك.. بس هو طلب منها تكلمني أنا الأول..
فكلمتني.. فقلت لها ح اكلم ماما.

يا للمرأة.. تخطب ابنتي لابنها وأنا آخر من يعلم!

- ودلوقت أنا محتارة يا ماما.. المصري وللا السوداني؟

- هو السوداني عايزك هنا وللا في السودان؟

- في السودان.

- عمو ما ده شيء سابق لأوانه.. لازم الأول نعرف عنه كل حاجة.

ومن فرحتي تركت ابنتي تثرثر مع أخيها، وأسرعت أطلب بدرية،
لكني لم أسمع إلا الردود الآلية، ونفس الشيء مع علاء!

* * *

أصبحت سيارة علاء هي ملاذنا لممارسة الحب، فلا بديل أماننا غيرها،
البداية عادة تكون بمكالمة منه، يبدأها بالسؤال الخالد الذي لا يمله:

- آجي أتعشى عندك الليلة؟

فتكون إجابتي الخالدة أيضا والمضطرة إليها بحكم الواقع:

- مش ح ينفع يا علاء.. زي ما انت عارف.. أشرف ونسمة.

ثم يدور بيننا حديث أحفظه عن ظهر قلب، مفاده أن المشكلة ليست
في نسمة وإنما في أشرف.. حتى يقول ما أعرف أنه سيقوله:

- خلاص.. ح اقابلك بكرة وانتي خارجة من المستشفى.

وأيضاً عندما نتقابل، هو هو نفس الروتين، نظل نتجول بالسيارة على غير هدى، طبعاً خارج عزبة البرج، حتى ينتهي بنا المطاف إلى أن نذهب نشترى شطائر وعصائر، ثم نطلق لأظلم وأهدأ بقعة على الطريق الدولي السريع، نتعشى ثم نمارس حقناً المشروع، أو الذي أظن أنه مشروع، ثم أعود للمنزل قبل أن يبدأ أشرف في الاتصال والسؤال. وذات مرة ألمحت لعلاء إلى رغبة أشرف في السفر، فلمعت عيناه وهو يقول:

- والله فكرة.

- فكرة إيه؟

- فكرة يسافر يشوف مصلحته.

- أيوه بس ده عايز يسافر في البحر.. يعني هجرة غير شرعية.

- طيب وإيه يعني؟

- كلام إيه ده يا علاء؟ لا.. أنا أخاف عليه من السكة دي.

فسكت.. وإن كان وجهه ينطق بأشياء!

ثم أخبرته بالعريسين المتقدمين لنسمة، وأنها مختارة أيهما تختار وأنا مثلها، فإذا به يقول:

- والله فرصة.

- فرصة إيه؟

-إني أتعشى عندك بكرة بحجة إن نسمة عايزة تاخذ رأيي في العريسين.

وفكرت لثوان، حتى قلت:

-علاء.. بس دي ح تبقى زيارة عادية.. إنت فاهمني طبعاً.

-يا ستي نتعشى الأول وبعدين تفرج.. ومين عارف؟ مش يمكن...

- لا يا علاء.. لازم تعرف إن أشرف قاعد على النت ليل نهار..

ولازم تعرف كمان إن دخولك بيتي دلوقت مشكلة كبيرة في حد ذاتها..

لو الخبر وصل لأمك أو أختك أو مراتك.. ح تبقى مصيبة.

فأطلق زفرة هائلة:

-أوووف.. يا دي أمي وأختي ومراقي.

لكني في اليوم التالي قلت لأشرف ونسمة.. وفي الحقيقة كنت أقصد

أشرف:

-اسمعوا.. عمكو علاء ح يتعشى معانا الليلة.. ضروري نعرف

رأيه في العريسين اللي متقدمين لنسمة.

فصاحت نسمة:

-بجد يا ماما؟ أنا فعلاً محتاجة أعرف رأي عمو علاء.

أما أشرف فقد أعلن امتعاضه.. ولم يعلق إلا بقوله:

-بس من فضلك يا ماما.. ياريت ماتقعديش قدامه وشعرك مكشوف

زي أيام الدروس.

وكدت أذوب خجلا، لكن لم أملك إلا أن أقول لرجلي الصغير:

- حاضر يا سي السيد.

وغرقت نسمة في الضحك.

وجاء علاء يحمل هدية لنسمة وأخرى لأشرف، فقبلت نسمة ورفض
أشرف، وبعد العشاء الذي لم يخل كالعادة من مزاح نسمة وعلاء ومن
ضيق أشرف به، ضحكت في نفسي من علاء وهو يقول لنسمة متقمصا
شخصية الرجل الحكيم الذى يفاضل بين عريسين:

- قوليل.. بالنسبة للعريس السوداني.. اسمه إيه وعنده كام سنة؟

- اسمه بلال وعنده خمسة واربعين سنة.

- آه.. والمصري؟

- اسمه ياسر وعنده أربعة وعشرين سنة.

- عظيم.. ويا ترى الاتنين ظروفهم المادية إيه؟

- بلال مليونير.. وياسر ظروفه كانت مش ولا بد.. لكن دلوقت
اتحسن وتيعمل توسعات في ورشته.

- عنده شقة؟

- ح نسكن مؤقتا مع مامته.. لحد ما يجهز بيتهم الكبير في شرباص.

- والعريس السوداني.. عايزك هنا وللا في السودان؟

- في السودان.

- مش ممكن يغير رأيہ؟

- مفتكرش.

وأطرق علاء يفكر، حتى فوجئت به يلتفت لأشرف يسأله:

- رأيك إيه يا أشرف؟

فقال ابني وهو لا ينظر إليه:

- ياسر طبعاً.

ثم يسألني أنا:

- وانتى يا ام العروسة؟

- لا.. أنا ح اقول رأيي بعد ما اعرف رأيك انت الأول.

فقال بهدوء:

- أنا شايف إن الأنسب.. هو بلال.

وشعرت بنسمة كأنها لم تكن تتوقع.. أو يبدو أنها كانت تريد ياسر..
لكن كيف وهي كانت مذبذبة بالفعل بينه وبين بلال، وظلت أياماً
حائرة لا تستطع حسم أمرها وكنت لا أساعدها بحجة أن الاختيار
هو مسؤوليتها وحدها.

ولكن ها هي الآن تنظر لي تطلب مساعدتي، ثم تسألني والحيرة
تمزق نبرات صوتها وتكسو ملامحها البريئة:

- وانتى يا ست ماما.. رأيك إيه؟

فقلت:

- أنا شايفة إن.. إن بلال هو الأنسب.

ولم يخف عني ما ارتسم على وجه علاء.

أما نسمة.. فقد قمت فوراً من أمامها حتى لا أرى رد فعلها.

أما أشرف.. فقد قام محبطاً إلى الكمبيوتر، فنظر له علاء محبطاً أيضاً وهو يراه يضع ساعة الشات على أذنه، وعجبت لعلاء، كيف يخونه ذكاؤه هكذا فيعتقد أن أشرف يمكن أن يتركه يجالسني، هذا إن لم يخرجه ليجعله ينصرف، وفعلًا عندما ذهبت لأعد الشاي، سمعت صوت علاء وهو ينصرف.

* * *

وجاءني أول اتصال من بدرية من الخارج..

لكنها لم تكذب تقول إنها تكلمني من جزيرة يونانية اسمها سانتوريني، حتى انقطع الاتصال فجأة، لكنها ما لبثت أن أعادته.. وإن جاءني صوتها ضعيفا جدا:

- إزيك يا مهرة؟ عاملة إيه؟

- أنا بخير يا بدرية.. إنتي عاملة إيه يا حبيبتني؟

- بخير.. وازي أشرف ونسمة؟

- كلنا بخير.

- وعلاء؟

- على فكرة يا بدرية.. نسمة اتخطبت.
- باقول لك إزي علاء.
- وأنا باقول لك نسمة اتخطبت.
- مش سامعاكي يا مهرة.
- باقول لك نسمة اتخطبت.
- بجد؟ ألف ألف مبروك.. مين خطبها؟
- واحد سوداني.
- إيه؟ سوداني؟ يا نهار أبيض.. وإيه اللي ح يوديه السودان!
- نصيبيها بقى يا بدرية.. لكن عموما هو أبيض مش اسود.
- أبيض إيه واسود إيه؟ مش الفكرة يا مهرة.. إيه اللي ح يودي البنت السودان؟
- على فكرة ده طلع غني.. غني قوي يا بدرية.
- وظلت لمدة لا تعلق، ولعلها لم تسمع، لكنها عادت تقول:
- عموما ألف مبروك لحبيبة قلبي نسمة.
- الله يبارك فيكي.
- اسمعي يا مهرة.. إوعي تشتري لها حاجة من جهازها.. جهاز نسمة من كافة شيء.. ح يكون هدية مني ليها.
- متشكرة يا بدرية.. المهم ترجعي لنا بالسلامة ومعاكي البيبي.

- ح يحصل وحياتك.. آخر تحليل عملته هنا نتيجته زي الفل.
- ربنا ينوّلك الي في بالك يا بدرية.. ح تروحوا فين بعد كده؟
- يومين كده وح نروح لندن ومنها على أمريكا.
- كل بلد تروحها تكلميني منها يا بدرية.
- طبعا يا حبيتي.
- الاتصال من عندك سهل.. مش كده؟
- طبعا.. من أسهل ما يك...
لكن الاتصال انقطع.
- ولكن لحظات وعاد الهاتف يرن، لكنه كان علاء، وجاءني صوته
مبتهجا:
- مهرة.. فيه شغلانة كويسة قوي لأشرف في شرم الشيخ.
- تاني يا علاء؟
- بس المرة دي مفيش تعب والمرتب معقول جدا.. ح يشتغل فرد
أمن في فندق بألفين جنيه.. والإقامة كاملة عليهم.
- ولكن أشرف كان له رأي آخر:
- شغل تاني في شرم الشيخ لأ.. ولا في أي حته في مصر.. أنا ح
اسافر برة يعني ح اسافر برة.
- خلاص.. نكلم بلال خطيب نسمة يشوف لك حاجة في السودان.

فصرخ:

- السودان؟ وح اشتغل إيه في السودان؟ أنا مش ح اسافر غير دولة أوروبية.

وعندما أخبرت علاء، أيضا صرخ:

- السودان؟ لأ طبعا.. الأفضل يسافر دولة أوروبية.

ومن بعدها لم يعد له من حديث معي إلا عن الهجرة، يقول الهجرة فقط ولا يقول الهجرة غير الشرعية، أيضا لا يقول السفر في البحر، السفر فقط، ثم أخذ يحدثنني كثيرا عن سماسرة الهجرة المعروفين، ودائما يقحم اسم سردينة بينهم.. ودائما يؤكد أنه أفضلهم!

* * *

وبدأت أجهز نسمة للزواج..

أجهز فلذة كبدي لتغادرنى إلى بلد يبعد عنى مئات الأميال، تُرى هل كنت في كامل أمومتي وأنا أرشح لها عريس السودان؟ هل كنت في كامل وعيي وأنا أفضله على ياسر؟ نعم بلال غني، بل غني جدا، وكتب لابنتي مؤخر صداق لا تحلم به فتاة.. ونعم ياسر وإن كان شابا مكافحا وقريبا من سنّها، فإن الطريق أمامه ما زال طويلا، والبيت الذي يجهزه في شرباص عليه خلافات معقدة بين الورثة كما قالت أمه.. ولكن.. هل كنت حقا في كامل أمومتي؟

الحق يقال إن المحامي الذي تعمل عنده نسمة، والذي حضر مجلس قراءة الفاتحة.. طبعا ومعه علاء باعتباره من أقرب رجال العائلة.. أخذ

على العريس السوداني من الضمانات ما جعلني أطمئن على مستقبل ابنتي معه.

بدرية في آخر اتصال، وعندما أخبرتها أن عريس نسمة سيتكفل بجهازها بالكامل، ومن السودان، رفضت رفضا قاطعا، وصرخت تأمرني أمرا لا يقبل المراجعة، أن أذهب في أقرب وقت إلى فارسكور، وهناك أنتقي من معارض الرواس جهاز نسمة بالكامل.. الموبيليا وكل شيء، ثم أطلب منهم بالأمر أن يشحنوا جميع ما أشتريه إلى المكان الذي أحده لهم في السودان، ولا أدفع جنيها واحدا.. وقد كان.

وجاءت لحظة وداع نسمة في المطار..

جمال نسمة في فستان الزفاف الأبيض، زلزلني كما زلزل مطار القاهرة بأكمله، ولن أنسى لحظة مغادرتها مع عريسها إلى سلم الطائرة، نهر من الدموع الصامته، وعاصفة من الهنات الحارقة، ثم بكاء كالعويل وهي تستدير لتلوح لي بيدها تلويحة الوداع الأخيرة.

وفي المنزل عندما عدت، وعندما رأيت مكان نومها، ولمست أشياءها، وشممت فيها بقايا عطرها، لم أتمالك نفسي وانهرت في بكاء هستيري، وشاركني أشرف.. أول مرة أرى ابني يبكي هكذا، وكالمجنونة رحت أطلبها على هاتفها، لكن لم أسمع إلا الرد الآلي البغيض، حتى تذكرت أنها قالت لي ونحن في طريقنا للمطار، إن عريسها أغلق هاتفه وهاتفها بدعوى طلب الهدوء وعدم الإزعاج من أحد.

بدرية منذ حددنا موعد زفاف نسمة، لم تكف عن الاتصال بي يوميا تتابع معي الترتيبات، وكانت ستجن لأنها ليست بجانبني في مناسبة

كهذه، وفي اليوم التالي للزفاف وجدتها تتصل تسألني بلهفة:

- اتطمنتي ع البنت يا مهرة؟

- أبدا يا بدرية.. وح اتطمئن ازاي بس وتليفونها وتليفون جوزها مقفولين من ساعة ما سافروا.

- قولتي الحتة اللي قاعدة فيها في السودان اسمها إيه؟

- حي الموردة في أم درمان.

- دي فيها تليفونات دي؟

- أيوه.. كارت بلال جوزها فيه نمرة أرضي.. لكن ما حدش بيرد.

- عموما ماتقلقيش.. أول ما انزل مصر.. على طول أنا وانتي نروح نزورها.

- يا ريت يا بدرية.. قلبي واكلني عليها قوي.

وبكيت، فقالت:

- وبعدين بقى يا مرمر؟ أقول لك.. اسمعي الخبر الحلوده.

- خير؟

- الجنين طلع ولد.. ولد يا مرمر ولد.

- ألف مبروك يا حبيبتى.

- على فكرة.. أنا باكملك من لندن ومسافرين أمريكا بعد يومين.

- توصلوا وتولدي وتقومي بالسلامة بإذن...

وانقطع الاتصال كالمعتاد.

* * *

كنا داخل السيارة في البقعة المظلمة على الطريق السريع، عندما قال علاء وهو يفلتني من حضنه:

- دي حاجة بقت تتعب الأعصاب.

عبارة أصبح يقولها كلما توترت أعصابه بسبب مضايقة السيارات المارة بنا، أو بسبب سرينة سيارات الشرطة، ولم يكن الظلام قد هبط عندما حاول أن يضممني ثانية، لكنني دفعته برفق أقول:

- معاك حق يا علاء.. بلاش نتعب أعصابنا ع الفاضي.

- ما انتي يا ماهرة اللي مش عايزة.

- يا علاء ما هو مش ح ينفع تيجي البيت عندي.. أشرف قاعد على النت ليل نهار.. ومسافة ما يخرج لصحابه مسافة ما يرجع.. وكمان أخاف حد من الجيران يشوفك.. وطبعاً انت عارف ان العين علينا.

رد بضيق:

- طيب والعمل؟

- أنا برضه اللي ح اقول لك إيه العمل؟

وساد صمت أثقل مما يسود كل مرة، ثم اربدت السماء فجأة، وبدأ رذاذ المطر يداعب زجاج السيارة، ثم يتكاثف عليه حتى حجب الرؤية تماماً، ثم هبط الظلام، فكانت فرصة لنختلس لحظات من المتعة

لا يمكن حسابها من الزمن، حتى رن هاتفي برقم غريب، لكن الصوت
من أعذب الأصوات:

- آلو.. ماما؟

- نسمة...

وانحبس صوتي من الانفعال، لكنني عدت أتمالك نفسي:

- إزيك يا نسمة؟ عاملة إيه يا حبيبة قلبي؟

- أنا كويسة يا ماما.. إنتي عاملة إيه؟

- بخير يا روعي.. هي دي نمره جديدة يا نسمة؟ وليه يا حبيبة
ماما ماكتتش بتردي على تليفوناتي؟

- أيوه يا ماما دي نمره جديدة.. سجليها وامسحي اللي عندك..
النمره دي بتشتغل ع القمر الصناعي وداياح اكملك منها.

- ماشي يا قلبي.. بس دلوقت طمني.. ها إيه الأخبار؟

- أنا كويسة والله يا ماما.

- دايا يا رب.. لكن أنا قصدي ع الأخبار الثانية.

- آه.. لا.. اتطمني خالص يا ماما.

- بجد يا نسمة؟ أتطمئن؟

- أيوه يا ست الكل.. اتطمني خالص خالص.

- يعني كله تمام يا روح قلبي؟

- عيب.. أنا بنتك يا ماما.

ويا للزهو الذي ملأني وأنا أسمعها تقول «أنا بنتك يا ماما».. وإن أوجعتني كلماتها.. هي تفخر أنها ابنتي.. وأنا أمارس الحب داخل سيارة مظلمة على قارعة الطريق!

ثم أعطتني زوجها، وجاءني صوته أجش عكس ما كنت أسمعه، وكلمني باختصار شديد، فقط نصحني ألا أتكلم على رقم الهاتف الأرضي في بطاقته، قائلاً إن الخطوط في حي الموردة سيئة جداً، فتعجبت كيف والحى على حد قوله من أرقى أحياء أم درمان! وساورني قلق ما، وقبل أن أستفسر منه انقطع الاتصال فجأة، ولا أدري لماذا أحسست أنه انقطع عمداً! ولم أفلح في استعادته مرة أخرى.

علاء كان ينتظر انتهاء المكالمات بفارغ صبر، ولم يسألني سؤالاً واحداً عن نسمة، فقط كان متلهفاً لنستأنف القبلات، والحقيقة ومن فرط فرحتي باتصال ابنتي، لم أبخل عليه، حتى رن هاتفي ثانية، وكان أشرف، فكاد علاء يفقد صوابه، وكالعادة استهل ابني المكالمات بالسؤال إياه، وبالنبذة المستنكرة التي أصبحت معتادة:

- إنتي فين يا ماما؟

- في مشوار كده وراجعة حالا.

ثم بادرت به صارخة حتى لا يتماهى:

- إنت بقى اللي فين؟

- ما انا باتصل بيكي عشان كده.. أنا مع عصام صاحبي عند واحد صاحبه في كفر سعد.

- إيه؟ في كفر سعد؟ وإيه اللي وداك كفر سعد؟

- عادي يا ماما فيها إيه؟

- وسيادتك ح ترجع إمتي؟

- ما انا باتصل عشان اقول لك اني مش ح ارجع دلوقت.. ويمكن أبات.

- إيه؟ تبات؟ وفي كفر سعد؟ ليه بقى ان شاء الله؟

وقبل أن يرد، إذا بعلاء يهمس لي لأفتح الإسيكر، كان يريد أن يسمع، وبلا تفكير فتحتة، لنسمع ابني يقول:

- الكمبيوتر بتاع صاحب عصام محتاج شوية تنظيف.. تغيير رامات وتنزيل ويندوز وحاجات كده.. يعني العملية ح تاخذ وقت وعشان كده ح ابات.

وقبل أن أعترض، إذا بعلاء يشير لي بإشارة خفيقة لها قلبي وتخدر لها جسدي، فقد فهمتها على الفور، وإذا بي أقول لابني:

- يعني أكيد ح تبات في كفر سعد؟

- أيوه يا ماما.

- طيب مع السلامة وخلي بالك من نفسك.

وكان علاء لم يصدق.. سألني:

- يعني موافقة؟

فأجبت هامسة:

- أيوة.

وأدار السيارة وانطلق كالصاروخ، ودقائق وكنا أسفل بيتي، ومن
حظنا أن المطر أصبح على أشده والكهرباء مقطوعة في المنطقة كلها،
وقلت له وخدر لذة المغامرة يدغدغني:

- اركن العربية بعيد عن البيت.. وح اسيلك باب الشقة موارد.

وكان الوقت كافيا لآخذ حماما سريعا قبل أن يعود، وعندما عاد
سألته بقلق حقيقي:

- حد شافك؟

- لا.

فتبدد قلقي بينما جسدي يتخدر أكثر.. ثم رن هاتفي، وكانت إحدى
زميلات المستشفى، فأنهيت معها بسرعة، وإذا بعلاء يقول:

- مهرة.. يا ريت تقفلي التلفون ده.

- حاضر.

ثم سأله:

- تتعشى؟

- عندك إيه؟

- رز وسمك.

- هایل .

وعادت الكهرباء فجأة، وكنت قد ارتديت ما يحبه علاء، فأسرع
يضميني ويغرقني بالقبلات، ثم يقول:

- يا ريت تتصلي بأشرف وتؤكد بي بطريقتك إنه فعلا حبيبات في
كفري سعد.

- ماتقلقش .. أنا متأكدة.

- معلش .. اتأكد بي ثاني عشان خاطري.

- حاضر.

لكن تليفون ابني يعطى دائما غير متاح، فقلت أطمئن علاء الذي
كان فعلا في قمة توتره:

- أنا عارفة ابني كويس .. أكيد حبيبات برة .. ده ما بيصدق اني أوافق.

فاطمأن علاء إلا قليلا، وعاد يضميني ويقبلني، ثم راح يخلق بي
عاليا في سماوات لا نهائية، راح يهمس لي بكلمات لا أعتقد أن رجلا
همس بمثلها من قبل لامرأة! كلمات لا يمكن أن توصف بالجرئة، لأنها
تتجاوز في جرأتها كل الخطوط الحمراء، وإن كان قد همس لي بمثلها من
قبل، هناك في حدائق المنتزة! والآن يبدو أنه يستلهم بها سحر الحدائق،
أو يستدعي بها ذكرياته هناك والتي لا يستطيع أن ينساها .. ولعله كان
يشعل بها حرائقه قبل أن يشعل حرائقي!

أما أنا، فكان لدى ما يشعل حرائقي ذاتيا ويؤججها كالسعير، إنه
السريير الذي لم يعد سريير حسن، كنت قد بدلته مع ما بدلته من أثاث،

وبعدما شاورت بدرية مرارا، فأكدت لي تكرارا أن الحي أبقى من الميت!

ولكن.. ماذا جرى لعلاء!

لماذا أشعر به يشعل حرائقي.. ولا يطفئها!

حقا لماذا لا يطفئها كما كان يفعل هناك، في حدائق المنتزة، لماذا عند اللحظة الحاسمة يتنفذ مفزوعا فجأة.. ثم يدعي أنه سمع صوتا كأنه أشرف! أين نحن وأين أشرف!

ولكن لا داعي لأن أظلمه، فأنا أيضا كنت أتوهم أصواتا، وأموت رعبا من مجرد الظن أنها لأشرف.

ولكن.. يا مصيبيتي يا مصيبتاه! يبدو أن الوهم حقيقة!

فثمة صوت كأنه مفتاح يدور في كالون الباب، وفورا وضعت الروب على جسدي واندفعت كالمجنونة، فلا بد أن أوقف ابني عند حدود منتصف الصالة، وإلا سأجده في قلب مخدعي، وفعلًا أدركته بالكاد.. وهتفت به كأنني أوبخه على عودته:

- إيه اللي جابك؟

فلم يلحظ وسألني:

- كنتي نائمة وللا إيه؟

وفورا تصنعت الشاؤب أقول:

- كنت لسه ح انام.

ثم تحايلت لأسحبه بعيدا عن مخدعي، ثم وقفت كالديدبان أحرسه..

مخدعي.. فأنا أو الموت أن يدخله ابني، أو حتى مجرد يقترب منه، وعدت أسأله وأنا أتحكم في نبرة صوتي لأبدو طبيعية:

- رجعت ليه؟ مش قلت ح تبات؟

فلم يرد.. كان مشغولا يبحث بلهفة عن شيء يبدو أنه سبب رجوعه..
وفعلا قال وهو يفتح أدراجة الواحد تلو الآخر:

- كانت هنا مش عارف راحت فين؟

- هي إيه؟

- علبة سيديهاات عليها برامج.

ولعنت الكمبيوتر في سري ألف مرة.

لكن مرة أخرى.. يا مصيبيتي يا مصيبتاه!

فبخلاف القنبلة الموقوتة بمخدعي، كانت قنبلة أخرى على منضدة
أشرف.. سلسلة مفاتيح علاء.. وبها تمثال فضي لأسد يعرفه أشرف
جيذا، وتمزقت رائحة غادية بين القنبلتين، أشرف لو عثر في واحدة..
فسيكون الانفجار مروعا.. وبعده لا شيء إلا الضياع.. حتى نجحت
أن أضع قطعة من ملابسني على سلسلة المفاتيح، وحتى عثر ابني على ما
يبحث عنه، ولم أصدق نفسي وأنا أراه يتجه إلى الباب:

- إنت خارج تاني؟

- أيوه..

وزيادة في التأكد سألته بمكر:

- معقول ح ترجع كفر سعد في المطرة دي؟

- معانا عربية صاحب عصام.. الاتنين تحت في الشارع.

ثم فجأة سألني:

- مالك يا ماما؟

- هه.. أبدا.. صداع من قلة النوم.

- ادخلي نامي.. وانا لو خلصت بدري ح ارجع لك.

وفتح الباب وانطلق..

وعدت لعلاء.. لأجده عاريا كما هو، ولا يهمس حتى بالنفس، وما إن ذهبت أحضر له كوب الماء الذي طلبه، حتى وجدته ارتدى ملابسه ويريد الانصراف، فحاولت أن أثنيه مؤكدة أن أشرف لن يعود في المدى القريب، لكنه لم يسمع لي، كان في قمة توتره، أعرف أنه لا يأمن مكر أشرف، وكما خجلت من نفسي أن أظل أمامه شبه عارية بينما هو في كامل ملابسه، خجلت أن ألح عليه أكثر ليبقى، فارتديت ملابسي، ثم إذا بالكهرباء تنقطع ثانية ويعم الظلام، فتوقعت أن ذلك سيثجع علاء ليبقى، لكنه مضى إلى الباب يقول:

- فرصة أنزل والدنيا ضلمة.

وفعلا اختفى.. لأذهب أتمدد على سريري وأنا ألعن الخوف والكمبيوتر والدنيا بأسرها.



حتى أصبحت أفكر جديا في كلام بدرية..

لماذا لا أتزوج علاء؟

أقصد لماذا لا نعلن زواجنا للناس لكن لا نوثقه أمام المأذون؟ حتى لا أفقد معاشي ولا ينبغي أن أفقده، فعملي بالمستشفى صار موقوتا، قد أجد نفسي مجبرة أن أتركه في أي وقت، فبجانب تنظيف المراحيض، الآن يكلفونني بحمل الأشياء الثقيلة، أثاث وأجهزة طبية وخلافه، حتى أكدت لي الدكتورة نهاد أن الآلام المبرحة التي بدأت تحتاح ظهري، هي بوادر مبكرة لانزلاق غضروفي.

ثم.. أليست نسمة تزوجت؟

وأشرف يصر على السفر؟

أي أن الوحدة قادمة لا محالة كما قالت بدرية؟

إذن فلماذا لا أتزوج في النور؟

لكن تظل المشكلة التي تؤرقني وأحسب لها ألف حساب..

كلام الناس..

بالذات والدة علاء وأخته وزوجته، وإن كان كلام أخته وزوجته لا يهمني للدرجة.. فقط والدته.. لن أقوى على مواجهتها، نعم هي ربما تكون تريد لي الزواج، لكن بالطبع ليس بابنها.

ثم كلام أهم الناس.. وأعز الناس.. أشرف ونسمة.. وإن كان كلام نسمة لا يهمني للدرجة، فهي الآن بعيدة مشغولة بحياتها مع زوجها،

وربما يفرحها أن أتزوج.. خصوصاً بعلاء.

فقط يبقى أشرف.. مجرد نظراته ربما تقتلني.

حتى ضاقت بي الدنيا.. وبعلاء.

لكن إذا بالفرصة تأتينا ثانية، وبأسهل وأسرع مما نتوقع.. كنا كالعادة داخل السيارة على الطريق السريع، حين جاءني اتصال من أشرف، وكالعادة بمجرد نظرة من علاء.. فتحت الإسيكر.. لنسمع ابني:

- كل سنة وانتي طيبة يا ماما.. بعد بكرة شم النسيم.

- وانت طيب يا حبيبي.

- أنا وصحابي اتفقنا نروح راس البر.. وح نبات هناك.

وهذه المرة لم أنتظر إشارة علاء، فوراً أعلنت موافقتي، ومن فرحة علاء أدار السيارة وانطلق بأقصى سرعة، ولكن في اتجاه الإسكندرية! وحسبتها لحظة الفرح وسيرتد عائداً من أقرب نقطة، لكنه استمر منطلقاً ينظر لي ويبتسم، فهتفت به:

- إنت رايع على فين؟

- ع المتزة.

- علاء.. إنت اتجننت؟

فأوما برأسه أن نعم.. أعرف أن رغبته المجنونة وجنون اللحظة، قد يدفعاه ليفعلها، لكنه تحت توسلاتي استدار وعاد.

وفي ليلة شم النسيم، لم يغادر أشرف البيت إلا عند الفجر، وبمجرد
تخطيه عتبة الباب أسرع أتصل بعلاء، الذي كان ينتظر اتصالي على
أحر من الجمر.. ولم يصدق:

- يعني نزل من البيت فعلا.

- أيوه.

- وحيات في راس البر أكيد؟

- أيوه.. وكمان أم ياسر في شرباص.. يعني مفيش حد ح يشوفك
وانت جاي.. بس لو جاي تعال قبل الصبح ما يشقشق.

- حالا.

وأتى محملا بأشياء كثيرة، أهمها لفافة أنيقة طلب أن أغمض عيني
وهو يفتحها، وإذا بها قميص نوم فاضح ماركة لاسينزا، نفس الماركة
التي اشترتها بدرية ونحن في الإسكندرية، وطلب أن أذهب أرثديه
لأجهز الفطور وأنا به.. ففعلت.

وعند البوتاجاز وكما توقعت، جاء يضميني، ثم يقبلني ويهمس:

- مهرة.. عايز اقول لك على حاجة بخصوص ليلتنا الأولانية.

- ماها؟

- باعتذر لك عنها.. ويا ريت تعتبرها مش محسوبة.

- ليه بتعتذر؟ ولية اعتبرها مش محسوبة؟

- يومئذ أعصابي كانت مشدودة ع الآخر.

فتعجبت في نفسي.. أهكذا هي الليلة الأولى دائماً؟ حتى على من سبق له الزواج؟ وعلى رجل مثل علاء؟

- طيب ودلوقت.. لسه أعصابك مشدودة؟

- لا.. كله تمام وعال العال.

فسألته بدلال:

- إسمعني؟

- عشان المرة دي متأكد إن أشرف مش ح يفاجئنا.. المرة اللي فاتت كنت متأكد إنه ح يعملها.

ففهمت.

وبعد الفطور عاد يخلق بي عالياً، ويسمعي كلمات لم تسمعها امرأة من قبل، وهذه المرة لم تتجاوز كلماته الخطوط الحمراء.. لم تكن هناك خطوط أصلاً! فاشتعلت أولى حرائقي بأسرع مما أتوقع، ثم توالى الحرائق.. لكن رباه..

لماذا لا يطفئها كما أطفأها في حدائق المنتزة!

ولماذا دائماً ينتفض مفزوعاً ويفزعني معه!

لكننا ما لبثنا أن غرقنا في الضحك، فثمة وقع أقدام سمعناها تصعد السلم، ثم أخرى تهبط، ثم أعقبها مواء ققط! ولم نكف عن الضحك إلا عندما أخذته في صدري، ثم كما طلب ذهبت لأعد له كوب شاي،

وجلس يشربه وهو يلتهمني بنظراته.. نظرات مثل نظرات زمان.. مثل أول عهدي به!

ثم عاد يخلق بي ثانية، وهذه المرة خلّق غير كل مرة، وهمس بأكثر من الكلمات التي لا أدري من أين يأتي بها، واشتعل أول حريق، ثم أصبح جسدي مجرد قطعة من لبيب، لأجد نفسي أنفصل عن هذا العالم وأحل في دنيا أخرى غير الدنيا.. ثم...

ثم عاد ينتفض مفزوعا!

وإن كنت متأكدة هذه المرة أنه لم يسمع شيئا!

نعم لم يسمع شيئا لم يسمع شيئا!

وأول مرة أرى علاء يدخن، فجأة قام إلى قميصه وتناول منه سيجارة، ثم جلس متكورا على نفسه يدخنها في صمت، حتى قال وهو ينفث الدخان ويتحاشى نظراتي:

- مش عارف فيه إيه.

فقلت بحنان:

- ولا يهملك.. إحنا ورانا إيه؟

ثم ذهبت وأتيت بفاكهة وجلسنا نأكل ونتداعب، ثم أشعل سيجارة أخرى، فانتهزت الفرصة وقمت أمشي الهوينى إلى المرأة، أسوي شعري أمامها وأنظر إليه من خلالها.. متعمدة.. وكما توقعت.. وجدته خلفي! ومرة أخرى عاد يخلق بي.. وعادت كلماته تذييني.. وعُدت أجد

نفسى فى دنيا غير الدنيا.. و.. ولا جديد.. فجأة انتفض مفزوعا!

ولكن هذه المرة انتفض من هاتفى.. الذى رن فجأة..

وكان أشرف.

ليتحول علاء لإنسان آخر!

انتزع الهاتف من يدي، وعلى مد ذراعه طوحه، ليرتطم بالحائط ويتناثر لعشرات القطع، ثم دفعني عنه وانتحى جانبا بعيدا يدخن، ويتمتم بكلمات وإن كانت صامتة، إلا أنها ساخطة، في منتهى السخط!

ولم أجزع أو أغضب، أو حتى ألم أو أعتب، فهي غلطتي أنا، نسيت إغلاق الهاتف أو ضبطه على الوضع الصامت، وذهبت لأحتوي علاء، وأفعل ما لا تفعله امرأة لترضي رجلا، لتعيده لطبيعته ويعود مجنوننا بها.. لكن لا جدوى.

لكنه بعد وقت جاء يصالحني، ثم يستخلص شريحتي من حطام هاتفى ويضعها في هاتفه، ثم يقدمه لي عوضاً عن هاتفى، ولكن فوجئت به يرتدي ملابس لينصرف! وفعلنا نزل دون كلمة حتى أو نظرة، ولدرجة أن شككت في نفسي، فذهبت أحلق في المرأة! فربما تحولت فجأة لامرأة أخرى لا تروق له، لكن ها أنا كما أنا، فاتنة جدا ومثيرة جدا.. خصوصا في قميص النوم.. ولم أتحمّل.. نزعت القميص عن جسدي وجلست طول الليل أسلي نفسي به.. أمزقه قطعة قطعة!

* * *

للعادة على الإنسان سلطان!

فرغم ما حدث، في اليوم التالي وكما تعودت، بمجرد خروجي من المستشفى هاتفت علاء، ودقائق وكنا على الطريق السريع، ولم ننطق بكلمة، أو نتبادل حتى نظرة، كنا مثل تمثالين بلا روح، لا شيء إلا البلادة والصمت، وإن كنت خلال هذا الصمت أصرخ لنفسي: هل أنا دون أن أدري أنزلت لطريق الضياع؟ أم أنني انزلت فعلا؟ يبدو أنني انزلت..

حتى رن هاتفي.. فنظر لي علاء متسائلا.. فقلت وأنا خائفة من رد فعله:

- ده أشرف.

فنظر لي نظرة ما، لا أدري هل هي نظرة غيظ أم نظرة أمر لأفتح الإسيكر، وعموما فتحته، وجاءنا صوت ابني:

- إنتي فين يا ماما؟ أنا رجعت من راس البر ومنتظرك في البيت من بدري.

- حمدالله ع السلامة يا حبيبي.. أنا في مشوار وراجعة حالا.

وإذا بعلاء يطلق زفرة ضيق هائلة، فأسرعت أغلق الهاتف خوفا أن يتفوه بكلمة ما فيسمعه ابني، ثم صرخت فيه بمنتهى الغضب:

- مالك يا علاء؟ فيه إيه؟

فلم يرد، فكظمت غيظي ولجأت للصمت، لكنني عدت أصرخ لنفسي

متعجبة: هل كان ظن علاء.. أن أشرف سيقى في رأس البر إلى الأبد؟

وفي البيت لم يكف أشرف لحظة عن قص حكايات لا حصر لها عن الهجرة غير الشرعية.. حكايات سمعها من أصدقائه في جلسات السمر في رأس البر، والآن يعيدها على سمعي وهو يكاد يفقد صوابه انبهارا بأبطالها، كيف أنهم غامروا ووصلوا لشواطئ أوروبا بسلام، بل ويعملون فيها الآن، وكان يبرر سلامة وصولهم بشيء واحد فقط، أنهم هاجروا على بلانصات الرئيس سردينه! ابني كان يتحدث عن بلانصات الرئيس سردينه، كأنه يتحدث عن لنشات البحرية الأمريكية!

أما علاء فقد اختفى تماما.. لم يعد يتصل بي أو يرد على اتصالاتي، وكم انتظرته مرارا أمام المستشفى فلم يأت، ولم أسخط عليه أو أحق، بل على العكس، رحت ألتمس له الأعذار، موهمة نفسي أن ضيقه بأشرف كان فوق احتماله!

لكن غيابه طال.. فقررت أن أذهب أبحث عنه.. فقط شغلتنني مكالمه جاءت من نسمة:

- إزيك يا ماما.

- نسمة.. كده برضه يا حبيبتي؟ كل المدة دي ومفيش اتصال واحد؟

وبكيت بحرقة.. لكن جاءني ردها مطمئنا إلى حد ما:

- شبكة التليفونات هنا وحشة قوي يا ماما.

- طيب عاملة إيه يا روح ماما؟ وعاملة إيه مع جوزك وهو عامل معاكي إيه؟

- اتطمني يا ماما.. بلال مش مخليني محتاجة حاجة.

- بجد يا نسمة؟

- آه والله يا ماما.

- طيب ما تقولي له عايزة أشوف ماما!

- إحنا مسافرين أثيوبيا الأسبوع الجاي.. بلال عنده شغل هناك
ومش عارفة ح نرجع إمتى.

فصرخت فيها:

- أثيوبيا إيه وبتاع إيه يا نسمة.. لازم يا حبيتي تزوري أملك الأول
وبعد كده تروحوا أثيوبيا وللا الصومال حتى.. إديني جوزك أكلمه.

- بلال لسه في مكتبه.

- فيه تليفون هناك؟

- فيه بس للأسف مش شغال.

وثانية صرخت فيها لكن بهيستيريا:

- خلاص.. لما يجي خليه يكلم...

وانقطع الاتصال..

وهذه المرة صرخت في نفسي.. أو من نفسي.. وربما للمرة المليون:
هل كنت في كامل أمومتي عندما اخترت بلال لابتتي؟

* * *

وطال غياب علاء أكثر مما ينبغي..

واستمر لا يرد على اتصالاتي، حتى لو من أرقام غير رقمي، وأيضا لم أسخط عليه أو أحقن، بل والأعجب، استبد بي شوق جارف لأراه.. وأيضا لأهمس له.. لماذا تبتعد هكذا؟ تعال وكل مشكلة لها ألف مليون حل!

ثم دفعني الشوق لأراه بأية طريقة ومهما كلفني الأمر.

ولكن هل أذهب أراه في مقر عمله؟ أم عند أمه؟ أمه التي أكاد أكون انقطعت عنها تماما، لا زيارات ولا حتى اتصالات.. والحقيقة كنت أخاف أن أفعل، أخاف من رد فعلها، فالسيدة التي كانت لي يوما جنة وارفة أهرب إليها، لم تعد كذلك.. يا للزمن والأيام!

حتى قطع حبل أفكاري صوت أشرف يضحك عاليا، كان يتحدث مع أحد أصدقائه على النت، يحدثه كالعادة عن الهجرة، وبخيال واسع كأنه يحلم.. وإذا بي أحلم معه.. آه لو يهاجر ابني لأوروبا.. ثم يوفقه الله هناك!

وكان الحلم منحني طاقة، فاندفعت بكل شوقي لعلاء أبحث عنه، ذهبت أولا إلي مقر عمله، ولكن لم أجده، وتكرر ذهابي وفي كل مرة لا أجده، واستمر لا يرد على اتصالاتي، حتى كدت أجن، وحتى تبددت طاقتي، وحتى أمسك برأسي هاجس بغيبض.. أنني أفقده.. وأنه يضيع مني.

وإذا بالأنثى بداخلي تتدخل.. وبقوة!

ضباع علاء منك.. بداية ضباعك..

اذهبي له عند أمه!

والأفضل قبلها.. أن تذهبي للرئيس سردينة!

وذهبت!

وإن ظننت في البداية أنني ضللت الطريق.. تقريبا خرجت من عنده شبه مطرودة! ففي كوخه البائس قرب ساحل الدبدوبة، ما إن فتحت معه حديث البحر والهجرة، حتى قال باستنكار وغلظة تعجبت لهما:
- بحر إيه وهجرة إيه يا ست انتي؟ إحنا مالناش في السكة دي..
ولو سمحتي اتفضلي من هنا من غير مطرود.

ولم أجروء أن أراجع له ولو بكلمة، خفت من سحته وسحنة من حوله، ولكن بعد خروجي من عنده إذا بأحدهم يلحق بي:

- معلش يا مدام.. اعذرينا.. إنتي عارفة الحكومة ورذالتها.

وقبل أن أنطق عاد يقول:

- إديني نمرة سعادتك واحناح نكلمك ونقول لك على كل حاجة.

ورفض أن أرن له أويرن لي وأخذ رقمي مكتوبا، وفي المنزل وعندما أخبرت أشرف، قفز من مكانه فرحا:

- بجديا ماما؟ قابلتي الرئيس سردينة؟

- أيوه.

وقبل أن يبدأ باقي أسئلته المتوقعة، حكيت له الحكاية بتفاصيلها،

وختمتها بأننا في انتظار مكالمة من أحد رجال سردينه، وليتني ما حكيت..
ليلتها لم ينم ولم يتركني أنام.

وفي الغد وبعد خروجي من المستشفى، عقدت العزم على زيارة
والدة علاء، ولكنى ترددت كثيرا، فزيارتها لم تعد مأمونة العواقب،
ولكن ورغم شوقي الجارف لرؤية علاء، ورغم علمي أن إقامته الدائمة
هي عند أمه، أي أن أجدّه عندها هو يقين وليس احتمالا، فإنني خفت،
فلا قبل لي بمواجهة السيدة، فصرفت نظر وتوجهت إلى بيتي لأعيد
تهيئتي نفسيا، فأنا لا بد أن أذهب لأراه عند أمه.

وفي البيت وهربا من أشرف الذي لم يعد يحدثني إلا عن سردينه،
تمددت على فراشي مدعية النوم، وذهب ذهني يفكر في نسمة، ثم في
بدرية، ثم يعود يفكر في علاء، ووجدتني أجرب الاتصال به كمحاولة
يائسة مثل غيرها.. لكن المفاجأة أنه رد.. ومن فرحتي لم أثبه حنقي
أو غضبي، أو حتى عتابي، فقط أخبرته أنني ذهبت لسردينه، فصاح
مثلا صاح أشرف من قبل:

- بجد يا مهرة؟ قابلتي الرئيس سردينه؟

- أيوه.

- اسمعي.. أنا لازم أشوفك حالا.

وهنا قررت أن أعاقبه، فقلت:

- مش ح ينفع.. أشرف من ساعة ما عرف إني قابلت سردينه..
وهو ورايا مطرح ما اروح.

- اتصرفي يا مهرة.. لازم أشوفك بأي طريقة.

- قلت لك مش ح ينفع.. أنا في انتظار مكاملة من طرف سردينه..
وابني عايز يتكلم بنفسه مع اللي ح يتصل.

- بسيطة.. إديله تليفونك وخدي تليفونه.

وبعد طول تردد مع نفسي، بدلت هاتفي مع ابني وتركته للشات
وذهبت لعلاء، الذي قال بمجرد توقيه في مكاننا المفضل على الطريق
السريع:

- خير ما عملتي.. خليه يسافر يشوف مصلحته.

فقلت أعاتبه، أو أؤنبه.. أو في الحقيقة أؤنب نفسي:

- قصدك خليه يسافر عشان ناخذ راحتنا.. مش كده؟

وبكيت.. فلم يجد ردا إلا القول:

- إنتي تكرهي إنه يسافر عشان يشوف مستقبله؟

- يشوف مستقبله آه.. لكن بالطريقة دي لأ!

وهنا لم يجد ما يجيبني به إلا القبلات، حتى رن هاتفي، أو بالأصح
هاتف أشرف:

- ماما.. الراجل بتاع الرئيس سردينه اتصل.. بس مش عايز يتكلم
غير معاكي.

-ليه؟

- يقول ان الكلام من الأول كان معاكى ولازم يبقى معاكى.

- ما انا قلت لك كده من الأول يا أشرف.

- عموما هو ح يتصل تاني بعد ساعة.. إنتي فين دلوقت؟

- أنا في المشوار الي قلت لك عليه وراجعة حالا.

وفي الموعد تماما تحدث الرجل، ولكن من رقم مختلف، وبعدما اطمأن لي ولأشرف، أخبرني بالتفاصيل وبالمطلوب.

المطلوب كان ثلاثين ألف جنيه، أدفعها عدا ونقدا وبالطريقة التي سأعرفها فيما بعد، ولا مجال للمساومة، وترتيب السفر أن سيارة ميكروباص ستأتي تأخذ أشرف من أمام البيت، وفي موعد سأعرفه بعد دفع المطلوب، ولا بد أن أودعه من البيت وقبل ركوبه السيارة، لأنه لا وداع بعد ذلك، ولا حتى سأعرف من أين ولا متى سيبحر البلا نص الذي سيسافر عليه، ويجب ألا يأخذ معه غير أطعمة ومياه تكفيه لعشرة أيام على الأكثر، وبعد ثمانية أيام بالضبط من يوم الإبحار سيخبرني أحدهم بمصير الرحلة أياً كان.. (وياذن الله يا مُدَام إبنك يحط عند الطلاينة بسلام).. هكذا ختم محدثي.

وذهبت أسحب رصيدي بدفتر البريد، فوجدته أقل من خمسة وعشرين ألف جنيه، هو كل ما أدخره لمفاجآت الزمن، فأسرع علاء يستدين الباقي.

وتحدد موعد السفر بعد أسبوع..

ومن لحظتها وأنا في حالة من الربكة، لا أدري ماذا ينبغي أن أجهز

لابني ليأخذه معه في سفرة كهذه؟ أي طعام وأي ملابس وخلافه، حتى تذكرت تعليمات رجل سردينه، كانت واضحة ومحددة ولا سبيل لتجاوزها، لا شيء غير الأكل والشرب وبحساب، فالبلا نص سيكون مكدسا ولا مجال لأية أحمال زائدة.. وهكذا أيضا نبهني علاء.

وكلما اقترب موعد السفر، تحدثني نفسي بالتراجع، لكن سهم القدر كان قد انطلق.. أشرف يتحدث عن الشاطئ الآخر من المتوسط كأنه الجنة الموعودة، وأصدقاءه غادون رائحون عليه، هذا يهنئه وذلك يشد أزره وآخرون يتطوعون بأداء مهام يكلفهم بها.

أما علاء، فلم يكف لحظة عن الاتصال بي، وفي كل مرة لا يتكلم إلا عن الرزق ولقمة العيش وضرورة أن يسعى المرء وراءهما حتى لو في آخر الدنيا، ثم يختم كلامه ببيان عن حالة البطالة ومدى استفحالها هنا، ولا ينسى أن يؤكد أن القادم هو الأسوأ!

وفي يوم رحيل أشرف.. إذا بالمفاجآت تتوالى!

إذا بعلاء يأتي للمنزل!

ثم المفاجأة الأشد..

أن أشرف لم يمتنع لمجيئه! بل وصافحه بحرارة!

ثم الأشد والأشد.. أشرف يوصيه بي قائلا:

- عمو علاء.. ماما أمانة في رقبتك.

وكسرتني الكلمات من داخلي!

وهذه ثالث مرة أنكسر من داخلي..

الثانية كانت حين قالت لي نسمة: عيب.. أنا بتتك يا ماما.

أما الأولى فكانت في قسم الشرطة..

يوم نظر لي سعداوي بنظرات تضعج بالعتاب والحب!

ثم استمرت المفاجآت..

أخرج علاء من جيبه ميدالية على شكل قلب، فتحها فإذا بداخلها قصاصة من الورق المشمع مكتوب عليها آية الكرسي، قدمها لأشرف قائلاً:

- خلي دي معاك يا أشرف.. يمكن الظروف لا قدر الله تضطرك
نعوم في المية.. ساعتها دي بإذن الله تحفظك وتحميك.

وتقبلها أشرف بقبول حسن! بل ووضعها في سلسلة أحاط بها عنقه!
وحانت لحظة الوداع..

فانتبذت ركننا وحدي، وتركت لدموعي العنان، أدعو الله بدعوات
تخرج من أعماق أعماق قلبي، كلها تبتهل وتتوسل للحافظ القدير أن
يحفظ ابني حتى يصل لمبتغاه بسلامة، ولا يريني فيه مكروها أبداً.

حتى جاء أشرف يحضنني الحضن الأخير ويقبلني القبلية الأخيرة،
قبل الوداع، فإذا بي أسقط منهارة، لا من شدة تأثري باللحظة، ولكن
من شدة تأثري بسعال فلذة كبدي.. بعد عودته من شرم الشيخ لم يسعل
إلا قليلاً، ثم كف السعال عنه تماماً من يومها، لكن لا أدري لماذا وهو
يودعني الآن، يشتد به السعال هكذا حتى يكاد يمزق صدره.. وصدري..

يا الله.. قلب الأم لا يتحمل ذلك وأنت تعلم.

يا الله.. فلتكن رحيمًا به وبى.

ونزل أشرف محاطًا بكوكبة من أصدقائه، وركب سيارة الميكروباص وصوت سعاله يأتيني.

وخلا البيت من أشرف.. وها أنا الآن وحدي أنظر حولي كالمثناة، لا أصدق أنني لن أرى ابني ثانية إلا إذا سمحت الأقدار، ولم يكن بجواري سوى علاء وبعض الجيران، لكن بعد برهة، وبعدما انتبه وانتبهت إلى أن أعينهم جميعًا تراقبنا بصمت، لم يجد بداً من أن يستأذن وينصرف. لكنني فوجئت به في جوف الليل.

وفوجئ هو بمنظري.. كنت محمرة العينين من كثرة ما بكيت، ومبعثرة الشعر من كثرة تقلبي على الفراش، وقبل أن يعلق، ومن شدة ضيقي بزيارته، هتفت به:

- دي جرأة منك ماهاش داعي يا علاء.. إزاي تيجي في وقت زي ده؟

- ياه.. للدرجة دي متضايقة من وجودي؟

- أيوه.. الوقت متأخر قوي وممكن حد يشوفك.

لكنه لم يبال وأرد أن يقبلني، فصرخت فيه:

- مش ح تمس شعرة مني قبل ما اتطمئن على ابني.. كمان المفروض

إنك تصبر شوية.. على الأقل لحد ما ناري على إبني تبرد.

ومع ذلك اتجه لمقعد يريد الجلوس، لكن متردداً، يقدم قدماً ويؤخر

الأخرى ويقول:

- أنا قابلت واحد من رجاله سردينه.. قال لي إن البلانص ممكن
يوصل إيطاليا بعد خمس تيام مش ثمانية.. وساعتها ح يتصلوا بيكي.
ولا أدري لماذا أحسست أنه يكذب، أو أنها مجرد حيلة ليبقى، فعدت
أصرخ:

- أنا مش ح اتظمن إلا لما اسمع صوت ابني بيكلمني بنفسه.
- ما هو أكيد لما يقف على أرض إيطاليا.. ح يقدر يكلمك بسهولة
من أي تليفون هناك.

والحقيقة أراحمي كلامه، وإن بقيت لا أظهر ترحيبا به ولا أستجيب
للملاطفاته، فاضطر إلى أن ينصرف.

* * *

في خضم الأحداث المتلاحقة، غابت بدرية تماما عن بالي، لكنني
تذكرتها فجأة، فسرحت أفكر فيها، ثم أقول لنفسي لا شك أنها الآن
وضعت، بل وربما تكون عادت، وعجبت أنها طوال هذه المدة لم تتصل
بي، فطلبتها على أمل أن تكون عادت.. ويا لصدق إحساسي.. بعد رنين
طويل إذا بها ترد! فصرخت لا أصدق:

- بدرية؟ معقول؟ إنتي رجعتي؟

- إزيك يا ماهرة؟

- حمدالله ع السلامة يا حبيبتى.. رجعتي إمتى؟

وبعد صمت:

- من إسبوعين.

- إخص عليكي .. من أسبوعين وماتتصليش؟

- معلش .. ظروف.

- عموما حمدالله ع السلامة .. ها .. ولدي وللا لسه؟

وبعد صمت آخر:

- أيوه ولدت.

- ألف مبروك يا حبيتي .. وصحتك عاملة إيه إنتي والبيبي؟

لكنها عادت للصمت .. صمت مريب يثير القلق! تماما مثل ردودها
المختصرة التي لا أثر فيها للفرحة! يا إلهي .. هل ثمة مكروه أصابها أو
أصاب المولود؟ أو زوجها؟ أو .. أو وليد؟

- ويا ترى سميتوا وليّ العهد إيه؟

وصدق ما توقعته .. فجأة بكت تقول:

- مهرة .. أنا واقعة في مصيبة.

- يا ساتر يا رب .. مصيبة إيه؟

- يوسف.

- مين يوسف؟

- المولود.

- ماله؟

وعادت تبكي وتتنحب، فذهب ذهني يخمن كل المصائب.. موت.. مرض.. تشوه.. نقص وزن.. ولما لم أسمع منها ردا، صرخت فيها:

- ماله المولود يا بدرية؟

- شبه أبوه الخالق الناطق.. شبه وليد يا مهرة.. ماسابش منه حاجة.. حتى الشامة السودا اللي في وشه.. كل يوم بتكبر وتبان أكثر.. وبيان معاها الشبه بينه وبين وليد أكثر وأكثر.. والعوانس خدوا بالهم وحاسة انهم بيدبروا لي مصيبة.. والحاج ناوي ع الشر أكثر منهم.

ثم تحول بكاءها لعويل تقول:

- أنا خايقة قوي يا مهرة.. ومحتاجالك تكوني جنبي.. أنا ماليش حد في الدنيا غيرك.. أنا...

وفجأة صرخت صرخة ثم صمتت! كأن أحدا انتزع منها الهاتف وأغلقه! فلعدة مرات أحاول الاتصال بها بلا جدوى.

وظلت كلماتها تطن في أذني، خصوصا الأخيرة، ربما لأنها أورثتني تجاهها شعورا بالعجز وقلة الحيلة، فطول عمري وأنا أستنجد ببدرية، وكانت تنجدي، وكم استغثت بها وكانت تغيثني، يكفي يوم جئتها من قطور مطرودة مسلوقة الشرف، فاستقبلتني في صدرها بحنان، وقامت تجاهي بها لا تقوم به الأخت تجاه أختها.. والآن ها هي تستنجد بي وتستغيث، فماذا أنا فاعلة لها؟

ولعدة أيام لم أسمع صوتها، لا هي تتصل ولا أنا أعرف ماذا أصاب

هاتفها، فمرة يعطيني رنيناً بلا رد، وأكثر المرات أجده مغلقاً.

رحماك يا الله.. أنا أضعف مما تقذفني به الأقدار.

فنسمة بعد اتصالها الأخير، لم تتصل حتى الآن، وأشرف لا خبر عنه بعد عشرة أيام من رحيله، ثم هاهي تختم بي.. وبمصيبتين.. الأولى بدرية التي تستنجد بي ولا أملك لها شيئاً، والثانية آلام الانزلاق الغضروفي التي أصبحت تعوق حركتي، ومؤخراً انقطعت بسببها أياماً عن العمل. ولكن قررت أن أذهب لبدرية، فلا يصح أن أتأخر عنها تحت أي ظرف.. لولا أن فاجأني أحد رجال سردينه باتصال:

- مبروك يا مُدام.. البلا نصات وصلت عند الطلاينة بسلام.

- وابني؟

- ضروري ح يكلمك.

وأهني المكالمه!

وفورا أمسك الشيطان برأسي، ماذا لو أن الرجل يكذب؟ ماذا لو أن العملية كلها من البداية نصب في نصب؟ تماماً كما قرأت وأقرأ كثيراً على النت.. ماذا لو أن ابني مات ويخفون موته عني، فأكون من أوردته بنفسه مورد التهلكة؟

وبكيت حتى الإغماء..

ثم لم أجد ملجأ إلا علاء..

لكن هاتفه لا يزال مغلقاً منذ تركني يوم رحل أشرف، وأيضاً عاد

يختفي ولا أرى وجهه، وفي مقر عمله لم يدلني أحد عليه!
فقررت المجازفة.. أن أذهب له عند أمه.

ولم أفكر كثيرا في ما قد أجده منها من إعراض وفتور، أو من أخته
من كلمات تسم البدن، أو من زوجته من نظرات احتقار وإهانة.
وفعلا أشاحت سلوى بوجهها بمجرد أن رأته، وتجاهلت أمها
يدي الممدودة لها بالسلام! ولم تكن زوجة علاء عندها هذه المرة.
وبمجرد جلوسي سألتني سلوى بتهكم:

- إيه أخبار علاء؟

ولم تنتظر لأرد، بل أردفت بتهكم أشد:
- ما احنا المفروض مانعرفش أخباره إلا منك.
ولما لم تجد مني إلا الصمت.. عادت تقول:

- إيه؟ هو ما عا ديش يزورك وللا إيه؟

- خالص يا سلوى.. أحلف لك بإيه ان أنا اللي المفروض أسألکم عنه؟
- آه يا كدابة.

وقبل أن أفيق عاجلتني أمها:

- يا بنتي ده الناس من كام يوم شافوه نازل من عندك الساعة ثلاثة
بعد نص الليل.

يا إلهي.. أم ياسر ما زالت في شرباص، فمن إذن؟

وعادت سلوى تقول:

- آه منك يا فاجرة.. بيت أخويا اتخرب بسببك.

ثم أمها:

- يا شيخة لو عايزة تعشقي إعشقي بعيد عن ابني.. وسيبيه لعياله
وبيته الله يخرب بيتك.

فوجدت نفسي أقوم أجري، وفي أثناء اندفاعي من الباب اصطدمت
بزوجة علاء، كانت عائدة للتو، وكعادتها نظرت لي شذرا ولم تكلمني،
لكن وأنا في الشارع، إذا بها خلفي تناديني:

- دقيقة واحدة يا مدام.

ياه.. منذ رأيت هذه المرأة وعرفتها، هذه أول مرة تكلمني! واستندرت
لها، فقالت بلهجة كلها احتقار كنظراتها:

- تقدري تقولي لي انتي عايزة إيه بالظبط من سي علاء؟

ولم تعطني فرصة لأرد:

- عارفة.. علاء ده مقلب كبير قوي ح تشربه.. وتلاقيكي فعلا
شربتيه...

ثم:

- أنا عن نفسي مش عايزة منه حاجة.. ده عرة الرجالة.. أنا بس
عايزاه ينتبه لعياله ويراعيههم كأب.

ويبدو أنها كانت مصرة ألا تعطيني فرصة لأرد، أو لأنكلم من الأساس، إذ استمرت تقول بنفس الاحتقار:

- أنا مش عارفة انتي حاسة بيه راجل ازاي؟

ثم أسرع تفتح حقيبتها وتخرج منها ورقة مطوية، دستها في يدي تقول شامته:

- خلي دي معاكي يمكن تنفعك.. جنك ستين نيلة عليكى وعليه.

ثم بصقت تجاهي وانصرفت.

ووقفت أحلق في الورقة في يدي، كانت صورة ضوئية ومكتوبة بحروف أجنبية، ومن شدة ذهولي، مشيت لا أشعر أن يدي مطبقة عليها تكاد تمزقها.

وفي البيت استلقيت على سريري أريد البكاء، لكن لا دموع، ثم تذكرت بدرية، فحاولت الاتصال بها، لكن كالعادة بلا جدوى، فعدت أحلق في الورقة.. آه لو أعرف فك طلاسمها.. حتى مرت بخاطري الدكتوراه نهاد، هي تستطيع بلا شك أن تقرأ هذه الورقة، وهنا فقط استجاب لي البكاء، فجاءني وجاء معه بالنوم.. إذ بكيت فارتحت فنمت.

ولكنني استيقظت في جوف الليل على اتصال من علاء، وبقدر ما كنت في أشد الغيظ منه، كنت في أمس الحاجة إليه، ومع ذلك صرخت فيه:

- إنت فين ومش بترد على تليفوناتي ليه؟

- افتحي يا مهرة.. أنا من مدة واقف على الباب باخبط..

وفتحت له ودخل.. لكن شاغلي الأول لم يكن هو، كان أشرف،
لذا بادرت به:

- واحد من طرف سردينية اتصل وقال ان مركب أشرف وصلت
إيطاليا.. بس بعدها قفل السكة.. وبصراحة انا قلقانة قوي.
- كويس.. كده فات الكثير وبقي القليل.

- يعني إيه؟

- البلانصات قبل ما توصل إيطاليا بمسافة.. وعشان البوليس هناك
مايمسكهاش.. بترمي الناس الي عليها في البحر.. وهما يكملوا المسافة
عوم.

هو نفس الكلام الذي قرأته على النت، وقرأت أيضا أن البلانصات
كثيرا ما تلقى بمن عليها لتلقطهم السفن العابرة، فإما تسلمهم للسلطات
الإيطالية كلاجئين، وإما يلاقوا مصيرا مجهولا، ما يعني أنني سأظل
طويلا تحت رحمة الأقدار، قد يتصل بي ابني من على أرض إيطاليا أو
لا يتصل.

وأراد علاء أن يقبلني، فدفعته أقول:

- أرجوك تنزل دلوقت.. وكم ان أرجوك ما تحبش هنا تاني.

- ليه؟

فصرخت فيه:

- أمك وأختك ومراتك عارفين كل حاجة.. أخبارنا أول بأول
عندهم.

- هي أم ياسر مش لسه في شرباص؟ مين بقى اللي ينقل أخبارنا؟
- معرفش.

- عموما أمي وأختي مقدور عليهم.. أما مراتي...

ولمعت عيناه ببريق الشر، وكدت أبوح له بما كان منها، خصوصا الورقة، لكنني في آخر لحظة تراجععت.. شعرت أن في تلك الورقة ما سيفسر لي الكثير.

وعاد يراودني عن نفسي، كان مُصرا بقدر ما كان مُثارا، فاستسلمت له ولكن على مضض.. ولكن لا جديد.. بعد عدة محاولات عاد يتكور على نفسه ويدخن، لكنه ظل يحاول حتى نجح بالكاد في محاولة، وبعدها أراد أن ينصرف، فرفضت بشدة، فالجو كان حارا جدا والناس ساهرة، وبالتالي خفت أن يراه أحد، لذا طلبت منه بالأمر أن ينتظر للصباح.

وعند الفجر رن هاتفي برقم غريب، فمنيت نفسي فرحة أن تكون نسمة أوزوجها، لكن المتصل قال إنه أشرف، ومع ذلك كلمته متوجسة:

- بجد انت أشرف؟

- آه والله يا ماما أنا أشرف.

كنت خائفة أن تكون خدعة من رجال سردينية، فطرق الخداع عند هؤلاء كثيرة، يكون ابني لا قدر الله مات ويريدون إيهامي بأنهم أوصلوه إيطاليا سالما.. أيضا كما قرأت على النت.. لكن عندما تأكدت أن اللهجة هي لهجة ابني.. صرخت:

- أشرف يا حبيبي...

وانهرت في بكاء هستيري، لكنني تمالكت نفسي غصبا عندما سمعته
يقول:

- اسمعيني يا ماما عشان دي فرصة يمكن ماتتكررش افي باكلمك
ببلاش.

- سامعاك يا حبيب قلبي.

- الأول ازيك يا ست الكل؟

- أنا بخير طول ما انت بخـ...

وبكيت ثانية، فقال:

- لأ مش كده.. اجدي او مال يا ست الكل.

ثم سعل، فسألته جزعة:

- بتكح ليه يا أشرف؟

- ماتقلقيش.. ده بس م الكام ساعة الي عُمتهم في المية.

- عُمَت في المية؟ ليه؟

- البلانص رمانا قبل الشط بمسافة كبيرة قوي.

- بس انت دلوقت واقف على الأرض؟ مش كده؟

- أيوه يا ماما اتطمني.. أنا دلوقت واقف على أرض إيطاليا.

- طيب الحمد لله.. ألف ألف مليون حمدالله على سلامتكَ يا

حبيبي.. احكي لي بقى على كل الي حصل معاك.. من ساعة ما نزلت

من عندي، لحد ما وصلت عندك بالسلامة.

- أحكي لك ده إيه يا ماما؟ أي نعم أنا باكلمك ببلاش، لكن بكارت واحد طلياني صعبت عليه.

- ليه؟ فلوسك راحت فين؟

- كلها ضاعت.

- معقول؟ التمانين يورو والخمسين دولار؟

- وكمان التليفون والورق.. كل حاجة ضاعت وأنا باعوم في المية.. مافضلش غير الورقة اللي مكتوب عليها آية الكرسي اللي خدتها من عمو علاء، يعني انا دلوقت يا مولاي كما خلقتني.

- ولا يهملك يا حبيبي.. قل لي محتاج كام وانا اتصرف وابتعتهم لك.

- ماتشغليش بالك يا ماما.. وكويس انها جت على كده.. أنا ذات نفسي كنت ح اضيع.. كانوا بيضربوا علينا نار في المية.. وفيه ناس ماتت فعلا.. لكن الحمد لله قدرت اهرب انا واتنين معايا.. واحد منهم له قريب في نابولي.. إن شاء الله ح نروح له يشوف لنا شغل.

فعدت أبكي وأردد كالمجنونة:

- يعني انت كنت ح تموت يا أشرف؟ يا ريتني ما طاوعتك م الأول.. يا ريتني ما خليتك تسافر.

- كلام إيه ده يا ماما؟ ما انا عارف من الأول اني ممكن اموت.. المهم دلوقت ألاقى شغل.

- بإذن الله ح تلاقي .. وبإذن الله موفق دايمًا يا أشرف يا ابن بطني
انت والاتنين الي معاك.

- هو ده الكلام يا ست الكل .. دعواتك .. مش عايز غير دعواتك ..
ودلوقت بقى مضطر اسيبك .. الجدع الطلياني قلقان ع الكارت بتاعه
وعَمَّال يبص لي .. وان شاء الله ح اكلمك قريب ع النت صوت وصورة.
- إن شاء الله يا حبيبي .. وخذ بالك من نفسك يا أشرف ..
وماتنساش ت...

- ماما .. لا إله إلا الله.

- محمد رسول الله يا حبيب ماما.

ثم جلست أبكي، ولم أهتم بعلاء الذي أراه يفتح الباب ليتسلل!
ولعدة أيام انسلخت عن الدنيا تمامًا، ونسيت كل شيء، حتى ورقة
زوجة علاء، رغم أنني رأيت الدكتورة نهاد في المستشفى أكثر من مرة،
وحتى بدرية نسيتها ونسيت زيارتها، لم أعد أفكر إلا في شخصين فقط ..
نسمة وأشرف .. أنتظر مكالمة من أيهما بفارغ صبر.

أما علاء، فلم يبرح يتصل بي من وقت لآخر، وفي كل اتصال لا
يتحدث إلا عن شيء واحد .. محاولته شبه الناجحة .. يتحدث عنها كأنه
فتح عكا! وذات اتصال ألمحت له بقاء جديد، لأراه أمامي فجأة، وفي
وضوح النهار! فقلت له بما يشبه الصراخ:

- علاء .. إنت ليه مصمم تفضحني؟

لكنه لم يهتم، وبدأ أمامي سعيدًا عن كل مرة، والحقيقة كنت مثله

وربما أكثر، ربما لأن الأقدار في هذا اليوم بالذات كانت تريد لي السعادة،
فنسمة فاجأتني باتصال قبل مجيء علاء بلحظات، نعم لم أفهم منها شيئاً
بسبب رداءة الصوت، لكن المكالمة في مجملها كانت مطمئنة.

وبدأ علاء يغازلني، ثم يحاول، وكالعادة بعد عدة محاولات فاشلة،
نجح بالكاد في واحدة، لكنها كانت كافية لتشيع البهجة بيننا، وأشفقت له
كثيراً عندما جاء يقف بجواري يشاركني سعيداً إعداد الغداء، ويحدثني
كأنه فتح عكاً!

لكنه بعد الغداء عاد يتكور على نفسه ويدخن، ولفنا صمت طويل
وثقيل، حتى جاءني اتصال من أشرف، فنظرت لي، لكنني قررت ألا أفتح
الإسبيكر مهما كان:

- إزيك يا حبيب قلبي.. أخبارك إيه دلوقت؟

ولشوان لم أسمع إلا السعال، فصرخت:

- أشرف.. مالك؟

- تعبان قوي يا ماما.

- ليه يا حبيب ماما؟ خير؟

- صدري.. الأزيمة ح تموتني.

- إنت مش بتأخذ العلاج؟

وانتبه علاء على كلمة العلاج، فأخذ يتابع باهتمام، وعدت أسمع ابني:

- باخده بس برضه تعبان.

ثم:

- ماما.. أنا عايز انزل.

- تنزل؟

- أيوه يا ماما.

- بتقول تنزل يا أشرف؟

- أيوه يا ماما انزل.

وانتهت إلى علاء يريد أن يلقني كلاما، وفعلا همس:

- قولي له هو انت لحقت؟

- هو انت لحقت يا أشرف؟

- الحال هنا يا ماما مش زي ما كنت متخيل.. الشغل هنا شحيح

قوي.. تقريبا مفيش.. والأخ بتاع نابولي بقى بيتهرب مننا.. آخر مرة

قال لنا إن الطلاينة نفسهم مش لاقين شغل.

- طيب ح تنزل ازاي وانت بتقول مامعكش فلوس؟

وأسرع علاء يهمس:

- ولا ورق.

- ولا ورق يا أشرف.

- مش مشكلة يا ماما.. ح اروح السفارة بتاعتنا في روما وهما يتصرفوا.

- السفارة؟ وبتوع السفارة ح يتصرفوا ازاى؟

وأسرع علاء يهمس:

- ح ير حلوك وح تتبهدل هنا في المطار.

- ح ير حلوك وح تتبهدل في المطار يا أشرف.

- خلاص.. ح ارجع مصر زي ما جيت.

- يعني إيه ترجع زي ما جيت؟

- يعني ح ارجع في البحر.

فصرخت:

- يا مصيبتى.. إوعى تعمل كده يا أشرف.

- ماتخافيش.. الأخ بتاع نابولي بيقول إن فيه هنا ناس زي الرئيس

سردينة.. بس يونانيين وأتراك.. ح نمضي له على إيصالات أمانة ويسفرنا

على مركب واحد منهم.

فعدت أصرخ:

- إياك تعمل كده يا أشرف.. لو عملت كده ح اموت نفسي.. فاهم؟

ح اموت نفسي.

- طيب قولي لي أعمل إيه يا ماما؟ باقول لك أنا تعبان.. تعبان.

فنظرت لعلاء أهمس له عجزا وحيرة:

- بيقول انه تعبان وعائز يرجع في البحر.

- قولي له استحمل شويه لحد ما تلاقي شغل.. ويبقى معاك تمن الرجوع.

- استحمل شوية يا أشرف لحد ما تلاقي شغل ويبقى معاك تمن الرجوع.

فصرخ ابني والسعال يمزق صدره:

- يا ماما باقول لك أنا تعبان.. تعبان.. والله العظيم تعبان.

فصرخت أيضا لكن من اليأس وقلة الحيلة:

- خلاص انزل يا أشرف.. بس خ...-

وانقطع الاتصال وعلاء يهمس:

- ينزل ازاى؟ هوح ينزل من شرم الشيخ؟

فصرخت فيه:

- مش عارفة بقى.. أنا خلاص تعبت.. تعبت.

وغلبنى البكاء.. فإذا به يتسلل وينزل.

وفي جوف الليل.. لم أصدق وبدرية تتصل:

- بدرية.. طمني.. عامله إيه يا حبيبتى؟

وللحظات ليست بالقصيرة، لم أسمع ردا، فعدت أقول:

- بدرية.. إنتي سامعاني؟

لكن الصمت استمر.. فأخذت أصرخ:

- سامعاني يا بدرية؟

واستمر الصمت حتى انقطع الاتصال، أو أغلق الخط عن عمد، فطلبتها بلهفة في الحال، وبعد رنين طويل سمعت من يقول:

- ألو.

وانقبض قلبي من الصوت! يا إلهي.. إنه صوت رجل، بل وصوت منكر وأجش ولا حتى صوت الحاج فهمي! وعاد الصوت يخرق أذني:

- عايزة مين؟

- مش ده تليفون مدام بدرية؟

- أيوه.. إنتي بقى تبقي مين؟

- أنا مهرة صاحبته.

- أهلا وسهلا.

ثم أغلق الخط، فعدت أطلبه، فعاد يغلق.. وتكرر حتى أغلق الهاتف نفسه! فذهب ذهني يضرب أحساسا في أسداس، مع إحساس مقبض بأن شرا ما وقع هناك.. وآخر سوف يقع هنا!

وفعلا، فوجئت ليلا بصوت خبطات ثقيلة على الباب، خبطات لا يمكن أن تكون لعلاء، وذهبت أفتح وأنا مرعوبة، ليندفع ثلاثة رجال غلاظ الوجوه، سألني أحدهم بغلظة لا تقل عن غلظة وجهه:

- إنتي مهرة عطية عبد العال؟

فقلت وقلبي ينخلع رعبا من صوته:

- أيوه.

فصاح بزميليه:

- هاتوها.

لأجد نفسي داخل سيارة شرطة وسط ذهول الجيران، وفي قسم شرطة البرج أخذوا مني الهاتف قبل أن يدخلوني حجرة مقبضة كالحة الجدران، وتركوني بها لوقت مربي كالدهر، لم يأت خلاله من يكلمني أو يفسر لي، وقبل أن تنهار أعصابي، اقتحم الحجرة رجال آخرون أشد غلظة.. صاح بي كبيرهم:

- اسمك إيه يا بت؟

- مهرة.

- بالكامل يا حلوة.

- مهرة عطية عبد العال.

- تعرفي واحدة اسمها بدرية؟

- أيوه.

- علاقتك بيها إيه؟

- صاحبتني.

- طيب احكي لنا بقى عن صاحبك.. من يوم ما عرفتها لحد ما لقيوها مقتولة.

- مقتولة؟

- يعني مش عارفة يا روح امك؟

- والله ما اعرف حاجة.

- صاحبك لقيوها مقتولة هي وابنها وواحد اسمه وليد.

وسحب كرسيه وجلس أمامي، بينما أحاط بي ثلاثة من رجاله، فحكيت لهم كل شيء بالتفصيل، وعندما انتهيت صاح بي الرجل:

- لا لا يا روح امك.. إنتي كدابة.. ويكده ح نزعل منك.. واحنا زعلنا وحش.. وحش قوي يا مهرة.

- والله العظيم أنا قولت كل حاجة.

- لا.. ح تحكي لنا الحكاية من الأول.. ولو خبيتي حاجة ح نعرف.. وساعتها بقى انتي حرة.

ثم صرخ حتى كاد قلبي ينخلع:

- احكي.

فحكيت ثانية..

أعرف أنهم يعتصرونني ليحصلوا على كل معلومة تساعدكم في التحقيق، وعندما انتهيت عاد الرجل يقول:

- إنتي برضه مصممة تكدي.. يظهر بقى انك مش عايزة تنامي الليلة في بيتك.

- والله العظيم انا قولت كل حاجة.

- متأكدة؟

- آه وكتاب الله.

فاقترب مني بتؤدة، ثم فجأة صفعني يقول:

- أو مآل ليه ما قلتيلناش عن علاء يا بنت الكلب؟

- علاء!

وعرفت أنهم وجدوا رقمه أيضا على هاتف بدرية، وأنهم استجوبوه وباح لهم بكل شيء، فحكيت لهم تفصيل تفاصيل علاقتي به، ولكن حتى ذلك لم يشفع لي، إذ عاد الرجل يقترب مني ويهمس لي بذلك الهدوء الذي يثير الرعب:

- وبعدين معاكي بقى؟ شكلك كده عايزة (.....)

ومادت بي الأرض من حقارة وانحطاط اللفظ، فصرخت:

- والله العظيم انا قولت كل حاجة.. كل حاجة.

ولم ينقذني إلا هاتفه الذي رن.. تحدث فيه لحظات ثم ابتسم لي يقول:

- حظك حلو يا مهرة.. مسكوا القاتل.

وأفرجوا عني..

والمجنونة رحت أبحث عن علاء، لكن هاتفه إما مغلق وإما غير متاح.. وتذكرت الورقة.. من باكر كنت بها في المستشفى أعرضها على الدكتورة نهاد، التي بعد أن قرأتها بتمعن شديد، سألتني بدهشة لا تخلو من ريبة:

- مهرة.. التقرير ده بتاع مين؟

- تقرير؟

- أيوه ده تقرير طبي بتاع واحد اسمه علاء.. علاء ده بقى يبقى مين؟

وشممت في كلامها رائحة ما، فقلت مضطربة:

- علاء ده يبقى.. يبقى...

- طبعا أكيد مش جوزك.

- لا لا مش جوزي.

ثم وجدتني أسأها باستغراب:

- وليه مش جوزي؟

- ما هو لو كان جوزك.. استحالة كنتي ح تعرضي التقرير بالشكل

ده.. أو بالعشوائية دي.. أو ماكتيش ح تعرضيه عليا أصلا.

- ليه؟ هو فيه إيه؟

- مهرة.. التقرير ده بتاع مين؟

ومن لهجتها هذه المرة.. تأكدت أن الأمر أخطر مما أظن!

الدكتورة نهاد صديقتي، ليست صديقة بمعنى الصديقة، ولكنه الارتياح المتبادل، هي مثلي لا ترتدي النقاب، ولا تميل للمتقبات والمتحجّن الذين يعج بهم المستشفى، لذا كنا كالمنبوذتين بينهم، ما جعلنا نتقارب بعيداً عنهم.

وعندما أحست أن أسئلتها تسبب لي خوفاً ما وحرّجاً.. قالت:

- عموماً مش مهم أعرف مين صاحب التقرير.. لكن مهم تعرفي يا مهرة.. إنه ممنوع أقول لك ع اللي مكتوب فيه.. إلا بموافقة صاحب التقرير نفسه.. عشان لو قلت لك من غير موافقته.. يبقى ده اسمه إفشاء سر مريض.. وإفشاء سر المريض مخالف للأخلاق أولاً.. وللقانون ثانياً.

ثم ردت لي التقرير تقول:

- أسفة يا مهرة.. شوفي حد غيري.

فخطفته منها وجريت به للطبيب أبو ضياء، الذي بمجرد أن قرأه قال بمنتهى البساطة:

- ده تقرير عن حالة مريض غير صالح للمعايشة الجنسية، الانتصاب عنده ضعيف ويحصل على فترات متباعدة.. وغير كافي لإحداث الأورجازم المطلوب.

ولم أسأله عن اللفظ الأجنبي، فقد قال بالعربي ما فيه الكفاية، فقط سألته:

- ممكن يتعالج؟

- الحالة دي بالذات صعبة ويتأخذ وقت طويل.. خصوصاً إن

جانب كبير منها سيكولوجي ومرتبطة بالمكان.

وأيضاً لم أفهم اللفظ الأجنبي.. لكن كلمة (المكان) فسرت لي إلى حد ما أن حداثك المنتزة لم تكن تمثل لعلاء ذكريات رجولته الأولى فقط.. بل الوحيدة أيضاً!

وأخيراً عثرت عليه.. هو بنفسه اتصل.. وتقابلنا كالمعتاد على الطريق السريع، وبمجرد أن توقف بالسيارة سألته:

- علاء.. إنت كان ليك علاقة ببدرية؟

واهتز صوته وهو يقول:

- ببدرية؟ أبدا.. ليه؟

- طيب قلت إيه للحكومة اللي لقيت نمرتك على تليفونها؟

ولم يجد مفراً.. قال وهو يتجنب نظراتي:

- آه.. افتكرت.. فعلاً ببدرية كانت اتصلت بيا من مدة.. ما عرفت جابت نمرقي منين.. كانت عايزة تقابلني بس انا رفضت.

فهتفت في سري: (جتك ستين نيلة عليك وعليها)

ثم سألته:

- علاء.. إنت بتتعالج؟

- باتعالج؟ باتعالج من إيه؟

- من اللي انت عارفه وانا عارفاه.

ولثوان شرد ينظر لي، ثم إلى لا شيء، ثم صاح:

- هي مراقي قالت لك حاجة؟

- كل حاجة.

فشرد ثانية، ثم فجأة أدار السيارة وانطلق وهو يصرخ يتوعد زوجته:

- آه يا (.....) يا بنت الكلب.

ثم يصرخ لي:

- لو كانت قالت لك حاجة عنى ماتصديهاش.. دي (.....) بنت

كلب وعينها فارغة.. وحالاح اثبت لك اني كويس ومش باتعالج.

وإذا به ينطلق بالسيارة في اتجاه الإسكندرية، ويزيد من سرعته

حتى صرخت أنا:

- طيب انت دلوقت رايح على فين؟

- ع المتزة.

- المتزة! إنت اتجننت؟

- بدمتك واحنا في المتزة.. مش هناك كنتي حاسة بيا؟ مش كنت

معاكي زي الفل؟ مش خليتك يومها مش عايزة ترجعي دمياط؟

حصل وللا ما حصلش؟

ومن فرط انشغاله بي كاد ينحرف بالسيارة، حتى عدت أصرخ

من الرعب:

- حصل يا علاء حصل.. بس دلوقت ارجع بينا أرجوك.

- لآ.. لازم نروح المنتزة.. لازم تعرفي افي مش مريض.

- عارفة والله عارفة.. بس دلوقت ارجع أرجوك.

- في المنتزة ح تشوفي أنا ح اعمل ايه.. هناك بابقى حاجة تانية.

كان في قمة انفعاله وعدم سيطرته على نفسه، وكاد يصطدم أكثر من مرة ويتسبب في كارثة، فقلت أحياله لكي أسيطر عليه:

- ماشي يا علاء.. نروح المنتزة.. بس مش بالسرعة دي عشان خاطري.

فبدأ بالفعل يهْدئ من سرعته، لكن ليس بالقدر الكافي، فمؤشر السرعة كان على ١٦٠ كم/ ساعة، ثم زاد الطين بلة، كما يحلو له وكما اعتاد في أثناء القيادة، أخذ رأسي بين صدره وذراعه واستمر يقود السيارة بذراع واحدة، حتى اندمج معي عنوة في قبلة طويلة، قبله لم أشعر خلالها إلا بالغثيان، لنتبه والسيارة تتخطى جزيرة منتصف الطريق، ثم تدور حول نفسها عدة مرات ويفقد سيطرته عليها تماماً، ثم إذا بسيارة نقل ثقيل قادمة من الاتجاه المعاكس، فصرخت وأغمضت عيني انتظاراً للمصير المحتوم، حتى سمعت صوت اصطدام هائل، ولم أعد أشعر بشيء.

* * *

هنا كانت بدايتي..

وهنا أيضاً أنهيتها..

فلتساحوني جميعاً ولتذكروني بخير..

كلمات كنت أقرأها وأنا طفلة في قطور، أراها مكتوبة على شاهد أحد القبور هناك، وكنت كلما قرأتها، يقشعر جسدي مهابة ورهبة، مع رغبة غامضة أن يكتبوها على قبري أيضا عندما أموت، ووقتها لم أكن أدري أنها مجرد كلمات للذكرى، كتبها شخص ما على قبره قبل أن يموت منتحرا.

لكن عندما أفقت في حجرة بسيطة بمستشفى لا أعرفه، وبعدما تذكرت الحادثة فتحسست جسدي، لأجده سليما إلا من عدة رضوض وكدمات بسيطة! وبعدما سألت بلهفة عن علاء فقالوا لي إنهم بتروا ساقه! وبعدما رأيت الشر ورغبة الانتقام في نظرات أمه وأخته، ساعتها تمنيت بحق أن أفعلها.. أن أنتحر.. بشرط أن يكتبوا على قبري وبالحراف، كلمات مثل كلمات قبر قطور.

وتساءلت للطبيب لا أصدق:

- بتر! إزاي؟

- رجله انحشرت بين صاج العربية وشاسيه مقطورة كانت جاية من الاتجاه المعاكس.. فانسحق العظم مع اللحم وكان لا بد من البتر.

- وأنا؟

- إنتي ربنا سترها معاكي.. كابينة العربية مع شاسيه المقطورة عملوا عليكى ساتر رباني.

ساتر رباني أم هي سخرية الأقدار؟!

هكذا هتفت لنفسي.

وفي اليوم التالي كنت في بيتي، وجاء كل جيراني يزوروني، عدا أم ياسر، وانزعجت جدا لهاتفني الذي ضاع مع حقيتي كلها.. ماذا لو أن أشرف ونسمة أحدهما يتصل بي الآن؟

وبعد أيام بلغني أن علاء أيضا غادر المستشفى إلى بيته، أو إلى بيت أمه، ثم توالى الأخبار أنه طلق زوجته وتنازل لها عن كل شيء، وأنهم في العمل سحبوا منه السيارة، ثم الوظيفة ذاتها بعد أن أصبح غير مؤهل لها، وأنه يعيش الآن في كنف أمه.

وعلى مدار شهرين كاملين، أجبرتني آلام ظهري أن ألزم السرير، لا أفعل شيئا إلا اجترار الذكريات.. ذكرياتي منذ كنت أجمع البؤس في قطور، حيث سلو الناس هناك هو أكل ميراث الإناث.. إلى أن انتهت بي الحال لأعيش في شقة لا أملك فيها شبرا واحدا، وفي بلدة تطرد أبناءها كما يطرد البطن ديدانه.

ثم زادت آلام ظهري عن الحد، حتى صارحني الأطباء بأنه لا مفر من الجراحة، ولكن من أين تكاليفها؟ وحتى المستشفى نفسه الآن في طريقه للإغلاق.

حتى أجبرتني آلام ظهري، ومعها آلام نفسي، أن أهذي أغلب الوقت كأن بعقلي لوثة.. وأحيانا أخطب الأقدار:

أعترف لك أيتها الأقدار أنني كنت مخطئة.. بل خاطئة.. تجاوزت كثيرا في حقك، كنت لاهية بينما أنت جادة، وعابثة بينما أنت حكيمة، والآن أنا مخطئة وبقايا إنسان، وأنت أيتها الأقدار أيضا رحيمة.. فماذا لو ترحينني من آلامي إلى الأبد!

ولكن هيهات هيهات أن تستجيب الأقدار، فمنذ متى وهي تستجيب للعاثين؟ ما حدث أنها وبمنتهى اللامبالاة استمرت تعاقبني، بل وراحت تمنعني في عقابي، كأنها تؤكد لي بالفعل أنها دائمة جادة، لم ولن تعرف الهزل أو المزاح.

والبداية كانت المستشفى.. قاموا فعلا بتصفيته.. لأفقد عملي.

ثم الطامة الكبرى!

فوجئت، ويا للزمن، بعزة أخت المرحوم حسن وبعد كل هذه السنين، تأتي وتطرق باب شقتي.. أقصد شقتها! وكم غير الزمن ملاحظها! ولكن الملامح فقط دون الطباع، فها هي نفس النظرة.. نظرة الكراهية.. ونفس اللهجة.. لهجة الاستفزاز.. فيا لنظرتها ولهجتها وهي تقول لي:

— أنا جاية أقعد هنا لحد ما المحكمة تحكم لي بالطلاق.

وألقت أمامي بحقيبة ملابسها وملابس ابنتها التي في مثل سن نسمة، وراحت تتجول في البيت وترتب فيه أشياءها، بالضبط كأنها سيدهته التي لم تغادره لحظة.

ثم الطامة الأشد!

جاء أخوها يزورها، أيضا غير الزمن ملامحه عدا الطباع، ثم تكررت زياراته، وفي كل مرة يُلمح إلى أنه أيضا في خلافات مع زوجته، حتى قال مؤخرا إنه ترك لها البيت وسيقيم هنا انتظارا لحكم الطلاق، وبدأ يتمدد على الكنبه يشاهد التلفزيون، ليعود كل شيء كما كان.

واستمر العقاب.

يوما وفي جوف الليل، سمعت طرقا على الباب، نعم كان خفيفا لكن وقعه كئيب، فذهبت أفتح وإحساسي أنها الحكومة، وبالفعل كانت هي، لكنها هذه المرة جاءت مهذبة:

- إنتي الست مهرة؟

- أبوه.. فيه إيه؟

- ممكن تفضلي معانا؟

- ليه؟

- هناك ح تعرفي كل حاجة.. واحنا آسفين جدا والله يا فندم.

فنزلت معهم مضطرة.. ومن حظي كان ثمة موكب نواح يمر ساعتها أمام المنزل، موكب وإن كان صامتا بحكم اعتياد النواح، أو الزهد فيه، إلا أنه كان طويلا لا ينتهي، به عشرات بل مئات الرجال والنساء، ومشينا مع الموكب كأنا جزء منه، أو كنا جزءا منه بالفعل، وفي ساحة قسم الشرطة أجلسوني وسط النسوة، كلهن متشحات بالسواد، والصمت يخيم عليهن وعلى الجميع، حتى كسرتة إحداهن بنواحها، فتبعها قطع من النائحات، لينتشر النواح في الجميع انتشار النار في الهشيم، حتى أصبحت ساحة القسم ساحة للتباري في النواح، حتى جاء شرطي يصيح بصوت جهوري:

- سكوت انتي وهي وهو.. الي تسمع أو يسمع اسم حد يعرفه..

يجي يقف هنا في الطابور عشان ياخذ التصريح.

فهدأ النواح، وأخذ الشرطي ينادي أسماء، لكنني كنت في شغل

عنه، آلام ظهري كانت جد مبرحة، وذهنى مشغولا ببحث مسائل تفوق قدرات أعتى الفلاسفة، مسائل مثل تصاريق القدر، والقضاء والقدر، وكل ما هو متعلق بالقدر، ولم أكن مهتمة بأن أنتبه للأسماء التي يناديها الشرطي، لكنه كان كلما نادى اسما، ترتفع عقيرة امرأة ما بالنواح، فتتبعها أخريات، ثم يهدأ نواحيهن حين تذهب النائحة أو من ينوب عنها لتقف في الطابور.

حتى نادى الشرطي اسما، فانتظرت أن أسمع نواحا، فلم أسمع شيئا! فقط الصمت التام الرهيب.. و.. ونظرات متسائلة تحمق في وجهي! حتى لكزني إحداهن تقول:

- قومي.. ده إسم ابنك.

فصرخت فيها:

- اخرسي قطع لسانك.. إبنى فى إيطاليا من زمان.

فارتفع لغط النسوة يؤكدن أن الاسم هو اسم ابني، فلم أكف عن الصراخ فيهن هيسيريا: لا. حتى جاء أحدهم على كتفيه نجوم نحاسية تلمع، واقترب مني بهدوء وتؤدة، رفعت كفي لوجهي تلقائيا تحسبا لصفعته، لكنه سحبني برفق من ذراعي، ومشى بي مشفقا باتجاه حجرته، ثم أجلسني على أحد المقاعد الوثيرة، ثم قال لي بحنان بالغ:

- يا ست مهرة.. الاسم اللي حضرتك سمعته من شوية ده.. ده إسم ابنك.. الموج حدف جثته هو وخمسين واحد.. ولقينا سلسلة ملفوفة حوالين رقبتة.. فيها ورقة مكتوب عليها آية الكرسي وإسمه وإسمك وعنوانك.

فقمتم أخبط بيدي على مكتبه وأصرخ:

- اخرس.. إنت كداب.. إبنى وصل إيطاليا من زمان.. وبنفسه
كلمني من هناك.

ثم أطلقت ضحكة عالية أقول:

- الجثة اللي بتقول عليها مش جثة ابني.. روح شوفها تبقى جثة مين.
- يا ست مهرة...

- وإياك تقول لي أروح اشوفها بنفسى.. من غير ما اشوفها.. دي
مش جثة ابني.

ثم توالى ضحكاتي وصرخاتي، وعليها تجمع كثيرون، كل النائحين
والنائحات جاءوا ليروا هذه التي تضحك وتصرخ فى آن واحد، ولكن
الأثنى بداخلي لم تكن تلمح من بينهم إلا واحدا بالذات، ربما لأنه يشبه
علاء، أو لعله هو.. كان يحاول اختراق الزحام متكئا على عكازه يريد
أن يصل إلى حيث أقف أمسك بتلابيب الضابط، وغصبا عنه ومن
فرط تدافعه مع الناس، كان يترنح أحيانا ويسقط، فيتعد عنه عكازه
أمتارا، لكنه لم يكن يعاني الأمرين ليلتقطه، أياد كثيرة كانت تتسابق
للتلقطه وتعيده إليه.

تمت

عزبة البرج

اكتشفت "مهرة" مبكراً أن كل شيء سيكون ضدها. لم تعتمد السباحة عكس التيار، لكن علاقتها بـ "حسن" كانت الذريعة التي أتاحت لعائلة زوج أمها سلب ميراثها وطردها من قريتها، فلم تجد أمامها من يساعدها سوى صديقتها "بدرية".

وبعد زواجها من "حسن"، اعتقدت أن أمورها ستستقر، لكن تقلبات الأيام كانت لها بالمرصاد، لتجد نفسها في النهاية في صراع بين غريزتها كأم وغريزتها كأنتى، ومن أجل حسم هذا الصراع كان عليها أن تضحي بالكثير.

السيد شحاتة، روائي مصري من مواليد سنة ١٩٦٢ بالإسكندرية. حاصل على بكالوريوس التجارة من جامعة الإسكندرية، ويعمل حالياً محاسباً قانونياً. نشر روايته الأولى "فتاة الله" سنة ٢٠١٦، وتعد "عزبة البرج" هي روايته الثانية.



للنشر والتوزيع